لستم بوخ

أحد عشر يوماً فى العاصمة العالمية للروحانيين باسطنبول



راشد شاز

لستم بوخ

راشد شاز

milli

كانت أيام عندما كنا نعرف زاوية مدار الشمس عن طريق القطب ووقتئذ كانت قبضتنا علي دوران الليل والنهار وكنا نحس بهذه القبضة واليوم نجد أنفسنا عالة علي دوران الأيام بعدما وقعنا فريسة للأقطاب والأبدال. إن الروحانيين قاموا بالتأثير علي أذهاننا الطواقة للمعرفة بحيث انحرفنا عن دعوة القرآن الاستكشافية وصارهدفنا المكاشفة والمجاهدة. وظلت تطاردنا الهلاوس باسم الدين. ونتيجة لهذه المطاردة لم نستطع الإبقاء علي سبقنا لشعوب العالم في الدنيا الحقيقية.

وما لم تتكشف الحقيقة الواقعة لعامة المسلمين وهي أن المظاهر السائدة للحياة الدينية وسلسلة المبايعة والكرامات للروحانيين لا تمثل الإسلام في شيء بل كل هذه المظاهر الكاذبة خطط ممنهجة للقضاء علي الإسلام الحقيقي.



ISBN 978-93-81461-15-0

milli publications

بإمكانك أن تسميه كتابا من كتب أدب الرحلات غير أنه خلال رحلة الطالب الصادق هذه مثلما اتسع أسلوب الكلام في الدين وعن التعبير بالدين جعل كتاب الرحلات هذا ذات أهمية كبيرة فكل ما كتب حتي الآن من الكتابات النقدية عن التصوف لا يعتبر أكثر من مشاهدة خارجية، وبما أن أهل التصوف يقولون أن التصوف ليس من قبيل الفهم أولا ثم التعامل معه بل هو عكس ذلك أي أن تتعامل معه أولا ثم تحاول فهمه. وبناء علي هذا لا يعطون هؤلاء المتصوفين أي أهمية لنقد يأتي من الخارج أي بدون الخوض فيه.

إن كتاب الرحلة هذا، خصوصيته وامتيازه هو أن صاحب الكتاب يأخذك إلي مجالس أهل السلوك وإلي ديوان كبار الأولياء في وقتهم حيث يخترق جناح عامة السالكين والكاتب نفسه لم يتيسر له تحمل كل هذه المشاق إلا بعد أن أفني وقتا غاليا من عمره العزيز وبصفة خاصة من أيام شبابه حيث كان يرتب ويصنع أحذية كبار الشيوخ من العرب والعجم كأنه واحد من الداخل الذي حاول فهم رموز التصوف عمليا.

أي شيء يقال له المجاهدة؟ وما هي المكاشفة؟ وماحقيقة اتصال الشيخ؟ وما هو التكييف الديني للسلاسل المختلفة لطرق التصوف؟ إن العشرات من أمثال هذه الأسئلة الدقيقة والمقلقة عندما تقرأ عنها في هذا الكتاب تحسب أحيانا أن الكاتب أصبح شريكا في عملية البحث هذه.

ما هو الإسلام؟ وكيف تم تغييره؟ لو أردت المعرفة والاطلاع علي هذه الحادثة الفاجعة فيكفيك مطالعة كتاب واحد وهو هذا الكتاب الذي بين يديك وذلك لأنه أثناء الحكاية الجذابة لأهل الصفاء ظهر الخبث الباطني مع الصفات الظاهرية للتصوف أيضا.

www.barizmedia.com

راشد شاز فى سطور

إن البروفيسورالدكتورراشد شاز من أولئك المثقفين والمفكرين الذين وفقوا لدراسة العلوم الشرقية والغربية، وحظوا بفرصة وافرة للتعامل مع أصحاب مختلف الحضارات والثقافات.

حصل السيد راشد شازعلي درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من الجامعة الإسلامية بعليكره بالهند ثم ذهب إلي السودان لدراسة العلوم العربية والإسلامية حيث التحق بالمعهد العالي للغة العربية بالخرطوم (الجامعة الإفريقية الدولية حالياً).

في عام ١٩٨٧م وأثناء دراسته أصدر كتيبا لإحياء الإسلام في الهند والذي أحدث حراكا في الوسط الفكري المتجمد لمسلمي الهند. وفي عام ١٩٩١م عقد مؤتمرا عاما لمسلمي الهند كخطوة عملية اجرائية لتنفيذ ماورد في هذا الكتيب من توصيات. وفي عام ١٩٩٣م قام بوضع حجر الأساس لبرلمان ملي وعقد تحت لوائه عددا من المؤتمرات والاجتماعات العامة التي منحت المسلمين نوعا من الثقة ودلتهم إلي سبل التعامل مع الفكر السياسي الجديد. وفي عام ١٩٩٤م أصدر مجلة إنجليزية باسم "ملي تايمز انتارناشونال"، ومنذ ذلك اليوم يشرف عليها حتي الآن. وفي عام ٢٠٠٤م أصدر مجلة الكترونية أخري تصدر كل شهرين باسم "فيوتشر اسلام"، وذلك لإحياء الفكر الإسلامي. تصدر هذه المجلة باللغتين العربية والإنجليزية في آن واحد ، وفي عام ٢٠٠٥م عقد مؤتمرا في مدينة لندن لدراسة ومناقشة الظروف الراهنة علي مستوي العالم، ودعا من خلال هذا المؤتمر الأحزاب الثورية لمحاسبة نفسها وفتح صفحة جديدة.

ولإقامة عالم جديد مبني علي العدل والمساواة ظل راشد شاز فعالا ومتعاونا مع الآخرين في مختلف المحافل الدولية والمنتديات العالمية، وفي هذا الصدد قام بالسفر لمعظم دول العالم.

قدم راشد مئات المقالات ما بين قصيرة وطويلة عن الفكر الإسلامي والقضايا الخاصة بالأمة الإسلامية باللغات الأردية، والإنجليزية والعربية. كذلك صدر له حوالي أربعين كتابا بأحجام مختلفة من مطابع دلهي،وبيروت ،ولندن والرياض.

www.rashidshaz.com

لستم بهخ

اسم الكتاب: (١١) يوماً في العاصمة العالمية للروحانيين بإسطنبول.. لستم بوخ
تأليف: راشد شاز
الطبعة الأولى: ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-035-9



الدار العربية للموسوعات
المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

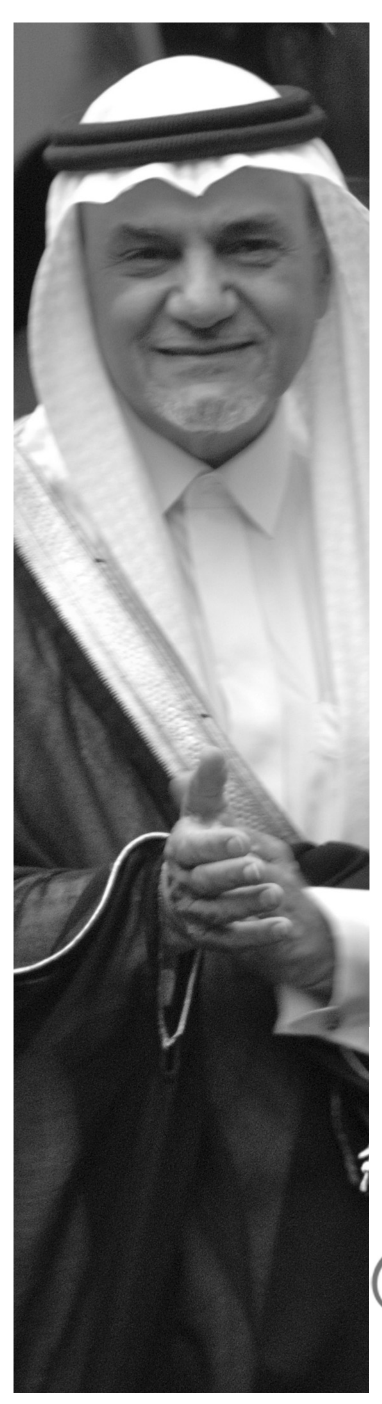
[١١] يوماً
في العاصمة العالمية
للروحانيين بإسطنبول
لستم بوخ

تأليف

راشد شاز

الدار العربية للموسوعات

بيروت





إلى ناصحي

صاحب السمو الملكي الأمير

تركي الفيصل حفظه اللّه

الذي ألهمني التفكير النقدي والإبداعي

المؤلف



١

الاستدعاء

كان هذا هو اليوم الثالث لإقامتي في مدينة إسطنبول، وكانت قاعة الاستقبال بفندق جراند جواهر تعج بحركة كبيرة، وكان هناك وقت لا بأس به لبدء افتتاح المؤتمر. علماء المجلس العالمي كانوا منتشرين في جماعات صغيرة، ومنهمكين في مقابلات غير رسمية، كما كانوا يتبادلون الآراء فيما بينهم، ففي مكان ما لهذه القاعة لا ترى إلّا الطرابيش، وفي مكان آخر العمائم البيضاء، التي تزداد بهاء، وفي مكان ثالث - من نفس القاعة - لا ترى إلّا القلنسوة التركية المعوجة بكثرة، وفي هذا الخضم من الملابس القدسية تجد أيضاً البدل وروابط العنق. وعند إلقاء النظر على ملابس العلماء هذه، يبدو لك من أول وهلة، كأن كائناً من السماء هبط إلى الأرض!

في الوقت الذي هممت فيه بالذهاب إلى قاعة الاستقبال، ظهر شخص كهل استوقفني محيياً: السلام عليكم، ثم قال: لدي رسالة لسيادتك في غاية الأهمية، ويمكنك أن تسميها «**بطاقة دعوة**». نظرت إليه بقدر من الدهشة والاستغراب! فقد كان يبدو لي شخصاً عادياً من الأتراك، لكن وجهه كان يحمل نوعاً غريباً من السكينة والوقار، كأنه ليس من سكان هذه الدنيا! ثم بدأ يقول: إنني أحضرت لك دعوة من

مضيف الرسول (ﷺ) ألا وهو سيدنا أبو أيوب الأنصاري (رضي الله عنه)، أنا رسوله، وهو يطلبك للتو واللحظة، فهل تحب أن تذهب معي؟

حينما كنت مستغرقاً في التفكير ومحاولاً فهم الموضوع، بدأ يقول هذا الرجل: جاء هنا اليوم من أنحاء الدنيا، ما يربو على (٤٠٠) من العلماء الأفاضل، لكن القرعة جاءت باسمك فقط. وأثناء هذا الكلام الغريب جاء أحد معارفي الأتراك؛ ولعله قد شعر بعدم رغبتي واعتراضي على تلبية هذه الدعوة، وشجعني على قبول الدعوة، بإيماءة منه، وحينها فهمت الإشارة؛ فقبلت دعوة هذا الرجل المجهول أو الغامض.

في الخارج - ببورتيكو - كان في انتظاري شابان في سيارة الأجرة، وبمجرد رؤيتنا؛ خرجا منها احتراماً وتقديراً لنا، والسيد أمين قام بتقديمي كضيف خاص، ثم تحركت سيارة الأجرة الخاصة بنا، والآن بعدما تجاذبنا أطراف الحديث أثناء الطريق، بدأ ينقشع الغمام عن شخصية السيد أمين؛ فهذا الرسول المجهول الممتلئ بالأسرار والرموز هو أستاذ التاريخ بجامعة مرمرة! وبعد مرور (١٥) دقيقة، أو (٢٠) دقيقة توقفت سيارة الأجرة، في منطقة مأهولة بالسكان، والسيد أمين غاب عنا بسرعة البرق، وبعد بضع ثوان ظهر راكباً سيارة قديمة! وهنا استأذن الفتيان، فقام السيد أمين بوضع قبلة أبوية على جبينيهما بمحبة وشفقة، أما هذان الفتيان فهَمّا أن يقبلا يده، ولكنه لم يمكنهما من هذا، وسحب يده بشكل طريف! وكان يبدو أن علاقتهما بالسيد أمين علاقة روحية، فهل السيد أمين شيخ روحاني في رداء الأستاذية؟ وبينما كنت منشغلاً بهذا الأمر، تحركت عجلة القيادة بسرعة، وانطلقت سيارتنا نحو المكان المطلوب.

وعندما دخلنا في فناء مقبرة أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) لم يكن هناك وقتئذ أي نوع من الازدحام، ولكن هذا المكان الواسع الفسيح المليء بالآثار والمقابر - بكل تأكيد - يكون مكتظا بالزائرين من بعد

الظهيرة، أما الناس في الداخل فكانوا منتظرين لأدوارهم، في طوابير طويلة بشكل منظم. هممت أن أنضم إلى هذا الطابور، ولكن السيد أمين أمسك يدي، وأخرج من جيبه مفتاحاً للباب الخلفي لهذا المكان. فتح الباب بنفسه، وقام بلمس عتبة الباب بجبهته يميناً ويساراً، ثم دخل وهو يمسك يدي، وأعطى بعض التوجيهات للمسؤولين المحليين الموجودين هناك، ثم بمفتاح آخر فتح الحجرة الخاصة، الموجودة على جانب من المقبرة. كنت مندهشاً لهذه العناية الخاصة بي! ثم أخرج من جيب بدلته كاميرا؛ وأمر شخصاً ما بأن يلتقط لنا صورة في هذا المكان. كانت هناك سجاجيد مفروشة حول المقبرة؛ تيسيراً وتسهيلاً للزائرين.

أما الزوار فكانوا منشغلين بالأوراد والوظائف، منتشرين في كل أركان وزوايا المكان، في جماعات صغيرة، ولكن الهجوم كان شديداً على المكان، الذي كان مزداناً بآثار، وعلامات قدم أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) في براويز زجاجية. وعندما رأيت هذا الهجوم حول آثار القدم، والناس يدعون، ويتوسلون؛ سألت مضيفي ماذا يفعل هؤلاء؟! هل عندكم دعاء للقدم أيضاً؟! اختار السيد أمين السكوت الغامض على سؤالي هذا. وخارج مبنى المقبرة كان بعض الناس يشربون الماء من السبيل المقام هناك، والبعض الآخر كانوا يتوضئون، أما المجموعة الثالثة فكانت منشغلة بالأدعية بالسر، وهم يمسكون سياج السبيل بكل قداسة! في ظل هذا المسجد كان هناك أيضاً مكتب السيد أمين، حيث شربنا الشاي. أخرج السيد أمين من درج المكتب كسرة خبز، وقام بقسمتها إلى قطعتين، قدم لي قطعة قائلاً: بركة بركة (أي أنها بمناسبة هذه الضيافة الخاصة) فكلها مع الشاي، ثم تناول هو هذه القطعة من الخبز الجاف، وعند العودة أعطاني قطعة من الحجر، التي قام الأطفال بتلوينها ورسم قبر أبي أيوب الأنصاري والآثار الملحقة به

عليها ثم قال لي: احتفظ بها؛ فستكون هذه هدية تذكارية للسفر، إذ إن هذه القطعة - في ظاهر الأمر - قطعة فنية، غير أن لها علاقة بمضيف الرسول (ﷺ) وفي تلك الأثناء جاء اتصال هاتفي للشيخ أمين، وبعدما فرغ من إنهاء المكالمة بدأ يقول: إن زوجتي وابنتي لديهما رغبة لمقابلة الضيف الهندي لسيدنا أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) وهما كانتا على استعداد للوصول هنا، ولكن جاء اتصال تليفوني في تلك اللحظة؛ لذا فهما مضطرتان لتغيير برنامجهما، بسبب ظروف طارئة.

«**زيارتك مباركة يا راشد**»، قالها السيد أمين كهتاف مدو لعاشق! وظهر في عينيه اللمعان الذي يتولد عند الفوز بمعركة كبيرة! فشكرته رداً على هتافه هذا، ثم جاء بي بسيارته إلى مدخل الباب الرئيسي للفندق، وعانقني معانقة الوداع بعين دامعة! وحينما قال: زيارتك انتهت، لمحت في عينيه نفس اللمعان السابق، وفي ثوان انطلق بسيارته القديمة رسول مضيف الرسول (ﷺ) الممتلئ بالأسرار والرموز، فلو لم يكن هذا الحجر موجودا في جيبي، لظننت أنه مجرد حلم، لا أكثر ولا أقل، ولكن ما زال طعم الخبز المبارك باقياً أيضاً.

٢

الكائن السماوي

منظر قاعة المؤتمر اليوم كان مختلفاً تماماً؛ فكانت بطاقات الاقتراع السري توزع بين مشاركي المؤتمر. كان عليهم أن ينتخبوا الرئيس الجديد والموظفين الجدد للفترة القادمة، لكن لم يكن في حسبان أحد، كيف يتم انتخاب أسماء معدودة من خلال هذا العدد الكبير من العلماء والحكماء والمفكرين؟! وإن كان المسؤولون قد اقترحوا أن يقدم بعض الناس عدداً من المرشحين المحتملين، لكن عدداً كبيراً من الناس كانوا معروفين محلياً، فمنهم خطباء مساجد في مدنهم، ومنهم المفتون في مناطقهم المحلية، ولكن دولياً لم يكن أحد على معرفة بمكانتهم، أو مناصبهم، فلعامة المشاركين في المؤتمر كانت قائمة المرشحين هذه تضم مجموعة أسماء مجهولة؛ فلم يكونوا قطعاً على معرفة بهم، ولم يكن مفهوماً لدي كيف، وعلى أي أساس أرشح اسماً بعينه دون اسم آخر؟! وإذ كنت في هذا المأزق أتصفح قائمة الأسماء هذه - الخالية من الروح - إذ ارتفع صوت في الميكروفون، بأن الذين توجد أسماؤهم في هذه القائمة عليهم أن يصعدوا على المنصة، بترتيب الأسماء، ويعرفوا الحضور بأنفسهم. كان هذا الأمر لبعض الناس شاقاً، أما البعض الآخر فتحمل هذا العبء بالفرح والسرور. وعلى الرغم من المساعي المبذولة، لم تحل هذه المعضلة، ألا

وهي: من يستحق الصوت في هذه القائمة الطويلة للمرشحين؟، وإن كان قد تم الاتفاق مسبقاً على أن يكون هناك نائبان للرئيس: وأحدهما يكون من الشيعة، والآخر يكون من الفرقة الإباضية، وبتلك الطريقة ستكون الرئاسة للسنة؛ فالعالم السني يستطيع أن يتمكن من الوصول إلى هذا المنصب.

وفي ركن من القاعة كان هناك تجمع للسيدات، وبدأت ترتفع أصوات الاحتجاج منهن منادية: المرشحات المرشحات. كانت لهن شكوى، وهي: أن قائمة المرشحين كانت خالية من بنات جنسهن. أما المنظمون للاقتراع، فيبدو أنهم كانوا على دراية كاملة، بفن الديمقراطية، وهؤلاء ربما كانوا على علم، بأن هذه الأصوات ممثلة لمختلف الآراء والأفكار التي يسمع دويها، ويخيل إليّ أن هناك حرية إبداء الرأي، فكل هذا سينتهي ويستقر خلال بضع ساعات، وفي النهاية ستأتي عبر صناديق الديمقراطية نفس النتيجة التي يريدونها.

خلف قاعة المؤتمر حيث كان يقدم الشاي، وعندما بدأ الناس الجلوس حول الطاولات المستديرة، رأيت شخصية روحانية عظيمة! كان يمسك في يدٍ عصا جميلة وخفيفة، وفي اليد الأخرى كان يحمل قلماً، وهو جالس على طاولة مع بعض الكتب، يحملق في الفضاء تارة، ويكتب في مفكرته تارة أخرى. خيل إليّ أنني رأيته من قبل، فربما أكون قد قابلته في مكان ما، وهذا هو الشخص الذي يشكو، من أن المتصوفين قد حرموا من التمثيل في هذا المؤتمر الدولي للعلماء أنه الشيخ أحمد جيلاني صاحب أكبر حلقة، ذات أثر ونفوذ في مدينة إسطنبول. مساء أمس حينما كنت قد قابلته، أخبرني بأنه ليس رئيساً للطائفة الجيلانية فحسب، بل هو من ذرية عبد القادر جيلاني أيضاً، وهو قد حصل على شرف طبع تفسير «**عبد القادر جيلاني**»، في (٦) مجلدات مؤخراً. لكن أمس عندما قابلته

كان يرتدي البدلة ورابطة العنق، أما اليوم فهو يرتدي قلنسوة المتصوفين، والملابس الشرقية، وممسكاً بعصا مكتوب عليها طلسم قدسي؛ ولهذا لم أستطع أن أتعرف عليه من الوهلة الأولى.

لم يمر وقت طويل وأنا أشعر بالهيبة والخوف من مهرجان ملابس العلماء هذا. وقتئذ كان تأثري بالعلماء والزهاد مبني على الانبهار من بعيد، والآن بعدما تسنى لي أن أراهم عن قرب، فقد زال الخوف الذي كان يتولد بسبب الغربة والجهالة، وذهبت الهيبة أيضاً؛ لأن أسبابها كانت مبنية على طلاسم مفترضة من العلم والتقوى، فبعدما رأيتهم عن قرب، ظهر لي أن وراء الجبة (الجلباب) والعمامة - التي تبهر الأنظار وتأسر القلوب بقداستها - في الواقع يعيش بداخلها إنسان عادي، وأحياناً أجده أكثر بساطة. وكان سبب هذه المظاهر غير العادية للطرابيش والعمائم في مؤتمر العلماء هذا، هو أن رجال إدارة المؤتمر كانوا قد ناشدوا العلماء المشاركين بصفة خاصة، أن يهتموا بارتداء زي علماء بلادهم؛ ولهذا يخيل لك أن ربيع زي العلماء هذا، في الأصل هو عرض أزياء المولوية.

وفي الجلسة الافتتاحية - حيث تستعد كاميرات الصحافة والإعلام - كان أصحاب الطرابيش قد أخذوا المقاعد في الصفوف الأولى، وبدأت الكاميرات تلتقط صورهم، وتركز على تصويرهم. وعلى كل حال كانت الصحافة والإعلام مضطرة لهذا التركيز، لأن التمثيل في هذه الجلسة إن لم يكن بالجلابيب والعمائم، فبأي شيء يمكن تخيله؟

فهل هذه الأزياء الخاصة بالعلماء، وتلك القلنسوات والطرابيش جزء من أمر مفروض وملزم في الشريعة الإسلامية؟ فقد سألت هذا السؤال لشاب مصري، كان يلبس طربوشاً. ففي أول الأمر ارتبك بسبب سؤالي هذا، ثم بدأ يقول بشيء من الاتزان والهدوء: في رأيي الشخصي، أن علاقة الزي بالدين أقل مقارنة بعلاقتها بالثقافة.

★ أي ثقافة تقصد؟ هل التي تأثرت بالأجنبية، أم الثقافة التي توجد لها أسس في القرآن الكريم، وسنة الرسول (ﷺ)؟!

★ لكل شعب شعار يتمثل ويظهر من خلال زيه، ومعيشته، وأسلوب حياته، وبناء على هذا؛ فلعلماء الإسلام أيضاً زي يعرفهم به للناس من بعيد، وغالباً فان عامة الناس يتوقعون منهم المثل العليا، والأخلاق الفاضلة؛ وهم بسبب هذه المكانة المرموقة يقدمون أنفسهم للناس كنماذج حسنة وطيبة.

لكن سواء كانت مصر، أم لبنان، أم الأردن، أم بلاد الشام، ففي هذه البلاد كلها لا يوجد فرق كبير بين أزياء (العبايا والعمائم) علماء اليهود، والنصارى، والمسلمين، اللهم إلّا قلنسوات اليهود والنصارى التي تكون مختلفة إلى حد ما، فعلماء النصاري يعرفون بالصلبان، والعلامات الأخرى، بل قد يكونون في بعض الأحيان أشبه بشيوخ الإسلام، إن لم تكن الصلبان معلقة في أعناقهم.

إنني لا أتكلم بشأن الأردن، وبلاد الشام (سوريا)، لكن عندنا في مصر علماء الأزهر يعرفون بعمامتهم الخاصة، والآن لاقت هذه العمامة رواجاً كبيراً، ونالت قبولاً واسعاً، وخاصة بعد سقوط الخلافة التركية حلت هذه العمامة مكان القلنسوة الحمراء.

حسناً، أخبرني أن تفصيل الأزياء يتغير ويتبدل مع مرور الوقت. مرة أصبح الطربوش زيا بدلاً من القلنسوة الطويلة، ومرة ابتدعت العمائم بأساليب وطرز جديدة للزينة، ولكن السؤال الأهم هو: منذ متى بدأت أزياء العلماء تختلف عن عامة الناس؟! لأنه لا يوجد أي نظير لهذا العمل في عهد الرسول (ﷺ) ولا في زمن الصحابة (رضي الله عنهم).

بدأ الشيخ ياسر الشاب المصري يشعر ببعض الحرج من تساؤلي

هذا، ولكنه قال: انظر، إنني لست من رجال التاريخ، ولكنني أعرف بكل تأكيد أنه ظل لعلماء الإسلام زي خاص، ومعيشة خاصة، وكان مستواهم في العلم والتقوى مرتفعاً، ومنفصلاً عن عامة الناس منذ قرون. ثم إنه ما دام كل شخص له الحرية في اختيار الملابس؛ فمن يريد أن يلبس البنطلون فليلبس، ومن يريد أن يلبس الجلباب فعليه أن يلبسه. وبناء على هذا؛ فإن اختار العلماء زياً خاصاً لأنفسهم، فلماذا تحرمهم من هذا الحق؟

الأمر ليس قاصراً على حرية اختيار الملابس، ولكن الاعتراض على اختيار زي خاص، والإصرار عليه. ألم تقرأ توجيهات منظمي المؤتمر؟! إذ إنهم طلبوا من المشاركين بأن يشتركوا في الجلسة الافتتاحية بأزياء علماء بلادهم. أليس هذا دليلاً على السطحية نوعاً ما؟! لعلنا نريد بالقلنسوة المزركشة إصلاح اعوجاجنا؛ فكل توجهاتنا تركزت على زينة القلنسوة وتفصيلها. هذا الواقع غير رؤوسنا بالفعل إلى قبعة مستقيمة، وقد غاب عن أنظارنا أن العمل الحقيقي للرأس هو التدبر، والتأمل، وتنمية الأفكار والآراء، وليس الهدف من الرأس وضع القلنسوة، والقبعة، أو العقال.

وعلى الرغم من حديثي هذا كان قاسياًعلى الشيخ ياسر لكنه كان ينصت إلى كلامي باهتمام ثم بدأ يقول: أخبرني إن تنازل العلماء عن زيهم، فمن يراجع عامة الناس في الرشد والهداية؟! ثم إن طبقة العلماء فقط يتعرضون لهذا النقد. فالطبيب، والمحامي، والقاضي، والموظف، الكل يعرف بزيه الخاص.

أليس العلماء أيضاً مثل المهنيين، طائفة مثل أهل المهن والحرف، ولهم سلطة في أمور الروحانيات؟! أردت أن يصل حديثي في النهاية إلى أمر منطقي ومحتوم، فقلت: إن كان الأمر كذلك، فقد جاء الإسلام للقضاء على هذا الوضع، فكيف حدث هذا بعد مرور ثلاثة، أو أربعة

قرون على وفاة النبي (ﷺ)؟ إن المشيخة عبر علماء الدين، والزهاد جعلت لها مكاناً في حرية الفكر لهذا الدين.

كان قد انتهى الشيخ ياسر من شرب قهوته، عندها حضر مضيفي أيضاً؛ ليأخذني كي أذهب معه لمقابلة بعض الأصدقاء وأيضاً زيارة بعض الأماكن الأثرية.

٣

هو قادم

كان الجو في الخارج ملبداً بالغيوم، والأمطار الخفيفة كانت تتساقط في شكل قطرات مستمرة. أخذني السيد عامر وجاء بي إلى مكان فسيح خلاب على شاطئ البحر.

هنا يقع مقهي «**جولدن هارن**» والذي يتحول وقت حلول المساء إلى ملجأ للمفكرين والفنانين. ولعل كلمة الذوبان في فنجان القهوة وضعت لمثل هذه الأماكن. قبل بضع سنوات لم يكن يُرى هنا إلّا صنف واحد من المفكرين، لكن التغييرات التي طرأت في الأوضاع السياسية، بدأ التوافد على هذا المكان ممن يرتدون الكوفية وأيضاً ممن يلبسون قبعة بدون ريشة.

السيد عامر من الناحية العائلية ينتسب إلى طائفة من طوائف سعيد النورسي لكنه منذ بضع سنوات دخل في أوساط مريدي شخصية هارون يحيى الذي ظهر حديثاً.

أثناء شرب الشاي ظل يرن هاتفه الجوال، وعلمت من كلامه أن هناك لقاء مرتباً في منتصف الليل - أي الساعة الثانية عشرة مساء - في الاستديو مع السيد هارون يحيى. يمتد هذا اللقاء بيني وبينه قرابة ساعتين.

قال لي السيد عامر أن هذا اللقاء سيكون في الاستديو كي يشاهده عدد كبير من الناس على التلفاز. وصلنا إلى الاستديو في الوقت المحدد.

في هذا الوقت من الليل كان المنظر جميلاً وخلّاباً؛ إذ كان المكان تحت سفح الجبل والبحر يقوم بتغطية الجو بنوع من الأسرار.

حينما دخلنا إلى المبني بعد قطع مسافات في الطرق المرتفعة والمستوية، وبعد الصعود على السلالم المختلفة. استشعرنا من خلال نشاط أعضاء فريق الاستديو كأنهم استلموا دوريتهم الليلية حالاً.

ظهر من الغرفة الأمامية الشيخ هارون يحيى وهو يرتدي بذلة زرقاء. كان الوقت حينها في الساعة الثانية عشر ليلاً ولم يكن يبدو على وجهه أي أثر للتعب. أما أنا فكنت مرهقاً وأسيراً لروتين الليل والنهار؛ إذ بدأت أؤاخذ نفسي على هذه التراخي.

فبعد استقبال حار ومعانقة أكثر حرارة، قبل لحيتي، وقال لي وقت الوداع: «**إن شاء الله سيظهر المهدي المنتظر بيننا خلال العشر سنوات القادمة**».

أما أنا فلم أكن أتمالك نفسي من هذا الحماس الذي ظهر عليه من إصراره عليَّ بشارته هذه مرة أخرى قائلاً: «**تأكد ولتعلم علم اليقين أنه قادم وستراه إن شاء الله خلال عشر سنوات**».

«**نعم هو قد ظهر**» قلت له متمتماً على سبيل المزاح لكن المترجم إما مصلحة أو سهواً تغاضى عن ترجمة كلامي هذا الذي قلته رداً على بشارته.

كان من المأمول والمتوقع أن يكون هناك تبادل للآراء مع المصنف الفاضل حول الإسلام وأوضاع المسلمين خلال هاتين الساعتين الطويلتين، لكن منذ البداية بدا على أي جهة سيبرك الجمل.

في الليلة الماضية كنت قد تصفحت أحدث كتاب للمصنف الفاضل وهو عن الدعوة للقيام باتحاد تركي إسلامي. في هذا الكتاب كان قد عرض

المصنف مشروعاً يتعلق بتنظيم العالم الإسلامي تحت قيادة الأتراك لإحياء الشعب التركي والإسلام.

لا شك أن الشعب التركي له أهمية تاريخية حيث ظل العالم الإسلامي في يد الأتراك العثمانيين قرابة (٥) قرون؛ فبالنظر إلى هذا دعواهم قوية في أي مشروع جديد. لكن في هذا الاتحاد الجديد للعالم الإسلامي هل سيكون الأساس القومية التركية أم الإسلامية، أم سيكون هذا الأساس للإثنين معاً؟

ثم إن هناك شعوباً أخرى سواء كان الشعب الهندي أو الإيراني أو الإفريقي أم العرب، لماذا يتم حرمانهم من أداء الدور المركزي والمؤثر. والطامة الكبري أن المذاهب الفقهية والفرق الإسلامية مثل الشيعة والسنة والحنفية والوهابية تكون عائقاً في طريق التقدم لأي مشروع إحيائي.

سيطرح السؤال وسيزداد أهميته وهو على يد من سيكون مستقبل العالم الإسلامي؟ أي مذهب فقهي أو طائفي سينال القبول في كونه قالباً حكومياً للدين المبين.

هارون يحيي هذا لم يقدم أي حل لهذه المعضلة، بل ألقى هذه المسؤولية الكبيرة على عاتق المهدي المنتظر القادم. وبدأ يقول أن كل هذه المسائل ستفقد أهميتها بعد ظهور المهدي.

أتمنى من الله أن يكون كذلك لكن تاريخنا المعاصر ملطخ بالدماء بسبب الجدال الفقهي. ومنذ انقسمنا إلى المذاهب المختلفة والمعسكرات الفقهية لم يتوقف اضمحلالنا الفكري والسياسي.

وفي وقتنا الحاضر هزمنا أكبر قوة عسكرية على مستوى العالم في أفغانستان. لكن بعد عودة الجيش الروسي الذي مني بهزيمة نكراء إلى ثكناته، خرجت سيوفنا لقتال بعضنا البعض.

إن الشيعة من طائفة «**هزاره**» غير راضين أن تكون السيادة للإسلام السني، وعدد من فرق أهل السنة أنفسهم مختلفين فيما بينهم، فتحول الإسلام الديوبندي لطالبان إلى مجرد تعذير وتعذيب.

إنني أردت أن أجعل السؤال أكثر حدة فسألته: كيف تواجه هذه المشاكل والمعضلات؟ رد قائلاً أن ظهور المهدي هو الحل لجميع هذه المصائب والنكبات، والآن بدأت اللحظة تقترب. إنني أقول لك مرة أخرى إن شاء الله سيظهر المهدي خلال السنوات العشرة القادمة.

لكن ما هو دليلك على البشارة؟ قال بكل ثقة: كتاب الله وأحاديث رسول الله (ﷺ).

هل القرآن الكريم يطلعنا على ظهور المهدي؟ أردت أن أعرف هذا الأمر بصفة خاصة.

بدأ يقول: في القرآن الكريم توجد إشارات فقط دون توضيح. أما الأحاديث ففيها تفصيلات كثيرة عن ظهوره. إنني جمعت مئات من الأحاديث عن هذا الموضوع على موقعي الإلكتروني.

حسناً قل لي ما هو دليلك على ظهوره خلال (١٠) سنين؟ قال: ذكر الإمام السيوطي أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة استنبطها من حديث.

منذ بعثة النبي (ﷺ) إلى يومنا هذا، فالفترة التي انقضت والفترة التي ستنقضي، قمت بدراسة هاتين الفترتين دراسة عميقة. في ضوء هذه الدراسة تم تحديد هذه المدة. لكن نوع الأدلة التي تطلبها ودرجة الطمأنينة التي تحتاجها تستغرق مني عشرة أو (١٢) ساعة كي أرتب جميع هذه الشواهد والأدلة ثم أعرضها عليك.

بعد هذا الحوار أبدي المصنف الفاضل الشعور بالملل والتعب، وأشار إلى مريديه بإنهاء هذا اللقاء واستئنافه في وقت آخر.

أدركت حينها خطأي بسرعة فربما كنت قد أغلقت باب الحوار الأساسي إذ تعرضت لمسألة المهدي في أوله، لكن عندما تنتهي كل الألحان على ظهور المهدي، فماذا عليّ أن أفعل!

لتصحيح هذا الوضع قلت له: لا تفهم من طرح أسئلتي هذه أنني أعارضك أو أن هدفي من هذا الحوار هو إحراجك وتعجيزك. إنني أقدر أعمالك التي قدمتها ضد داروين والتي بسببها تولدت في الجيل الجديد دواعي العودة إلى الإسلام من جديد. لكن عندما يكون الأمر متعلقاً بالمهدي المنتظر فلا بد من التحري في ميزان الوحي والعقل؛ لأننا لا نستطيع أن نسلم مستقبلنا إلى السمعيات التي تطرب أمزجة الناس.

لكن الأمر كان قد خرج من اليد ولم تكن هناك فرصة للعودة إلى الوراء؛ لأن الشيخ هارون يحيي كان قد صمم على تأجيل الحوار.

إن شاء الله سنستأنف الحديث في لقاء آخر بالتفصيل في الرحلة المقبلة. بعد تناول الشاي قالها وهو يودعنا عند الباب مع ابتسامة لطيفة. وهكذا تأجل ظهور المهدي إلى الرحلة القادمة. كانت سيارتنا تنطلق في شوارع إسطنبول الخالية في الساعة الواحدة والنصف صباحاً نحوالفندق. كنت أفكر في الطريق كيف نجحت تلك الروايات المختلقة في تسميم قلوبنا وعقولنا. في انتظار المهدي والدجال وإمام آخر الزمان والمجدد والمجيء الثاني للسيد المسيح لا أدري كم من الأجيال رحلت عن الدنيا لكن هذه القصص التي لا أساس لها لم تفارقنا. فمنذ محمد بن حنفية لا ندري كم من المهديين قد ظهروا إلى يومنا هذا لكن المهدي الذي يحقق أحلامنا وينمي أفكارنا الطيبة ما زلنا ننتظره. لا مكان في القرآن الكريم لهذه القصص والحكايات ومع ذلك فمنذ قرون والأمة أسيرة لتلك الأفكار الباطلة والهدامة وتنظر إلى القادم الذي يخلصها من هذه الأزمات والمشاكل ويعيد إليها عظمتها ومجدها.

وبعدما رآني عامر مستغرقاً في التفكير بدأ يربت على كتفي وعندما توقفت سيارتنا عند إشارة المرور أخرج من حافظته بطاقته وقدمها إليّ قائلاً كم يكون جميلاً لو سنح لي أن أستمع لآرائك بقدر من التفصيل. إن قناتنا التليفزيونية معروفة لدي الفتيان والفتيات فهم يشاهدونها بكل شغف. نحن في انتظار المهدي بكل الشوق وبشأنه توجد تفاصيل كاملة في كتبنا الدينية ويبدو أن الوقت قد اقترب لظهوره. كان واضحاً من لهجة عامر أنه لا يريد إقناعنا بهذا الرأي بل يدرك من كل قلبه أنه موجود في هذه اللحظات الطربية كشاهد لهذا الحدث في إسطنبول. ولعل هذه المدينة تنال شرف ظهور المهدي، وحينما اتسع الكلام قليلاً في هذا الموضوع اندهش عامر كثيراً عندما عرف أن القرآن خال تماما من ذكر المهدي والإمام الغائب والمجيء الثاني للسيد المسيح.

لكن هذه البشارات والتنبؤات موجودة في الأحاديث، قالها عامر بشيء من الإصرار على صدق كلامه. لا تقل في الحديث ولكن تستطيع أن تقول في الروايات والآثار والحكايات وكتب التاريخ يوجد هذا النوع من القصص الكثيرة المتناقضة فيما بينها لكن على الرغم من هذا إنها أيضاً حقيقة واقعة أن ظهور المهدي أو المجيء الثاني للسيد المسيح لم يكن في يوم من الأيام على مر التاريخ جزءاً من عقيدة المسلمين. ومن البداية هذه مسألة خلافية بين علماء المسلمين حتى أولئك الذين يدعون هذا القدوم الخيالي ليست عقولهم واضحة بهذا الشأن، هل القادم يكون مهدياً أم مسيحاً أم إماماً أم مجدداً فحسب لكن هناك انتظار فقط بأن القادم سيأتي وسيزيل عنهم سوء الطالع كله.

إن التمرد الذي ظهر في العصر الأموي من أوساط آل البيت أو الدعوة الفاطمية والعباسية حينما نشأت تحت الأرض وترعرعت، فكل هؤلاء حاولوا استغلال أسطورة ظهور المهدي المصطنع. وفي التاريخ

الحديث أنشأ المهدي السوداني ولاية مستقلة بذاتها على أساس هذه الأسطورة. وفي شبه القارة الهندية الباكستانية تقدم ميرزا غلام أحمد خطوة فأصر أولاً على أنه مجدد ثم ادعى بعد ذلك بشكل رسمي بأنه المسيح الموعود. لكن خلال اثني عشر قرن من الزمان لهذا التاريخ ظهر مئات من المهديين الصغار والكبار والمجددين والمحدثين والمدعين للفهم والنبوة ولم تنصلح أحوال الأمة حسب التوقعات. ثم بعد رحيل كل هؤلاء من الدنيا أثبت التاريخ بأنه لم يكن واحد منهم صادقاً في دعواه.

قال عامر: فهل لديكم كل هذه الأحاديث عن ظهور المهدي قصص وحكايات محضة؟ نعم قصة أسطورية مختلقة كما سبق لي أن وضحت. ماذا تقصد بالأسطورة وماذا تكون الأسطورة هذه؟ ففي ذاكرة القصص الاجتماعية تحتل بعض الأمنيات التي لم تتحقق مكاناً لها في عالم الخيال بعيداً عن الدنيا الحقيقية. وعالم الخيال هذا أيضاً شيء عجيب فكل الأعمال الإبداعية والأفكار الوليدة والأحاديث الثورية والمستقبل المضطرب تتولد أشكالها الأولية هنا في عالم الخيال ولو وجدت هذه الأفكار قوة العمل والحماس تدفعها لتحولت إلى واقع ملموس فعالم الخيال هذا يتحول إلى حقيقة صلبة غير قابلة للكسر ولكن لو زينت أو استخدمت قوة العمل لتحقيق أسطورة لا أساس لها ويرى بأن جزءاً كبيراً من هذا المشروع سيتحقق عن طريق الكرامات والمعجزات فهذه الأسطورة تجعلنا إما نتعرض لعمل تافه مثل الانتظار وإما نتعرض ليأس شديد بسبب عدم ظهور الكرامات في الأوقات الحرجة الدقيقة. لقد جاء من كان عليه أن يأتي. وبعد النبي الخاتم (ﷺ) لن يأتي أحد. ومن الآن فصاعداً إلى أن تقوم الساعة على أتباع النبي محمد (ﷺ) أن يقوموا بإرشاد وهداية شعوب العالم.

فاليهود أيضاً في انتظار من يأتي إليهم. نعم هذا الاعتقاد في حقيقة الأمر جاء إلينا منهم. اليهود إلى يومنا هذا يتمنون أن يأتي إليهم المسيح (عليه السلام) ويدعون لهذا الأمر كي تتحقق أمنيتهم هذه. هؤلاء في انتظار ظهور زعيم يعيد إليهم عزتهم وكرامتهم وهو سيكون من بني (قوم) داوود وسليمان (عليهما السلام) ويعيد إليهم المجد مرة أخرى. «**سيكون في القدس العام القادم**» هذه العبارة الدعائية تجري على ألسنتهم. هذه هي الأسطورة التي اختلقوها في عالم الخيال. ومع مرور الوقت ازدادت ضبابية الأماني هذه وهم ليسوا مستعدين للاعتراف بهذه الحقيقة الناصعة بأن من هو على شاكلة سيدنا عيسى (عليه السلام) الذي قد ظهر منذ زمن بعيد صدقه وآمن به بعض اليهود وأنكروه ورفضوه البعض منهم. والذين أنكروا ورفضوا تصديقه هم الذين ينتظرون اليوم مجيء السيد المسيح. هذه هي قوة الأساطير التي تجعل القصص رهينة للأماني البعيدة عن الحقائق وعندما تصبح الأمم رهينة للأساطير مرة فيصبح شغلهم الشاغل السير وراء الأسطورة باستمرار.

في القرن الثاني الميلادي تحت زعامة «**باركوخبا**» كان قد استعد الشعب اليهودي كله لملاقاة الإمبراطورية الرومانية مباشرة. واعتنق هذه الدعوة عالم موثوق به مثل «**رباي اكيوا**» مع سعة علمه وعظمة قدره قبل هذه الدعوي الافتراضية الشاذة، لكن أين الجيش الروماني المنظم وأين التفاؤلات الأسطورية والنعرات والشعارات الفارغة من المضمون. مني الشعب اليهودي كله بهزيمة منكرة ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يدعي المسيحية لزمن طويل مرة أخرى. وفي القرن السابع الميلادي أراد «**سباتائي زي وي**» أن يحرك هذه الأسطورة بكل ما أوتي من قوة مرة أخرى وفي هذه المرة أيضاً دخل عدد كبير من الشعب اليهودي في غوغائية «**سباتائي زي وي**»، وكان مما ادعاه أنه مرسل من السماء وهو

الذي كان ينتظره اليهود منذ مدة. كان يؤكد لأتباعه أنه ما أن يراه الخليفة فسينتهي ويذوب على الفور. ألقى القبض على «**زي وي**» وقدم في بلاط الخليفة. الخليفة لم يذب برؤيته ولكنه هو نفسه قد ذاب وتاب عن آرائه الشاذة ولإنقاذ روحه في الغالب أعلن عن اعتناقه للإسلام.

لكن هذه الأمور مذكورة في كتبنا الدينية، وبصفة خاصة مزودة في مجاميع الأحاديث حيث ورد ذكرها بالتفصيل، بل أكثر من هذا توجد لدينا مواقع إلكترونية خاصة مزودة بمعلومات عديدة عن ظهور المهدي وفيها مئات الأحاديث المأخوذة من المراجع المختلفة. لو سنحت لك الفرصة فلا بد أن تتصفح هذه المواقع. لقد حاول عامر أن يستمر في كلامه بشيء من التجسس وبقدر من أسلوب الاعتراض. اعتراضك صائب وفي مكانه ولكن كل هذا الفهم الخاطئ حدث في الواقع بسبب خلط الآثار والروايات (القصص) بالسنن والأحاديث النبوية. الحديث بمعنى قول الرسول (ﷺ) لو أخبرنا عن شيء فلا مجال لنا بعدم قبوله لأن المسلم مطالب بالإيمان بكل ما جاء به الرسول (ﷺ) ويراه فوق الشبهات لأنه من لوازم إيماننا. لكن ما لم يكن هناك دليل بأن هذا القول هو قول الرسول (ﷺ) وحتى إن لم توجد من وراءه آثار الفتنة أو من رواه كذاب فلا يمكن الادعاء بالقطع بأنه قول الرسول (ﷺ). تأمل قليلاً لو كان ظهور المهدي وقدوم الدجال والمجيء الثاني للمسيح من أمور الدين الصحيحة لما كانت النصوص القرآنية خالية من مثل هذه الأخبار الهامة. كل هذا الفساد في الفكر وفي العمل نشأ لأن المسلمين تركوا القرآن المبين ذو النص القطعي وركنوا إلى القصص والحكايات وجعلوها ديناً لهم. القرآن الكريم يطالبنا بالعمل لأننا آخر الأمم وهو يريد من أتباع النبي الخاتم أن يكونوا ساعين لإرشاد وهداية أمم العالم. لكن حدث ما هو عكس ذلك إذ إن الكتب الدينية الثانوية التي بدأت تتشكل تحت ضغط من التاريخ والآثار

والأحداث السياسية والاجتماعية في مختلف العصور حيث لم تنجوا العقول من الأمور الكاذبة التي ذاعت على ألسنة الرواة الثقة، وبدأت هذه الكتب تعودنا على هذه الأساطير المصطنعة حيث سيظهر شخص من وراء أستار الغيب حسب هذه الكتب ويزيل عنا كل الآلام. أصحاب العقول النيرة عندنا بدلاً من أن يجعلوا رسالة القرآن الصادقة والبعيدة عن الزيغ والتحريف معالم طريقهم انشغلوا منذ قرون من الزمان عنها وبذلوا كل قواهم في أن القادم متى وأين سيظهر وما هي علامات ظهوره. هل سيكون مهدياً أم يكون مجدداً بشرياً بدلاً من أن يكون نبياً مسيحياً. بل هناك بعض المسلمين المنتسبين إلى المذاهب الفقهية يتصورون أن سيدنا المسيح بعد ظهوره الثاني سيصلي وراء إمامهم وسيقتل الدجال ولن يجد اليهود في العالم مكاناً للجوء إليه بل حسب بعض الروايات لو كان هناك يهودي يختبئ وراء شجرة أو حجر فالشجرة ستنادي بنفسها قائلة انظروا ورائي حيث يتواجد خلفي يهودي فاقتلوه، وهكذا يعمل الحجر. واضح كل الوضوح ما علاقة هذه الأحاديث التي لا أصل لها بالإسلام وبنبي الإسلام! حينما كانت جميع هذه الحكايات والقصص في كتب الرواية (الحديث) لم يكن قد ورد في حاشية خيالهم بأنها بدلاً من أن تبقى مجرد وثائق اجتماعية لعهد معين تتحول إلى كتب للحديث ويقدسها الناس على أساس أنها أحاديث مروية عن الرسول (ﷺ).

سيارتنا كانت قد بدأت تدخل في محيط الفندق وكانت على وجه عامر حالة من الشوق والاستعجاب. أسئلته ما زالت لها بقية وكان يريد أن يتسع ويطول الكلام لكن جزءاً كبيراً من الليل كان قد ولى وكنت على موعد في الصباح لزيارة ضواحي مدينة إسطنبول.

اعتن بنفسك لأن مهدي المستقبل وراءك وهو يتعقبك. قلت له هذا الكلام وربت على كتفه واستأذنت منه.

٤

قصر حرم السلطان

بعد انتهاء المؤتمر توجهت إلى منطقة السلطان أحمد. هذه المنطقة التي تقع في مدينة إسطنبول تتمتع بأهمية كبري بسبب مبانيها وآثارها التاريخية. فمن بينها كنيسة (أيا صوفيا) وذات الشأن العظيم هذه أيضاً جامع السلطان أحمد الفخم الذان تحولا إلى علامة تصادم وتفاعل بين حضارتين في آن واحد وأيضاً ملحق بهذا المكان قصر واسع وضخم وهو المعروف باسم «**توب كابي سراي**» وقد كتب على بوابته الرئيسة «**السلطان ظل الله**». هذه العبارة القصيرة تدعو أهل الفكر والتدبر إلى أخذ العبرة.

ذات يوم خرجت للنزهة وكان الجو لطيفاً وفكرت في أن أتعشى على شاطئ البحر إذ يقع نظري على الباب الرئيسي لـ«**توب كابي سراي**» حيث كانت إحدى ضلفتيه مغلقة أما الثانية فكانت مفتوحة قليلاً، والحارس كان واقفاً هناك وهو يحمل مدفع رشاش. حيث يؤدي مهمته فعندما رأيت الباب مفتوحاً تراءى لي لما لا يكون مكان النزهة المنطقة الخضراء لهذا القصر. وإن كنت قد جئت إلى هذا المكان أكثر من مرة من قبل إلّا أنني لم أتمكن من إشباع رغبتي في مشاهدة هذا القصر من الداخل نظراً لضيق الوقت والجري وراء إتمام إجراءات السفر والمسؤوليات الأخرى ثم أعود من

حيث أتيت. أردت هذه المرة أن أدخل هذا القصر لكن عرفت أن وقت الزيارة قد انتهى والناس الموجودون في الداخل سيخرجون ويغلق الباب. «ثم إنه لم تبق إلّا (١٥) دقيقة كي تدق الساعة السادسة مساء فما الذي تستطيع أن تشاهده في هذا الوقت القصير؟» قدم الحارس هذا الاعتذار بشيء من المواساة وبقدر من المجاملة.

أخبرته إنني قد جئت إلى هنا أكثر من مرة لكنه لم يتسن لي مشاهدة قصر الحريم إلى الآن. بعد سماع اسم الحريم تبسم ابتسامة خفيفة وبدأ يقول صديقي لا يوجد هنا شيء الآن، إنك فعلاً تأخرت في الحضور إلى هنا ليس تأخير ساعات، بل وصلت متأخراً حوالي مائتي عام. قصر الحريم الآن أطلال ومشاهدة الجميلات وزينتهن متوفرة الآن في كل الأزقة والشوارع والميادين وأماكن الترفيه. ثم في هذا العصر الجمهوري لم يبق الحب والهيام منحسراً على الخلفاء والأمراء فقط.

كنت قد جئت إلى هذا القصر الحريمي «**توب كابي سراي**» لأول مرة عندما كنت طالب علم. يا لها من أيام! كلما تخرج للسفر يبدو وكأن الدنيا كلها ترحب بك مفترشة القلب والعين. لا تجهيز لأمتعة السفر ولا تفكير لأخذ زاد السفر. لا هم للأكل والشرب ولا خوف من مشقات السفر للوصول إلى المنزل. مرت سنوات وسنوات وتجولت البلاد تلو البلاد حاملاً حقيبة صغيرة مثل البجعة، مرة للاشتراك في مؤتمر ما ومرة في ندوة لاستتباب الأمن والأمان، وأحياناً للاشتراك في مسيرات الشباب وأحياناً أخرى للاشتراك في اجتماعات الإسلاميين. وقتئذ عند مغادرة البيت كان يبدو لي أن الآلاف من الأشجار تظللني أثناء الطريق بأوراقها.

عندما لم أكن أملك فلساً «**مليماً**» كنت دائماً أحلم بالسفر حول العالم وعقلي يفكر بالترحال، أما الثقة بالنفس فلا تسألني. كنت أضع الملابس دون كي وأضغط على الحقيبة حتى تحولت إلى بجعة من كثرة

الاستعمال والإعداد المعيب. وبأقل القليل من الزاد كنت أخرج. ولكن وقتئذ كان هناك شعور بمعية الله الحي القيوم كل لحظة. كان يبدو لي أن هناك من يرتب في الغيب لسفرياتي ورحلاتي هذه، وقد كلفني بمشاهدة مختلف البلاد والشعوب. في هذا الوقت كانت التجربة أقل والمشاهدات كانت سريعة ودقيقة جداً. تستطيع أن تقول أن التجربة والخبرة لم تكن قد كلت من المشاهدات. إن الأشياء كانت تظهر في صورتها الأصلية منقحة في الفور وكأن وميضا من تجليات الغيب يطلعني على ماهية وأصل الأشياء في طرفة عين. وعندما كانت تقع العين على شيء غريب ففي التو واللحظة كنت أحس أنه غريب عني. يقال أن الاستمرار في النظر إلى شيء عجيب وغريب والتركيز عليه قد يبدو عمل هادف. ففي الظاهر إن كانت سيئات وفتن الحياة غير مرتبة كانت تتجلى وقتئذ بجميع أبعادها. ففي ذلك الوقت ومن أول نظرة حينما وقعت عيني على العبارة المكتوبة بماء الذهب على الباب الرئيسي لـ«**توب كابي سراي**» «**السلطان ظل الله**» فإنني كنت قد توقفت للحظة. لأنني عند قراءة كلام غريب كان يحدث لي نوع من الإنذار في القلب والفكر. والآن وبعد مرور ربع قرن من الزمان من الاطلاع والدراسة كل ما حدث هو أنني أستطيع اليوم تقديم ركام من الأدلة العلمية على هذه الالتباسات.

قبل الوصول إلى البوابة الرئيسية كنت قد استشعرت أن أول حجر لأساس الأتراك العثمانيين كان مليئاً بالأفكار الملتبسة. أنظر أين الله المجيد المتعال وأين هذا الكائن البشري المليء بالخطأ والنسيان. كيف يليق به أن يجعل نفسه ظلاً لله على الأرض ويحمل إهانته وتحقيره على إهانة وتحقير ذات الله العليم. نعوذ بالله من ذلك. كان هدف مجيء الإسلام أن يحرر رقاب العباد من ظلم وجور الزعامة الدينية. فمن ناحية القرآن الكريم يبين لنا أن رسوله (ﷺ) جاء ليحرر رقاب الناس من الأسر والأغلال ومن الناحية الأخرى يصر خليفة ذلك العصر بأنه مرسل من الله إلى هذه

الأرض وإهانته وعدم طاعة أوامره معصية كمعصية الله. منذ خمس قرون من الزمان والأتراك العثمانيون ومن قبلهم الخلفاء العباسيون والفاطميون والأمويون (باستثناء عدد محدود منهم) كانت سياستهم العامة مزاحمة الحرية الفكرية الممنوحة من الإسلام باستمرار. وكان الإسلام الرسمي لشيخ الإسلام يروج في قالب الدين المبين المعتبر وعلى هذا عندما فرق سفيه الأتراك عباءة الخلافة فبعد قرون من الزمان ظهرت إمكانية الخروج من هذا الشر إلى خير على رأي العلامة إقبال: التفسير الذي كان يعتبر مستنداً للإسلام إلى يومنا هذا تحت تأثير الملوكية وكان عليه سيطرة خليفة ذلك العصر إلى حد كبير. والآن وبعد سقوط الخلافة قد تهيأت الظروف لمشاهدة الإسلام في شكله الأصلي بعد أن ولّت جميع هذه المصالح السياسية والمصالح المتوارثة.

مدينة إسطنبول أيام الدراسة كانت بالنسبة لي مدينة نائمة نوعاً ما. حيثما تذهب تجد سلسلة من المقابر المرصعة والمزينة في ظل المساجد ذات المآذن الشامخة. ومن بين هذه المقابر تجد بعض القبور ذات القباب لعلها لشخصيات شهيرة إلى حد ما ولرعايتها وللعناية بها هناك مجاورون معينون من قبل الحكومة (رسمياً). تجد هناك مقبرة لحاكم سابق أو مسؤول كبير أو مقابر لأهاليهم مزينة حسب المراتب. كذلك تجد على بعض هذه المقابر القلنسوات والبعض الآخر مغطاة بغلاف مخملي مكتوب عليه آيات من القرآن الكريم لتزداد بهاء. استغربت لماذا كل هذا الاهتمام بالقبور في مدينة ظلت داراً للخلافة للأتراك واشتهرت لقرون كعاصمة عالمية، لم أستطع في ذلك الوقت حل هذه العقدة ولكن استمر رنين الإنذار في القلب والفكر.

على شاطئ البحر حيث يوجد كورنيش طويل للنزهة تتواجد مناضد على مسافات لمن يريد أن يجلس عليها ويستريح بعد المشي. وإذ جلست

على منضدة لأتنفس قليلاً أرى في الجانب الآخر من الجزء الآسيوي لإسطنبول على مسافة قليلة حيث أصبح البحر ممتداً لحد النظر أن أشعة الشمس الغاربة مشغولة بنسج طلاسم ذهبية في الأفق. وعندما يحين وقت الغروب للشمس فانها تريد أن تستمر في عملها معتمدة على إرثها من العظمة والافتخار وتريد أن تسدل ستاراً على أمر الاضمحلال هذا بأشعتها المبهرة كي يحسب الناظرون إليها ولو لفترة وجيزة أن قدراً كبيراً من الزيت ما زال موجوداً في المصباح. الأتراك العثمانيون أرادوا أيضاً أن يأسروا القلوب والعيون بأشعة المؤسسات الإصلاحية. ثم وبعد سقوط الخلافة حينما ظهر الغرب لنا كمعيار حتمي وبدأ مستوانا ينزل باستمرار أرادوا إخفاءه بأشعة تقليد الغرب الأعمى. تصور البعض أننا نستطيع سد باب سقوطنا بارتداء الملابس الغربية بدلاً من الملابس الشرقية واختيار سلوكياتهم في المعيشة، ففي الحر الشديد بشهري مايو ويونيو علينا أن نرتدي البدلة ورابطة العنق وعلينا أن نأكل على السفرة بالشوكة والسكينة بدلاً من فرش السفرة على الأرض والأكل باليد. بل إن بعض المصلحين والمفكرين أكدوا لنا أن الملابس الضيقة تغنينا عن الكسل وتجعلنا نشطاء حتى حلق اللحية أصبح ضماناً لتنوير أفكارنا وآرائنا. تبشير الاستعمار هذا في زمنه الذي هو في الواقع مثل السراب غير وضعنا وماهيتنا حتى تمسخت أوضاعنا وصورنا وأشكالنا وجرت على ألسنة مفكرينا المصطلحات الفرنسية والإنجليزية المصطنعة وظهرت خطوط ذهبية باهتة وسمرة صناعية في خصلات شعر نسائنا الجميلة، والعين التي كانت لغمزها وهمسها معنى للحياة وكان الشعر يتمني أن يغرق في بحورها العميقة أصبحت مثلي على أيدي الأجانب بالقص والقطع. خلال (١٥٠) عاماً مضت ما هو الشيء الذي لم يأت به لإسدال الستار على سقوطنا لكن الحقيقة المرة أن كل لحظة قادمة تجعلنا نشعر بخطورة سقوطنا أكثر فأكثر.

مع غروب الشمس انتهى عرض طلاسم الأشعة الذهبية أيضاً. ومن الصعب رفض حقيقة إقبال ظلام الليل وللخلاص منه ليس هناك طريق آخر سوى الانتظار لصباح جديد. لكن لا بد من الانتباه أن لا يؤدي هذا الطريق إلى صبح كاذب.

الصباح التالي طلع مبكراً إلى حد ما حيث لم أكن قد فرغت بعد من أداء صلاة الفجر حتى رن جرس التليفون. أحمد كان قد حضر إلى غرفة استقبال الفندق وبدأ يقول إنني ظللت طوال الليل ساهراً قلقاً وفكرت لم لا أحصل على فرصة أخرى لمقابلتك وبهذا يمكن أن يهدأ اضطرابي ويسكن فؤادي كما أردت أن آخذ من حضرتك وعداً للحضور في مؤتمر جاكرتا والأعمال التي نحن ننجزها في تركيا نريد أن نستشيرك بشأنها. وكان قد جاء مع أحمد عدد من أصدقائه المتحمسين. هذه المجموعة من الشباب تحلم بتنظيم المنظمات والحركات الموجودة على خريطة العالم الإسلامي. وفي الظروف والمتغيرات المعاصرة يأملون أن يستطيع الشباب التركي تأدية دورهم التاريخي مرة أخرى.

لا تقسنا على غرار منتديات العلماء أو المنظمات الخيرية للعرب فنحن أناس عمليون نريد أن ننجز بعيداً عن التعصب اللساني والقومي. نحن نريد أن ننظم هذه الأمة من ساحل النيل إلى تراب كاشغر في عقد واحد ونحولها إلى بنيان مرصوص. في حديثك على راديو (اف ام) قد أوردت أمس بعض الشبهات على القومية التركية مع الاستحسان والإشادة بدورها التاريخي ومحاولتها لإحيائها من جديد فنريد أن يزول التباسنا النظري في هذه القضية. أليس صحيحاً أن الأجيال والقبائل التركية المختلفة منذ اضمحلال الخلافة العباسية وبالتحديد عام ١٩٢٤م عند سقوط الخلافة قد أدت على المستوى العالمي دوراً مهماً. خلال الخمس والسبعين سنة الماضية بذلت الجهود والمساعي كي نكون

غافلين عن تاريخنا لكن بالتدريج نجحنا في العثور على جذورنا. والآن نريد أن نؤدي دوراً مركزياً في إتحاد وجمع كلمة العالم الإسلامي مرة أخرى. ولعلنا أكثر استحقاقاً لهذه المهمة مقارنة بالشعوب المسلمة الأخرى.

لم يكن قد أتم أحمد حديثه بعد حتى بدأ نجم الدين يشكو من عدم اهتمام العالم العربي بالعمل. كان من رأيه أن مستقبل العالم الإسلامي ليس مرهوناً أبداً بنهضة العالم العربي فالعرب يحتلون مكانة ممتازة على اعتبار أنهم أول المخاطبين للرسالة المحمدية. لكن في تاريخ العالم الإسلامي حظوظ الشعوب الأخرى ليست أقل منهم بل أن في بعض المعاملات لهم نصيب أكبر منهم بصفة خاصة بعد سقوط بغداد حمل الأتراك علم الخلافة وظلوا حاملين له قرابة خمسة قرون باستمرار. وحتى التاريخ الحديث حينما كان المسلمون يملكون الدنيا كلها من أبيض وأسود فكانت الإمبراطوريات الثلاثة من نصيب المسلمين أي الإمبراطورية التركية العثمانية والإمبراطورية الصفوية الإيرانية والإمبراطورية المغولية في الهند. وكانت هذه الإمبراطوريات الثلاثة غير عربية بالمرة. إن التاريخ استخدم العرب في أول عهده وهم قاموا بإرساء الحجر ولعلهم صرفوا في هذا العمل العظيم كل ما كانوا يملكون من رأس مالهم من القوة. والآن يريد التاريخ أن يستخدم الشعوب الأخرى المخاطبة. إن حديث نجم الدين كان مبعث عواطف الفخر والاعتزاز والانبساط على وجوه الشباب الأتراك. كانت العصبية العرقية والقومية متغلغلة في حديثه أكثر من أن يكون تحليلاً علمياً وتعليقاً بناء لذلك اغتنمت فرصة التدخل.

أولاً هذا الكلام غير صحيح بأن قوماً ما يفقدون صلاحيتهم لقيادة الخلاقة في مرحلة ما بسبب أداء إنجاز عظيم الشأن وإن جاز التعبير أن

أحوال العرب سيئة جداً لكن في نفس الوقت ليست الشعوب الأخرى المسلمة بعيدة عن الانحلال الأخلاقي والروحاني ثم هناك خوف من أن قوماً ما لو أمسكوا مشروعاً لنهضة العالم الإسلامي فالجماعات العرقية والمذهبية تبدأ بالإمساك بتلابيب بعضهم البعض قبل أن يبدأ المشروع خطوة واحدة. فلما انتزعت العرب قلادة خلافة الأتراك ورمتها بعيداً فجاء كرد فعل طبيعي ظن الأتراك أن مسؤوليتهم القومية أن يرفضوا اللغة العربية بل أزالوا رسم الخط العربي نفسه من عندهم. وهكذا سيدمر العفريت الجديد للقومية مرة أخرى مشروع نهضتنا ونحن نجد أنفسنا في حرب أهلية فالإيرانيون لا يقبلون زعامة عربية ولا تقبل دعوي مسلمي شبه القارة الهندية الباكستانية بأنهم أهل لقيادة الأمة الإسلامية نظراً لخدماتهم التاريخية وموقعهم الجغرافي وكثرة عددهم وذلك لجمع كلمة العالم الإسلامي من جديد. ولهذا أرى أنه لا ينبغي النظر إلى الحضارة الإسلامية العالمية باعتبارها مشروعاً قومياً لأنها ليست خالية من الأخطار. لكني غير قادر على فهم هذا الأمر بأن يسمح للعرب أن يقودوا المحيط الإسلامي أو يسيطروا عليه لمجرد أن القرآن الكريم نزل بلغتهم. إن الشاب كريم الذي كنت أحسبه إلى الآن خجولاً ومراهقاً كسر سكوته بهذا الكلام. كانت في لهجته مواساة أكثر من الاعتزاز القومي. بدأ يقول: ألم تر في اجتماعات مؤتمر العلماء حيث كنت أقدم خدماتي كمتطوع، هناك لاحظت أن السيطرة والغلبة للعرب في المؤتمر غير أنهم لا يزيدون عن ربع السكان على مستوى الأمة الإسلامية. لماذا يحرم من التمثيل الصحيح في هذه المؤتمرات الأتراك والأفغان والإيرانيين والهنود والماليزيين والإندونيسيين. ثم ما هو جواز الدافع لأن تكون اللغة الرسمية للاجتماعات اللغة العربية؟ أمن أجل الأقلية العربية، وهم (٢٥٪) فقط من سكان المسلمين على مستوى العالم. ألا تشعر مثلنا

نحن الأتراك أن العرب يسيطرون سيطرة غير مبررة على مناقشة المحور والمسافة الفكرية بسبب عروبتهم والشعوب غير العربية تجد نفسها على الهامش على الرغم من وفائها وتضحياتها الكبيرة. ولكن إن كان الإسلام معناه الحضارة العربية فقط فكيف يكون هناك اهتمام بهذه الحضارة من قبل الأتراك والإيرانيين والهنود والشعوب الأخرى غير العربية.

حديث نجم الدين هذا كان ذا شجون كما كان قوياً أيضاً فالإسلام الحقيقي أن تنال جنسية سلمان الفارسي، وهي جنسية الإسلام حيث قرر الرسول (ﷺ) في حينها إنضمامه لأسرته بدلاً من أن يراه فارسي الأصل. ثقافة عهد الرسول (ﷺ) هذه أنجبت حضارة عالمية بالاشتراك مع سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي. وبسبب الكفر والشرك تم التخلص من عظماء الشعر والخطابة بالعربية على جانب الطريق. القالب النبوي للحضارة كان قد أحدث حالة جديدة حيث كان فرسان المجتمع العربي يجدون أنفسهم مقتنعين بالاشتراك في مهمة حربية يقودها شاب تم عتقه حديثاً فلو كانت العروبة سبب امتياز وتقدير لما كان القالب العالمي للحضارة التي أحدثت في الأيام القادمة صورة «**يدخلون في دين الله أفواجاً**» لما تشكلت هذه الصورة ولما نالت الشعوب غير عربية في كنفها مقومات السكينة والفلاح.

العروبة أخذت القالب الطبيعي للإسلام لأول مرة في عهد عبد الملك الذي كان يواجه الخلافة المشكلة لعبدالله بن الزبير. فاستخدم عبد الملك البيروقراطية العربية بل يمكنك أن تسميها في اصطلاح ابن خلدون العصبية العربية كعنصر إيجابي لإستحكام السلطة فأخذ قراراً بأن تكون اللغة العربية لغة المكاتب الرسمية، حسابات الصرف، الدخل والتعاملات. فبهذه المبادرة تم توفير المقومات للتفوق اللغوي للعرب واليوم أيضاً لو أعطيت أهمية غير ضرورية للغة العربية

والعروبة لتوحيد الصف الداخلي على مستوى العالم الإسلامي فهناك خطر أن تعود العصبية العربية مرة أخرى مع جميع أسباب الفتن ويجد ابن تيمية الوقت نفسه معرضاً لهذا الالتباس وهو أن تعليم اللغة الفارسية غير جائز بالنظر إلى الحديث (من تشبه بقوم فهو منهم). وأيضاً من علمائنا (أحمد السرهندي إلى شاه ولي الله الدهلوي) من هم مصابون بسوء الفهم على أساس أن العربية القالب الأصيل الأساسي للإسلام. والحق أن ديناً عالمياً مثل الإسلام الذي جاء ليهدي جميع الأقوام والملل منذ الأزل إلى نهاية الزمان لا يمكن أن يكون قالباً لحضارة ما. الجوهر الحقيقي للدين الحنيف يكمن فيما وراء المظاهر الحضارية والتي تؤثر على الحضارات المختلفة وتسع لحضارة واحدة على أن تضم جميع الأبعاد. فالإسلام في الواقع معناه الاستسلام والانقياد لله بحب كامل. فهذه الجبة والعمامة يمكن أن تتجلى فيه بقدر البنطلون ورابطة العنق أو الإيزار الهندي والفانلة. لو أن هناك عالماً هندياً يرتدي إزاراً هندياً وقميصاً طويلاً يقرأ القرآن باللحن الداوودي وقلبه ممتلئ بخشية الله فلا بد أن ينظر إليه في رحاب الحضارة الإسلامية. فالإسلام يغير دنيا القلوب، ولو كانت الملابس، اللغة، العادات والتقاليد مظهراً للحضارة فأبو جهل وأبو لهب كانا يتحدثان اللغة العربية ويرتديان الزي الذي كان يرتديه رسول الله (ﷺ) وأصحابه المقربين، فعلى الرغم من عروبتهما الكاملة إلّا أنهما خرجا من دائرة الحضارة الإسلامية.

كان من الممكن أن يستمر الحوار ويطول لو لم يكن قد جاء في هذه الأثناء صديقنا العزيز مصطفى أوغلو إلّا أنه كان علينا الذهاب اليوم إلى الجزء الآسيوي لمدينة إسطنبول حيث كان ينتظرنا مجلس لأهل العلم حسب البرنامج المقرر آنفاً.

٥

الاعتراك مع التاريخ

إن السيد «**مصطفى أوغلو**» باحث شاب، يتراوح عمره ما بين (٣٠) و٣٥ عاماً. يهوى الموسيقى الصوفية. فعندما يعزف الموسيقار التركي ألحان الألوهية، يغيب مصطفى عن الدنيا وما فيها عند سماع هذه الأغنية الدينية. وحينما توقفت نغمات الموسيقى التي كنا نسمعها في السيارة، بدا لي مصطفى وكأن كل شعرة من جسده قد مسها الجذب وفقد صوابه.

في مدينة إسطنبول وفي الأماكن السياحية بصفة خاصة حيث تباع الهدايا التذكارية، تباع أيضاً أسطوانات مدمجة للموسيقى الصوفية. «**فما هو سر انتشار هذا النوع من الموسيقى؟**» سألت أوغلو سعيا للحصول على معرفة.

قال إن أحد الأسباب الرئيسية هي أن الناس قد ضاقوا من الدعاية المكثفة للعلمانية والليبرالية، ويريدون الآن أن يعودوا إلى عالم يوفر لهم لحظات من الهدوء والسكينة.

كما أن هناك سبب آخر هو أنه ربما يوجد حنين رومانسي في الجيل الجديد للعودة إلى الماضي؛ لأنهم واجهوا الإرهاب الثقافي لفترة طويلة والتي فيها تغير كل شيء يتصل بهم.

لكن لم يظهر شعب تركي يستطيع أن يرفع علم تقدمه خفاقاً في العالم الجديد. وهكذا فإن عامة الناس غير مطمئنين لهذه الظروف وأصابهم اليأس من المستقبل.

ثم إن هؤلاء يريدون العودة إلى الماضي ويظنون أن مجالس الرقص الصوفي والوجد والحال والجذب تستطيع أن تمنحهم لحظات من السكينة والسعادة وهذا الأمر يمكن إدراكه.

أسلوب مصطفى أوغلو كان ذكياً. علمت أنه حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إسطنبول في موضوع المدنية والهوية. والآن يعمل في مؤسسة بحثية لتاريخ اللغة التركية الجديدة.

لماذا هذه الإضافة في اسمك وهي أوغلو؟ إنني أفكر منذ أيام ولم أستطع أن أتوصل إلى نتيجة لما يوجد هنا شخص معروف بأوغلو وآخر بأردوغان والثالث معروف بأربكان وهلم جرا. فعلى الرغم من أن علاقات الأتراك الجغرافية والعرقية والتاريخية مرتبطة بالعرب والفرس والهنود منذ القدم، والإسلام يسري في عروقهم منذ قرون. إلّا أنني أتعجب لما لم أستطع فهم اللاحقة التي تأتي بعد هذه الأسماء؟

ابتسم أوغلو ابتسامة غامضة ثم بدأ يقول: نعم كل هذا ثمرات الثقافة الإرهابية التي أشرت إليها آنفاً. ففي عام ١٩٢٤م وبعد سقوط الخلافة العثمانية، حاولت الدولة التركية الحديثة وبكل ما أوتيت من قوة أن يكون البناء الجديد الذي يقام على أطلال الخلافة العثمانية خالياً من أي أثر للحضارة الإسلامية.

حدثت جميع هذه التطورات بسرعة، وخلال (٦) أو (٧) أعوام على الأكثر. على مستوى الدولة قاموا بخلق فوضى خلاقة وسريعة، معتمدين على الدعاية بحيث لم يكن هناك أي إمكان لأحد أن يحول دون هذا التغيير.

وفي عام ١٩٢٥م قام البرلمان التركي بإصدار تشريع لحظر ارتداء الطربوش التركي واستبداله بالقبعة الإنجليزية. قائد الثورة السيد مصطفى كمال كان قد أشار إلى هذا كإنجاز كبير في إحدي خطبه قائلاً: أيها الناس كان من الضروري جداً طرد الطربوش من البلاد؛ لأنه كان مسلطاً على رؤوس شعبنا منذ فترة طويلة متمثلاً في الجهل وضيق النظر والرجعية، فكان من الضروري أن تحتل هذا المكان القبعة الإنجليزية التي يستعملها الآن العالم المتحضر. ولكي يعرف العالم أيضاً بأن الشعب التركي ليس أقل من أحد في التحضر.

ومن هنا تم خلع الطربوش التركي من على الرؤوس، ومن ناحية أخرى أعلنت السيدات في فوران وحماس الحضارة خلع الحجاب. أما السيدات اللاتي تراخين في هذا الشأن، أصبحن مادة للسخرية والاستهزاء بهن في الشوارع والأسواق، حتى المواطنين المتحضرين استهزءوا بهنّ.

وفي عام ١٩٢٦م تم تغيير التقويم الإسلامي بتقويم جريجوريان وهكذا وبصدفة عجيبة بدأ الشعب التركي بل اضطر أن يتأقلم مع توقيت المنطقة الغربية بدلا من المنطقة الشرقية.

استفسرت منه: ألم يكن قد حدث هرج ومرج بتغيير التقويم في بادئ الأمر؟

نعم، كان الأمر في غاية الصعوبة لآبائنا وأجدادنا لفترة طويلة، فكانوا يتسائلون فيما بينهم في أي يوم نحن، وكم الساعة الآن؛ وذلك لأننا قد دخلنا فجأة في منطقة التوقيت الغربي.

ولم يكن الشعب التركي قد استقر حاله حتى تم الإعلان في عام ١٩٢٨م عن تغيير رسم الخط التركي. وهكذا استبدل الخط اللاتيني بالخط العربي والفارسي وأصبح هذا الخط الآن خطاً رسمياً.

قيل وقتئذ بأن هذا الخط القديم هو سبب تدهور النظام التعليمي عندنا ولكن عندما لم يتحسن الأمر بل زاد الطين بلة، فجاءوا بحل آخر ألا وهو حذف كل المفردات العربية والفارسية بقدر الإمكان من اللغة التركية.

وأقام السيد «**مصطفى كمال أتاتورك**» في عام ١٩٣٢م مؤسسة قومية لتكوين وترويج لغة تركية محضة. حدد لهذه المؤسسة أن تشكل لغة حديثة بالبحث عن الكلمات التركية في مناطق أناطوليا ووسط آسيا.



السيد «مصطفى كمال أتاتورك».

وفي عام ١٩٣٤م صيغ قانون جديد لتغيير أواخر أسماء المواطنين. بموجب هذا القانون تم إجبار المواطنين على أن يلحقوا بأسمائهم اسماً يدل على وجاهة وعظمة عائلاتهم أو يدل على مناطقهم الجغرافية. وبسرعة البرق غابت ألقاب الخواجة والباشا والأفندي والخانم، واحتلت مكانها أسماء مصطنعة لا روح فيها.

هل الأوغلو اسمك الرسمي؟ ضحك مصطفى على كلامي هذا ضحكة قوية، وقال: كلا يا سيدي، فمعنى الأوغلو الابن كما هو الحال في اللغة العربية عندما يقال ابن فلان. فمعنى مصطفى أوغلو ابن مصطفى واسمي بالكامل سلطان مصطفى أوغلو المايس. نعم فهمت! فمعنى مخاطبة أحد بأوغلو كما هو الحال عند بعض الناس الجهال الذين ينادون الناس باسم ابن أو عبد. انظر أين يوصل الجهل بالإنسان.

إنني تذكرت الآن قصة طريفة تدل على جهلي وعدم استيعابي لمثل هذه الكلمات. ففي رحلتي الأخيرة لإسطنبول قابلت السيد أكمل الدين إحسان أوغلو، وذلك أثناء انعقاد المؤتمر. وقد كنت على معرفة به حينما كان مديراً لمنظمة المؤتمر الإسلامي وكذلك كنت أراسله، وها هو اليوم قد جاء إلى هذا المؤتمر كأمين عام للمنظمة وهو محاط بالناس، فأردت أن أخاطبه قائلاً: يا أخ أوغلو. ولكن الله سلم؛ إذ لم تواتني الفرصة أن أخاطبه بهذه الطريقة حيث بادر وسلّم عليّ وصافحني، وإلّا يكون قد انكشف جهلي.

واستمر مصطفى أوغلو في حديثه قائلاً: إن هذه اللواحق التي تجدها في أواخر أسمائنا مثل شمشيك وأردوغان وكوركماز وعان ويكمن وأوزغان، كلها من إنتاج القانون الكمالي **(كمال أتاتورك)**. في أغلب الأحيان كان موظفو الحكومة أنفسهم يضيفون هذا الاسم الأخير.

وهكذا أصبح الأمر في غاية الصعوبة أن يظل الناس على غير معرفة بعادات وتقاليد عائلاتهم وتاريخهم.

إن تغيير رسم الخط جعلنا أيضاً منقطعين تماما عن مصادر ومراجع علومنا وحضارتنا الموروثة وأصبحنا بين عشية وضحاها جهلاء.

وأصبحت بالنسبة لنا ذخيرة الكتب المطبوعة والمخطوطة برسم الخط القديم، والمكتبات الكبيرة بلا جدوى ولم يبق لها أي معنى.

فسألته: ألم يقم أي تمرد شعبي ضد هذا القهر الذي تسميه الإرهاب الثقافي؟

فأجاب: لا، وإن كان فإنه لم يكتب له النجاح وذلك لأن الأوساط المقربة لمصطفى كمال كانت قد تفرقت بسبب هذه المبادرات. أما الإعلان عن حل الخلافة فجعل الشعب كله في حيرة شديدة، وأصابه البكم.

إن الزعيم الكردي الشيخ سعيد النقشبندي كان قد أعلن التمرد وبسرعة شديدة تحول هذا التمرد إلى حركة شعبية انتشرت في مختلف المناطق واحتل الثوار المكاتب الحكومية في القرى والنجوع. لكن أمام أجهزة الدولة الغاشمة لم تستطع هذه الحركة الوقوف طويلاً أمامها وألقى القبض على الشيخ سعيد وتم إعدامه.

ألم يعترض أحد من رفقاء «**مصطفى كمال أتاتورك**» المقربين على هذا الظلم والعدوان؟ أردت أن أعرف المزيد من المعلومات عبر هذا السؤال.

بلى، كان القلق الشديد يراود عدداً من رفقائه المقربين، بل البعض منهم عارضوا أيضاً مشروع إعلان حل الخلافة والبعض الآخر أعلنوا صراحة أننا اتجهنا إلى جهة مختلفة حتى بدأ مصطفى كمال يشعر أنه أصبح وحيداً في حزبه.

وفي نهاية عام ١٩٢٤م شكلت المجموعة الغاضبة حزباً منفصلاً عن الحزب الأم، وسموه الحزب التقدمي الشعبي.

وفي عام ١٩٢٦م انكشفت مؤامرة اغتيال مصطفى كمال والله أعلم كم كانت نسبة الصدق في هذا الاتهام، لكن اتخذت الحكومة منها ذريعة للتفتيش وإلقاء القبض على عدد كبير من الناس كما رفعت القضايا وأدين

جميع المعارضين الرئيسين لكمال أتاتورك. بل تم شنقهم علنا بمن فيهم كارابكر وجاويد بيه وأحمد شكري وعصمت جان بلوت. بعد هذا الإعدام الجماعي لم يبق من يجمح أنانية أتاتورك الطاغية وجبروته.

هكذا جعل أتاتورك نفسه أباً للشعب التركي وأصبح لقب «**أتاتورك**» محظوراً على المواطنين ومن يتجرأ على اختيار هذا الاسم يعتبر متهما لارتكابه جريمة شنعاء لا يمكن العفو أو الصفح عنها.

والآن ما هي الأوضاع؟ كيف ينظر الناس إلى أبيهم القومي في هذه الظروف المتغيرة؟ إلى الآن ينسب مطار إسطنبول إليه، وفي الأماكن العامة تجد له صوراً معلقة هنا وهناك. كما توجد صورته على العملات التركية التي ما زالت تسك عليها صورته.

وتلاميذ المدارس إلى يومنا هذا يغنون له في أناشيدهم المليئة بتعاليمه ومازالوا يؤلهونه بالتمجيد والتعظيم. **على سبيل المثال هذا جزء من النشيد القومي التركي: يا مصطفى كمال! الطريق الذي أرشدتنا إليه سنظل نمضي فيه. حياتنا هبة للشعب التركي وكم هو سعيد من يقول إنني تركي.**

حقاً هذا هو ما يمكن مشاهدته في الأماكن العامة.

ولكن هل يمكنك أن تلقي الضوء على الواقع الداخلي؟ إنني أردت بهذا السؤال أن أعرف عن القبول العام لكمال أتاتورك.

الظروف الآن تغيرت كثيراً. لقد أحس الشعب التركي بأنه عندما قطع صلته بالماضي، وقام بنسيان تاريخه الديني والقومي فقد قام بذلك بجريمة الانتحار.

قديماً كان قد أراد مصطفى كمال أن يكتب تاريخ الشعب التركي من جديد (أن يعيد كتابة التاريخ من جديد)، والآن وإن لم يكن يريد الشعب

أن يعيد أيام الخلافة العثمانية؛ لكنه على الأقل يريد استحضار هذا التاريخ. أينما تذهب في مدينتي إسطنبول وأنقرة تشعر بأن الناس يريدون إحياء ماضيهم ولو على سبيل الذكريات. الزي العثماني أصبح الآن بمثابة عرض للأزياء، وقد راجت في المطاعم الأكلات العثمانية. قد تستغرب أنت عندما تعلم بأن الفتيان والفتيات في هذه الأيام يتعلمون رسم الخط التركي القديم.

وفي هذه الأثناء وصلت سيارتنا بالقرب من جسر السلطان محمد الفاتح الثاني. وكلما رأيت جسر السلطان الفاتح من قلعة توب كابي سراي أشعر بسر مهيب. فهذا هو الجسر المتين والجميل الذي يربط قارة آسيا بقارة أوروبا. شاهدت مظاهر طلاسم الطبيعة التي تظهر الجلال والقوة؛ العظمة التاريخية لقصر الخلافة وانجذاب القلوب إلى نهر البوسفور. واستمتعت بالنظر إلى بنائه الفني بحيث لم أشهد بأنه بناء قديم. وكذلك الحال فإن هذا الجسر الذي بني عام ١٩٨٦م وينسب إلى السلطان الفاتح من أكثر المعالم التركية القديمة جذباً لأنظار السياح الجدد.

إن جسر السلطان الفاتح علامة بارزة لهوية الأتراك وفي نفس الوقت إعلان بأن مدينة إسطنبول لا قيمة لها بدون نسبتها إلى محمد الفاتح الثاني.

مدينة إسطنبول تجمع بين أثرين رئيسين، يمثل الأثر الأول مقبرة مضيف الرسول (ﷺ) وهو سيدنا أبو أيوب الأنصاري (رضي الله عنه). فقد ترك المسلمون الأوائل خارج حدود المدينة هذا الأثر الخالد في شكل مقبرة صحابي من أصحاب الرسول (ﷺ). والأثر الثاني عبارة عن آثار وذكريات محمد الفاتح التي ذاع صيتها وتردد دويها في أجواء إسطنبول منذ خمسة قرون من الزمان. بالإضافة إلى هذين الأثرين يوجد شيء آخر وهو القالب

الشعبي القادم من القونية حاملاً معه التأثيرات الفكرية والثقافية التي تملأ أجواء مدينة إسطنبول وضواحيها منذ قرون.

ويمكنك أن تقول بعبارة أخرى أن مدينة إسطنبول تحتل مكانة دينية بسبب سيدنا أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه). أما السلطان محمد الفاتح فمن أولئك الذين يدعمون هذه الهوية. لكن الذي بسط نفوذه على القلوب والأبصار هو ملك القونية مولانا الرومي.

كم هو عجيب وغريب هذا التاريخ فعندما يفلت لجامه من بين أيدي المؤمنين فهو يتوه بهم إلى جوانب مجهولة. ولن يكون تحليله سهلاً لمن يأتي بعدهم؛ لأن العمل والأسطورة يساهمان في بنائه في وقت واحد. من زمن سيدنا أبي الأيوب الأنصاري أي من القرن السابع الميلادي إلى فتح القسطنطينية ١٤٥٣م والذي يمتد إلى (٧) أو (٨) قرون من الزمان عبارة عن قصة من نتاج جهد متواصل.

والقصة هي أنه لو أن بعضاً من الناس البسطاء عزموا بإخلاص ونية صادقة على إنجاز مهمة، فمهما كانت كبيرة فإن لم يكتب لهم النجاح في التو واللحظة، فإنهم في الواقع قاموا بإرساء حجر المستقبل.

وإن كان لأهل الفكر من المسلمين هذا الأمر غير واضح إلى يومنا هذا، وهو أن أواسط القرن الخامس العشر الميلادي الذي كان زمن عظمة ومجد الأتراك العثمانيين على مسرح العالم، كيف حدثت مأساة سقوط غرناطة في أواخر هذا القرن المشار إليه آنفاً. ما هو السبب الرئيسي الذي منع الأتراك من بذل جهد مؤثر لإنقاذ أسبانيا المسلمة.

كذلك لم يصل أي عون إلى الدولة الآيلة للسقوط غرناطة من قبل ملك المغرب، غير أن الأتراك حتى عام ١٦٧٢م كان لهم شأن عسكري وكان في استطاعتهم محاصرة فيينا. والواقع أن ملكة بريطانيا كانت ترسل

السفراء إلى الأتراك كي تحصل إنجلترا على ملاذ لمواجهة البابا. وتشتد وتزداد الحيرة عندما نعرف أن هؤلاء الذين كانوا أصحاب الهيمنة على مستوى العالم تعرضوا فجأة لهذا السقوط المهين في القرن التاسع عشر الميلادي. كلما أزور مدينة إسطنبول تحاصرني هذه الأسئلة.

٦

بلغ العلا بكماله

ذات يوم كنت جالساً في مسجد الجامع للسلطان محمد الفاتح الثاني، متكئاً على عمود من أعمدته. كانت صلاة الجمعة قد انقضت والناس بدأوا يتجمعون حول الأبواب حاملين أحذيتهم في أيديهم. في تلك الأثناء رأيت شيخاً ذا قامة طويلة وكان قادماً إلى مع عدد من أصحابه. تأملته وتبادلنا النظرات وسلم بعضنا على البعض. ثم وقفت رداً على تحياتهم وسألني الشيخ: من أي البلاد أنت؟ من أين جئت، وإلى أين تنوي الذهاب؟

★ من الهند.

★ هندوستان! أظهر ترحيباً حاراً بي ثم جلس في حلقة مع مريديه. كان عمره يتراوح ما بين الستين والسبعين، كان صاحب لحية بيضاء طويلة. وبالنسبة لأجواء إسطنبول ربما كانت لحيته أكثر طولاً حسبما أحسست كما كان يرتدي ملابس فضفاضة مثل الجلباب ويضع على رأسه العمامة والقلنسوة. وبدا الأمر صعباً لي أن أفهم هل العمامة فوق الطاقية أم الطاقية فوق العمامة بسبب اختلاطهما معاً. ثم كان الأمر الأكثر حيرة واندهاشاً هو أنه بدلاً من أن يمسك في يده عصا الشيخوخة كان يمسك مزماراً طويلاً. فقد كان على

جانب من هذا المزمار خواتم فضية مركبة وفي أصابع الشيخ نفسه توجد أيضاً عدة خواتم عليها فصوص من أحجار خضراء وحمراء ولكن الخاتم الفضي الكبير كان بارزاً إلى حد ما من بين كل هذه الخواتم وكان محفوراً عليه أيضاً باللون الذهبي ختم النبوة لمحمد رسول الله (ﷺ).

قال: اقترب الوعد الحق، هو سيظهر قريباً. سيطلع نورمن الشرق ويصبح العالم كله مضيئا به وستظهر السحب السوداء من الغرب وتخرج النار برؤوسها التي ستحرق الأعداء، ومن أمارات هذا الحدث دوران السحب في السماء، ونزول أمطار النار، وتولد الوهن في قلوب المسلمين وانقضاض أقوام العالم عليهم.

كل هذه الأمور علامات بأننا نتنفس اللحظات الأخيرة لاقتراب القيامة ولكم البشري أيها الناس بأنه قادم ومبارك لكم بأنكم سترون بأم أعينكم غلبة الإسلام والمسلمين.

نعم، لكن عمن كل هذه الأحاديث؟ لم يلاحظ الشيخ تدخلي هذا، واستمر في تنبؤاته وبشاراته.

يكون اسمه مهدياً، وتكون أنت مسانداً ونصيراً له وإنني أرى على جبينك إشراقة نور الله.

نعم كلامك صحيح يا شيخ فإننا أبناء السيد نور. كان اسم والدي نور وإنني الرابع من بين إخوتي الستة. قمت بتعليل كلامه مبتسماً ابتسامة خفيفة ولكنه كان منهمكاً في حديثه؛ فمن أين له أن يسمع كلامي.

اسمع يا بني. عسى الله أن يحميك من فتنة المسيح الدجال، فسيظهر هو أيضاً قريباً لمواجهة المهدي، وسيكون هناك قتال كبير وسفك للدماء، لكن في النهاية يكون الفتح المبين للحق.

★ ولكن كيف عرفتم كل هذا؟

قال لي: اتق الله، ولا يداخلك الشك في أمور الدين. ارتفع صوته المزعج أكثر من ذي قبل. اقرأ القرآن يا بني فكل الأمور الماضية والقادمة مذكورة فيه. لا تشك فالشك من أسلحة الشيطان.

ولكن القرآن يخلو من ذكر المهدي. اعترضت عليه ببراءة طالب العلم وإن كان لفظ المهتدي استعمل في القرآن في بعض السور لكن لو كان أمر ظهور المهدي جزءاً من الدين لكان الله أخبر المؤمنين بشأنه بكل تأكيد.

ظهر على وجه الشيخ شيء من القلق والتعب، وشيء من آثار الغضب. قال: عزيزي ألا تعلم أن القرآن له ظاهر وباطن، له نص وروح. ولا يعلم الباطن إلّا أهل الله وخاصته الذين شهدوا بأن المهدي سيظهر في آخر الزمان، وظهرت علامات كثيرة خاصة به واليوم لا يستطيع أحد أياً كان أن يمنع ظهوره. أخرج من ظلام الشكوك والشبهات وادرس الأحاديث.

لكن يا سيدي الصحيحان البخاري ومسلم يخلوان من قصة المهدي. استشاط غضباً من كلامي الصريح هذا. قال اقرأ رسالة النور، واطلع على رسالة النور.

كتب السيد سعيد النورسي أن المهدي سيكون من آل الرسول (ﷺ) لينال المساندة والمؤازرة بقدر كبير من أواسط السادة الأشراف. وبناء على هذا ينبغي على المؤمنين أن يتجمعوا حول أهل البيت.

والتحية الثانية التي تقدمها لآل محمد في صلواتك الخمسة، سببها هو أن عدداً كبيراً من السادات الأشراف سينظمون أنفسهم ويبرزون للحفاظ على الدين ليكون هو الغالب.

لو لم تكن نبوءة ظهور المهدي صادقة لما كانت هناك حاجة لقراءة الصلاة والسلام على آل محمد (ﷺ).

قبل أن أعترض عليه اعتراضاً جديداً تنحي الشيخ جانباً وأعطى إشارة بالجرس الذي كان مربوطاً بمزماره على انتهاء الحديث. ارتفعت موسيقاها الجميلة واستحكمت ألحان نشيد «**بلغ العلا بكماله**» الطربية وسيطرت على الجو بأسره. بدأ الشيخ مع مريديه التغني وهكذا وصلت سلسلة تنبؤاته الجلالية والجمالية إلى النهاية.

٧

الأسطورة النائمة

إسطنبول أيضاً مدينة عجيبة، كلما زرتها أحسست بأنها مليئة بالأسرار أكثر من ذي قبل. فإنك لا تدري متى وعلى أيِّ منعطف تقف في طريقك أسطورة أو حادثة تاريخية. هنا نسجت ظلال الأسوار المحطمة ولافتات المقابر القديمة معاً نسيجاً من الأساطير والحوادث التاريخية بحيث يصعب - في كثير من الأحيان - فصلهما عن بعضهما البعض، فأي حجر ترفعه هنا تجد تحته تاريخاً مدفوناً. هذه مدينة البيزنطيين، ومرقد أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) ورمز همة محمد الفاتح (رحمه الله).

لو دُرس التاريخ بعين العبرة والعظة لظهر دافع لتقويمه، ولو تراكم عليه غبار الأساطير فسينعدم الشعور بأن القافلة تسير عكس الطريق.

والسؤال الآن: ما الذي نستطيع أن نستخرج من تحت هذه الأحجار.. الأسطورة أم الحدث التاريخي؟

أما الأتراك فقد استخدموا الأسطورة لمنع زوال ملكهم وسقوطه، ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حينما كانت السلطنة العثمانية في طريقها إلى السقوط راجت وقتئذ كتب الطلاسم المعقدة، وقام مهرة كتابة التمائم والتعاويذ القرآنية المزعومة ببذل الجهد قدر الإمكان لمنع تدهور الأوضاع القائمة، وقاموا كذلك بإعداد ملابس

خاصة للخلفاء والأمراء لحمايتهم من الأذى وجعلهم بمنأى عن خطر الأعداء، وكان القرآن منقوشا من أوله إلى آخره على هذه الملابس، كذلك لاقت وصفات التعاويذ والتمائم القرآنية رواجاً كبيراً، ولكن هذه المحاولات لدفع الأذى بدأت تُزيد من سرعة سقوط وزوال السلطنة.

يُروى أن الخلفاء العباسيين كانوا أيضاً ضحايا لهذه الأفكار الملتبسة، وإلّا لما سقطت العاصمة العالمية بغداد بكل هذه السهولة، لقد كان لديهم اعتقاد سائد بأن بردة الرسول (ﷺ) التي كانت في فترة ما في قبضة الخلفاء الأمويين ثم انتقلت إلى حوزة العباسيين - لو لبسها أحد سواء كان على جبهة القتال أو يمر بالأخطار فلن يمسسه سوء.

يُحكى أن آخر الخلفاء العباسيين الذي دهسته الخيول بحوافرها - وهو ملفوف بالسجادة - كان يومئذ مرتديا نفس البردة النبوية هذه.

في القرن الحادي والعشرين عندما تسير في شوارع مدينة إسطنبول، وتسمع كلام الناس وهم يتحدثون في المقاهي، وتقابلهم في الأماكن العامة تشعر بشدة أن الأتراك حتى اليوم في انتظار الثوب السحري الذي يحفظهم من مكائد الأعداء.

والقضية الآن ليست أن يكونوا في مأمن من هذا الخطر، بل هي إخراج الشعب التركي من هذه الحالة التي حرمته من المجد التاريخي والدور الريادي العظيم، ربما لهذا السبب يزداد انتظارهم لرجل من الغيب كي يعيدهم إلى ذلك الماضي المجيد.

إنني سألت مصطفى أوغلو: ما رأيك في هذه المسألة؟ هل سيظهر قريباً ذلك الشخص حقا؟ فرد بالإيجاب: نعم يا سيدي هذا هو ما أسمعه، بل قبل بضع سنين كانت هناك ضجة كبيرة بين الفتيان والفتيات لظهوره، ففي كل لحظة كان النبض يتوقف. تُرى.. متى؟ وفي أي زقاق أو شارع

مهجور أو من أي قبر ساكن يظهر شيخ كبير ذو لحية بيضاء وفي يده مِسبحة ذات ألف حبة، ويعلن على الملأ أنه هو المهدي المنتظر؟ ولكن هذه الضجة قد انتهت منذ فترة.

ألست في انتظار أي مهدي؟

ابتسم مصطفى أوغلو لسؤالي هذا، وألقى نظرة على أمواج البوسفور الهادئة، وأخذ يقول: كل فرد منا مهدي؛ فأنت مهدي، وأنا مهدي كذلك. والآن يجب علينا جميعاً أن نشترك في تصحيح هذا التاريخ، وأن نعلم أن انتظار شخص آخر بعد النبي الخاتم (ﷺ) أمر لا مبرر له.

ولكن الحديث هنا في إسطنبول عن نبأ مجيئه مُثار.

نعم، تقديرك صحيح. والواقع أن هذا الامر يعبر عن قلق الناس واضطرابهم، فهم في جميع الأحوال يريدون تغيير الواقع وعندما يعجزون عن ذلك يسعون لتعويض حرمانهم بظهور رجل من الغيب.

وللأسف الشديد فإن الأوساط الدينية والعلمانية كلتاهما ضحايا لمثل هذه الأساطير، فهما في عجل من أمرهما بحثاً عن طريق مختصر.

فهل في رأيك أن علماء الدين الأتراك كانوا معرضين لأسلوب الفكر الأسطوري؟ نعم يا سيدي! بالطبع. الأسطورة تنتج من نزعة غير حكيمة ومن رحم الأوهام والخرافات ولكي يتعرض أحد لها ليس من الضروري أن يكون علمانيا أو متدينا بل في بعض الأحيان الأسطورة التي تتولد على أيدي العلمانيين تكون أكثر خطورة وإهلاكاً.

بين كمال أتاتورك لقيام هوية قومية جديدة لهم بأنهم كانوا أصحاب تاريخ أسطوري وكان الشعب التركي حسب أسطورته المسطرة قبل المسيح بألف عام يعيش على قارة وهمية ولسبب ما ترى على البيئة من

تغييرات غابت هذه القارة والناس انتشروا في مناطق مختلفة وأقاموا في وقت ما سلطنة عظيمة. وإلى يومنا هذا تجد في مدينة أنقرة الدائرة الشمسية لحضارة الحيثيين وهي معلقة كعلامة بارزة لعظمة الأتراك.

مثل هذه التوهمات كانت قد رسخت في قلب ورأس هتلر فتوهم أن الشعب الألماني متفوق فطريا وهم أفضل من الجميع وأصبح أسيراً لفكرة كوكب أطلانطس الموهوم الذي سكنه الشعب الألماني الأبيض الذي خلق ليحكم شعوب العالم. فعل أتاتورك مثلما فعل هتلر؛ إذ رفض جميع الأساطير والتواريخ السابقة بالمرة ونسي هذه الحقيقة وهي أن عجلة الحضارة الإنسانية سارت على الدوام إلى الأمام مستخدمة الوسائل والوقود المشترك لمختلف الأقوام والملل وتعتبر هذه الحضارة رأس المال الاجتماعي للإنسانية. وبدون هذا القصور الذاتي تكون البداية دائما غير مجدية.

إن أسطورة أتاتورك الخالدة لم يسمح لها أن يكون بها أي من القصور الذاتي للشعوب السابقة فكلما دفعت عجلتها عادت إلى الوراء بنفس السرعة. والأسف كل الأسف أن (٧٥) عاماً أي قرن من الزمان إلّا ربع ضاع من عمر الشعب التركي في هذا العبث.

انسجمنا في الحديث بحيث لم نعرف متي قد عبرنا جسر السلطان محمد الفاتح والآن حينما وقع نظري على الخارج أحسست فجأة أن سيارتنا تقف أمام مبني مزين ويرفرف عليه علم منظمة المؤتمر الإسلامي وكذلك أعلام الدول الإسلامية المختلفة.

خلال العقود الثلاثة الماضية قام هذا المركز الخاص بتاريخ وحضارة وفنون الدول الإسلامية بطبع مخطوطات ووثائق نادرة وهامة منها نسخ القرآن المجيد التي تنسب إلى سيدنا عثمان (رضي الله عنه). وكان قد أخذني الشوق لمشاهدته وذهب بي إلى قلعة كابي سراي في أول رحلة لي

بتركيا والآن عامة المتشوقين لمشاهدة هذه النسخة ليسوا في حاجة للذهاب إلى (توب كابي سراي) لأن مركز مطالعة التاريخ قد قام بطبعها بشكل فاخر ومزركش. وفي مسجد سيدنا الحسين (رضي الله عنه) بمصر توجد هناك أيضاً نسخة تنسب إلى سيدنا عثمان (رضي الله عنه) والتي يعكف الدارسون على طبعها أيضاً. هناك على الأقل سبع نسخ قرآنية في العالم يقال بشأنها أنها كانت في مطالعة وقراءة عثمان وقت استشهاده وعلى هذه النسخ توجد بقع للدم. وأشهر هذه النسخ نسخة طشقند. والآن بعد أن تتم طباعة هذه النسخ سيكون هذا على الأقل مفيداً في إزالة الغبار الذي تراكم على مرّ التاريخ عن الأسطورة.

في الزيارة الأولى لقلعة (توب كابي سراي) كنت قد أحسست بهذا الأمر وهو أنه سواء كانت عمامة سيدنا يوسف (عليه السلام) أو النعلان الشريفان للرسول (صلى الله عليه وسلم) أو كان سيف علي (رضي الله عنه) المعروف بذي الفقار أو الآثار الأخرى المقدسة فقداستها باقية بسبب الأسطورة التي راجت على مر التاريخ والتي لا حقيقة لها إلّا الأسماء التي تنسب إليها.

بعد طبع نسخ المصحف العثماني سيصبح تقدير هذا الأمر سهلاً لعامة الناس وهو ما هي القيمة الحقيقية للشعر المبارك وعلامة الدم والآثار والنوادر المنتشرة في العالم بصفة خاصة في دين الله الذي جاء لإزالة ومحو قداسة الأشياء.

مركز مطالعة ودراسة التاريخ كل همه وتوجهه هو الحفاظ على التاريخ والتراث ولا علاقة له بالعالم الجديد في القرن الحادي والعشرين. وفي مختلف المناطق من العالم الإسلامي جميع الدول الملكية والإمارات الظالمة والجائرة التي قامت ولم تكن تحتمل أن ترى الإسلام ديناً حياً ومعاصراً لذلك سعت أن تقدم نفسها حامية ومحافظة على الآثار والتاريخ الإسلامي، وبهذا السلوك أصبح الإسلام أيضاً شيئاً متحفياً

مثل النوادر غالية الثمن وسواء كانت الدول الخليجية أو الدول المسلمة بشمال إفريقيا أو الدولة التركية الحديثة نفسها قامت بالحفاظ على التاريخ والتراث وذلك لإشباع العاطفة الدينية إلى حد معين ظنت أن هذا كافيا لإرواء ظمأها، وحينئذ ربما لم يكن في حسبان الحكام والأمراء أن التاريخ مهما يبدو نائماً في سبات عميق، لكن المناخ حينما يكون مناسباً ولطيفاً فإنه يبدأ بالنطق والكلام. ثم إن في دار طبول التاريخ مهما تعلو أصوات الحكام ومهما تكون القوة من ورائها فهي لا تدخل في الآذان. الحديث الخافت للتاريخ والتراث في العالم العربي أحدث في النهاية انقلاباً شعبياً (ثورة شعبية).

والجيل الجديد عندما عرف مرة بأن علاقته بالنوادر الحضارية التي تحير العقول وتأسر الألباب لو تم النظر إليها من حيث خلفيتها التاريخية وأن آباؤهم وأجدادهم هم الذين كانوا وراء هذا التاريخ العظيم، هم الذين قاموا بدور رائد في الحضارة العالمية وكذلك كان لهم نصيب كبير في الحضارة العالمية اليوم فلم يكن من الممكن لهذا الجيل الجديد أن يقتنع بهذه الحالة المزرية. فإنك عندما تتجول في مدينة إسطنبول تلاحظ وتحس في كل لحظة وكأن التاريخ يشجعك على إنجاز عمل ما.

الجيل الجديد الذي يجهل رسم الخط التركي القديم يزداد قلقه واضطرابه عندما يرى اللوحات المنصوبة على المقابر والألواح المعلقة على المباني لا تعني له شيئاً، فجميع المباني التاريخية بإسطنبول والمساجد والمقابر الملحقة بها تمتلئ بالنصوص المكتوبة بخط جميل. وهذه الكتابات الجميلة تدعو الشباب إلى القلق والاستغراب قائلة: تعالوا واكتشفوني وبدون المرور بي إلى متي ستبقي أجنبياً في مدينتك.



يا مهدي آخر الزمان مدد! مدد!

إن مكتبة مركز دراسة التاريخ تحظى باهتمام كبير من حيث النظام الدقيق، التنسيق والانتقاء الجيد للكتب فهنا كل أسباب الراحة متوفرة.

وهذا القدر من الاهتمام للحفاظ على التاريخ والتراث الاسلامي الذي قلما يتوافر في مكان آخر، ثم إن الهواة والدارسين يأتون هنا باستمرار بأعداد كبيرة من أنحاء العالم.

وحينما كنت مشغولاً في تصفح نسخة قديمة للقرآن الكريم، سمعت دبيب أقدام وأصوات نسائية على السلم الخشبي. إنها كانت أصوات عدد من الطالبات. في غالب الأمر كن يبحثن عن شخص ما، وعندما اقتربن مني تبادلنا التحية، فبدا لي أن صوت إحداهن مألوف والوجه كذلك وكأنني شاهدت هذا الوجه من قبل. حسناً هذه الطالبة بسمة الخطيب. كنت قد تعرفت عليها منذ عدة شهور مضت في مدينة إسطنبول. وقتئذٍ كانت مشاركة في المؤتمر الدولي للإسلام والهوية.

بدأت تقول: إنني علمت أمس فقط بوجودكم هنا. هذه صديقتي نهلة وهي من مدينة الموصل. تعد الدكتوراه في إيرلندا عن تطور التصوف. ثم أشارت إلى صاحبة وجه مضيء وقالت: هذه صنم من سكان إسطنبول. وهي تتعلم فن الخطوط في الوقت الحالي وتنوي دراسة موضوع عن

أهمية فن الخط في رسم الخط التركي القديم. أما هذه فهي إيلاه التي تدرس في مرحلة الماجستير في جامعة إسطنبول.

ثانياً: يجب على أن أعتذر لك أولاً لأنني قاطعتك أثناء مطالعتك وكذلك جئت إليك بدون استئذان وبدون موعد سابق. فلقد جئنا إلى هنا لنطلب منك السماح لنا ببعض الوقت، إما أثناء الغداء أو بعده مباشرة إن كان هذا ممكناً فلدينا أسئلة كثيرة، أسئلة لو صيغت في إطار منهج البحث والتحقيق لأقامت دنيا جديدة.

دائماً ما يكون حديث بسمة مليئاً بمصطلحات العالم الجديد، العلم الحديث، الأنماط الفكرية المتجددة وأيضاً النماذج الحديثة وغيرها وغيرها.

يبدو أنها من سكان عالم لم يولد بعد، فهي تعيش في عالم المستقبل أكثر من الحاضر. ففي الأيام الماضية عندما كانت تقدم مقالتها عن موضوع المواطنة الإسلامية والهوية الإسلامية، كان ينتابني هذا الإحساس مع كل جملة أن الجيل المسلم الجديد من أمثال بسمة معرض لغموض واضطراب شديدين بشأن المواطنة والهوية وبسبب القيود السياسية الجديدة فالماضي خارج عن سيطرته والحال فاقد الاعتبار، أما المستقبل فهو مستتر وراء حجاب التوقعات والاحتمالات.

كان الهدف من انعقاد المؤتمر المذكور هو أن يتم حل قضية الهوية والمواطنة الأوروبية لمسلمي الغرب، باعتبارهم مواطني الدول الأوروبية.

ما أهمية هوية البلد في مقابل الهوية الملية والإسلامية؟ وما هي الواجبات التي تقع على المسلمين والتي لا بد من أدائها نحو هذه البلاد بسبب المواطنة؟

لكن حينما بدأ الحديث في موضوع المواطنة وبدأ يطول، فلم تبق

قضية مواطنة الدول الغربية ذات أهمية كبيرة، إذ أضحت مواطنة الدول الإسلامية نفسها مشبوهة وساقطة الاعتبار.

منذ ما جاء الجيل الجديد من الشباب أصحاب الفكر والرأي في العالم الإسلامي، أصبح فهم هذا الأمر مستعصياً لهم. وهو لماذا سلطت على العالم الإسلامي وبصفة خاصة على مركزه الجنسيات المختلفة والمتحاربة مثل العراقية والكويتية والسعودية والإماراتية والمصرية والتونسية، ما حقيقة هذه الهويات المصطنعة في الواقع فمصالح الكويت القومية متصادمة مع المصالح العراقية القديمة، ووجود كردستان غير مقبول بالمرة لبلاد الشام وتركيا، وفي الجزيرة العربية تم خلق الهويات المصطنعة مثل السعودية والكويتية والإماراتية والعمانية.

وهذه الهويات والجنسيات المختلفة قامت بمنع الموارد الطبيعية عن أفراد الأمة الواحدة. كل هذا على أساس أي فهم للإسلام تم كل هذا. غير أن المسلمين حينما كانوا أمة واحدة، وكانت هويتهم وجنسيتهم واحدة وهي الإسلام، لا شيء آخر غير الإسلام.

كان الناس من ماليزيا إلى المغرب العربي بل وصولاً إلى إسبانيا المسلمة، كان المسلمون بل حتى غير المسلمين أيضاً يعيشون في العالم الإسلامي المترامي الأطراف ويستفيدون موارده الطبيعية التي منحها الله سبحانه وتعالى له بلا تمييز، وبسبب توافر اسباب الحياة الرغدة كان يتم التنقل من مكان إلى آخر بشكل غاية في البساطة.

مع كلمة «**البلخي**» و«**السمرقندي**» و«**الهندي**» و«**الخراساني**» و«**الأصفهاني**» كانت تضاف كلمة «**نزيل مكة**» أو «**نزيل إسطنبول**». وكان هذا الأمر عادياً في الوقت الذي كانت مواطنة المسلمين بعيدة كل البعد عن الحدود القومية المصطنعة فكان الإسلام دينهم كما كان جنسيتهم أيضاً.

الآنسة بسمة وإن كانت طالبة للدراسات القرآنية، لكن سهام أسئلتها كانت مصوبة في كل الجهات، تارة جهة التاريخ، وتارة أخرى صوب السياسة، وأخرى إلى التصوف، وأيضاً إلى الرواية. فقد كانت في حقيقة الأمر كانت شخصية مشاكسة تتقن مهنة جرح الناس بأسئلتها الحادة. فكل سؤال من أسئلتها كان يخلق سؤالاً جديداً، بل تستطيع أن تقول أنها كانت ترد على كل سؤال بسؤال.

كانت تحمل نسخاً لكتاب صدر حديثاً ثم أردفت تقول: صدر هذا الكتاب اليوم. فتحت نسخة منه وقامت بالامضاء عليها ثم قدمتها إلى قائلة: إن شاء الله سنلتقي على الغداء. الكتاب كان يحمل عنوان «خلاصة المقال في المسيح الدجال».

ألقيت نظرة على هذا الكتاب ونظرة أخرى على الكاتبة التي ابتسمت ابتسامة خفيفة ثم رحلت مع زميلاتها في غضون ثوان قليلة.

كان الغداء ذا جمع غفير والفرحة كانت تغمرهم، ولقد علمت أنه قد جاء اليوم أوتوبيسان لطلبة وطالبات جامعة الموصل. فلقد كان القرب المكاني أحد الأسباب حيث كان يأتي أهل الموصل إلى تركيا باستمرار بكل يسر، وربما كان هناك سبب آخر لهذا التنقل السريع ألا وهو أن الأكراد العراقيين لهم قرابة ومصاهرة ممتدة إلى تركيا.

لم يكن قد مرّ على دخولي قاعة الطعام لحظات حتى تقدمت فتاة تركية نحو مضيفي مصطفى أوغلو وبدأت تحدثه باللغة التركية. كل ما فهمته هو أنها كانت تتحدث عن الشيخ عائض.

علمتُ فيما بعد أنه قد تم ترتيب لقاء لي مع الشيخ عائض وضيوف آخرين على مستوى كبير. الشيخ عائض كان حاضراً في القاعة منذ البداية. كان يتراوح عمره ما بين (٦٠) و(٦٥) عاماً، وكان حليق اللحية، لكن

كانت في يده سبحة جميلة وأكثر جمالاً منها بل يمكنك أن تقول الأكثر أناقة هي العصا التي كان يمسكها. أما الزي الذي يرتديه فكان على الطراز الغربي. وكان على رأسه قلنسوة حمراء عليها شريط أبيض من القماش. كل هذا كان يعطي تابع الجلال والجمال الشرقي. أما حديثه فكان عبارة عن أوامر كما كان ظاهراً، بدلاً من أن يكون مبنياً على الفهم والإدراك. وكان يعطي الأوامر القاطعة وهو يدير السبحة بأصبع السبابة، وكأنها وحي إلهي آتاه من السماء في التو واللحظة.

وأثناء تبادل عبارات الترحيب والتعارف حرك سبحته بأصبع السبابة ثم بدأ يحركها لأعلى في الهواء الطلق للحظات ثم قال بصوت جهوري إلى حد ما: **عجل يا إمام الزمان ! عجل يا مهدي آخر الزمان !**

ألقى الشيخ على الحاضرين نظرة عامة وقال: هو قادم، في أي وقت وفي أية لحظة ستسمع أخبار ظهوره. يقال أن بعض أهل الكشف قد شاهدوه بل قابلوه أيضاً، والرأي الراجح أنه في مدينة إسطنبول هذه وهو ينتظر حتى تظهر كل العلامات.

الضيوف الوافدون من أمثالنا فهموا بعضامن كلام الشيخ، ولم يفهموا أشياء أخرى بيد أن مريدي حلقته جرت على ألسنتهم الأذكار والأناشيد المتنوعة. خيل إلى في وقت ما أنهم بقوة الأذكار والمراقبة سيعثرون على مهدي المستقبل.

بعد لحظات توقفت الأذكار والإنشاد غير المفهوم وعاد أهل مجلس الذكر إلى حالتهم الطبيعية.

بعد ما رأيت الشيخ عائض غارقاً لهذا الحد في تصور المهدي، رأيت أن أصل من خلاله إلى معلومات عن المهدي الغائب. فمن يدري لعل الشيخ على معرفة بالحواري والأزقة والأسواق حيث يختبئ مهدي المستقبل في انتظار الوقت المناسب.

بدأت تتبدل أطباق أنواع الأكلات والمشروبات وظل الخدم مستمرين في تقديم خدماتهم بكل نشاط وهمة. أما أنا فظللت غارقاً في قضية الشيخ عائض الذي يعيش كل لحظة من حياته في تصور المهدي المنتظر. فما هو سبب لهذا التخبط؟

حياته تنقضي صباحاً ومساء بل كل ساعة وكل لحظة في ترقب لظهور المهدي. هل كل هذا بسبب الهلوسة التي أصابته أم هي بسبب الإشارات الغيبية التي يؤمن بها أهل التصوف وأهل التشيع. بل أن هناك طائفة لا يمكن غض البصر عنها من المسلمين البسطاء تؤمن بها دون تفكير وتبصر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام بدأ التواصل مع الطلبة. طلبت من الآنسة بسمة بصفة خاصة إن كان في الإمكان أن تدعو الشيخ عائض للاشتراك في هذه الندوة، فهو أسطورة حية وسيكون وجوده بيننا مبعث كشف واكتشاف لنا وربما العجب نعثر أيضاً بالمرة من خلاله على عنوان المهدي المنتظر. شاء الله أن وافق الشيخ عائض على الاشتراك في هذه الندوة.

قريباً من غرفة الطعام كانت قاعة المؤتمر الواسعة والمجهزة تجهيزاً جيداً، حيث كانت هناك طاولة عريضة ومستديرة ومجهزة بحوالي (٣٥) مكبر صوت.

في الجهات الأربعة للقاعة كانت هناك أرائك مريحة ملتصقة بالجدران، وعلى الحائط شاشة كبيرة للعرض لمن يريد استخدامها عن طريق البروجيكتور، وكذلك كانت القاعة مجهزة بأجهزة تكنولوجيا حديثة.

الجانب الإيجابي لمثل هذه الطاولات المستديرة هو أن المتكلم والمستمع يستطيعان أن يتحدثا على مستوى واحد. لا فرق بين المتحدث والسائل. وإلّا ففي تقليد مشايخ الشرق يتحدث الواعظ من مكان مرتفع

ولا يكون هناك أية فرصة متاحة للمستمعين للنقد والاعتراض سوي أن يقولوا: آمناً وصدقنا، وبصفة خاصة في المساجد العتيقة بتركيا، حيث يكون الإحساس بعلو مرتبة الوعاظ والخطباء أكثر فأكثر؛ لأن المنابر هناك عالية ومرتفعة جداً.

ولعل هذه التجربة كانت غير مألوفة للشيخ عائض إلى حد كبير، ولذا أوضح في بادئ الأمر أنه اليوم يريد أن يبين عما يختلج صدره من حزن وألم بدلاً من إلقاء خطبة فهو يرغب أن ينقل هذا الاضطراب والألم إلى الجيل الجديد، ثم إن هذا الألم هو رأس ماله الذي حافظ عليه طوال حياته بل قام برعايته وعنايته وجاء اليوم الوقت المناسب لنقله إلى الجيل الجديد.

قال: أعزائي.. سلام الله عليكم. إنني قادم إليكم من جبل سنجر برسالة هامة، ويمكنكم أن تسموها بشارة قبل أن تغمض عيناي أريد أن أنقل إليكم هذه الرسالة.

مرت على الدنيا قرون عديدة من الزمان وها هي الآن قد دخلت في مرحلتها الأخيرة ففي أي لحظة سيكون هناك إعلان لانتهائها لكن قبل أن يحدث هذا فمن تدبير الله وتنظيمه لهذا الكون أن يصل عباده الصالحين إلى مرتبة السيادة وأن تُملأ الدنيا بالعدل والأمان.

إن العلامات قد ظهرت ونحن الآن في اللحظات الأخيرة لظهور المهدي. لا ندري متي ومن أي جهة يأتي خبر ظهوره. يبدو لي كأن شخصا يحدثني في نفسي قائلاً بأن تلك اللحظة المباركة قد حانت واقتربت.

أعزائي الطلبة والطالبات! إنني أنتسب إلى عائلة جبل سنجر، التي تُتهم بعبادة الشيطان، ولعل هذا الاتهام ليس بباطل مطلقاً. فإنني ولدت في أسرة يزيدية، يدعي أفرادها أنهم على الحق، وفي الأساس نحن من الأكراد.

ومن الناحية الدينية عُرفنا بطائفة دينية منفصلة. فقريباً من مدينة الموصل وعلى مسافة ستين كيلومتراً فقط في شمال شرقها، توجد مقبرة الشيخ أديب المسافر وتعد مزاراً لنا.

هذا الشيخ عاش في القرن الثاني عشر على الأرجح، وكان داعية للفرقة الإسماعيلية. قيل لنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم سلّم تدبير وتنظيم شؤونها إلى الملائكة، والملك الطاووس الذي يعد كبير الملائكة، هو نفسه صورة مجسمة للشيطان فليس من المناسب إغضابه.

بناء على هذه العقيدة الفاسدة كنا نعبد الرحمن والشيطان في وقت واحد وكنا نبتغي من خلالها نيل رضاهما؛ لأن الشيخ أديب هو الذي كان قد علمنا هذا.

إلى أن تعرفنا بكتابات الشيخ النورسي. فكان العثور على رسالة النورسي بالنسبة لنا بمثابة انقلاب في حياتنا فهي التي غيرت وجداننا وقلوبنا. إن كتابات الشيخ النورسي كنز للعلم والمعرفة لا تقدر بثمن. فكلما تعمقنا فيها بدأت أرواحنا تسمو وترتقي بنفس القدر وبلغنا حال الصفاء والتجلي.

واليوم أنا في الربيع (٦٦) من عمري. هذه السن في ضوء السنة النبوية اكتمال للعمر الطبيعي للإنسان. ويبدو لي أن الرحيل من الدنيا قد بات وشيكاً، ولكن هناك عمل ما زال شاغراً. لعل الله قد أمد في عمري لملء هذا المكان.

إنني منذ (٤٠) سنة أنام وأستيقظ في انتظار هذه الشخصية عالية المقام. فكل لحظة من لحظات عمري مليئة بالأدعية والتضرع إلى الله متوسلاً أن تظهر هذه الشخصية.

إن الشيخ النورسي كتب وبكل صراحة ووضوح: في آخر الزمان

عندما يصبح الحق مغلوباً على أمره، فالله سبحانه وتعالى سيُخرج من طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني وشاه نقشبندي، مهدي الوقت والزمان لإعلاء كلمته سبحانه وتعالى.

ويتجمع حوله جميع السادة الأشراف وآل البيت. ذكر النورسي في تفسير الآية الكريمة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إن الرسول (ﷺ) كانت من أمنياته أن تجتمع الأمة حول أهل بيته، ومرجعيتها أئمة أهل البيت والسادة الأشراف سيعملون على هداية وإرشاد الأمة في المستقبل.

أعزائي المستمعين: كل الحركات الكبيرة التي نشأت لتجديد وإحياء هذه الأمة قادها ورأسها السادة الأشراف، البعض منهم ادعوا أنهم المهدي، والبعض الآخر اختارهم الخلق لتولي هذا المنصب.

سواء كان السيد أحمد السنوسي (ت١٩٠٢م) أو السيد إدريس (ت١٩٥٠م) أو السيد يحيى (ت١٩٤٨م) فكل هؤلاء كانوا قد جاءوا من عائلات السادة الأشراف، وهذا هو الحال نفسه للسيد عبد القادر الجيلاني (ت١١٦٨م) والسيد أبي الحسن الشاذلي (ت١٢٥٨م) والسيد أحمد البدوي (ت١٢٧٦م).

هؤلاء جميعاً كانوا من أسر السادة الأشراف وقاموا بإصلاح أحوال الأمة، وما زالت الدنيا تعترف بخدماتهم الجليلة.

والسيد بديع الزمان سعيد النورسي أخبرنا أيضاً بأن المهدي سيقوم بأداء ثلاثة أمور رئيسة، **الأمر الأول** هو سد باب المادية الجارفة ونتيجة لهذا السد المانع سيخضر ويزدهر فصل الإيمان.

والأمر الثاني هو أنه سيحيي الشعائر الدينية وبالتالي ستزدهر مظاهر الحياة الإسلامية مرة أخرى.

أما الأمر الثالث الذي سيقوم به المهدي فهو أنه سيعمل لجمع كلمة

المسلمين تحت لوائه وسيتجمع حوله علماء الأمة ومصلحوها، والسادة الأشراف ونتيجة لهذا سيرفرف علم الشريعة الإسلامية مرة أخرى في العالم.

ونرى اليوم أن أكذوبة الأفكار المادية قد إنكشفت وفشلت النظريات الداروينية والفرايدية والرأسمالية. كما نلاحظ اليوم عودة اللحي والخمار والتي أصبحت منتشرة وتلقى قبولاً عاماً عوضاً عن القبعة الكافرة والتبرج.

كذلك الاقتصاد الإسلامي والبنوك الإسلامية بدأت تنتشر حتى صناعة وصفات من الطب النبوي والتداوي بها وهكذا بدأت تنال رضا عاماً لدى الشعوب.

كذلك يتحدث الناس اليوم عن تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة الخلافة بكل حب وشوق ولم يبق إلّا شيء يسير يعوق ظهور المهدي ألا وهو جمع المسلمين والعلماء والمصلحين وبشكل خاص السادة الأشراف حول هدف واحد، وبعد ذلك لن يستطيع أحد أن يمنع ظهور المهدي، وسيأتي بكل تأكيد.

بل إن أهل الكشف وصلوا إلى حد القول بأنه قد ظهر بين أظهرنا وهو موجود بنفسه وذاته. يضيء شوارعنا وهو ينتظر أن يكتمل الأمر ويريحنا من قلق الانتظار.

أيها الشباب: لا أدري هل سيكتب لي أن أعيش ذلك اليوم السعيد الذي سيظهر فيه المهدي. هل سأكحل عيناي برؤيته أم لا؟ لكن أنتم أيها الشباب حينما تدركوا زمن المهدي فلا تتأخروا في مبايعته. كذلك يجب عليكم أن تقدموا له كل سبل التعاون كما عليكم أن تفتدوه بأموالكم وأنفسكم. «اللهم عجل لوليك الفرج! اللهم إني أسألك يا الله، يا الله، يا الله، يا من لا يقهر...». مع هذا الابتهال بدأ صوت الشيخ عائض يتحشرج وأجهش بالبكاء.

خطبة الشيخ عائض الرقيقة، المؤثرة والآسرة للقلوب، وابتهالاته، تأوهاته وبكاؤه المرير جعلت المجلس يتوقف عن الكلام. مع الاحتفاظ بألقاب، آداب وسن الشيخ، فالحديث الذي جاء على لسان الشيخ عن المهدي المزعوم بدا لي في أول الأمر أنه لا مكان لحديث علمي حقيقي في هذا الجو الخانق، لكن الآنسة بسمة ليست من النوع الذي يقبل الهزيمة بهذه السهولة. **فتحت ميكروفونها وألقت على المجلس نظرة عابرة ثم بدأت تخاطب المجلس قائلة:**

«**أيها الأصدقاء:** إن هذا المجلس غير الرسمي، المنعقد الآن، هو في الواقع جاء لتكريم شخص، علمنا منهج التمييز بين الأساطير والتاريخ والتعامل معهما من حيث حقيقتهما الأصلية. قصدي هنا هو شخصية الدكتور شاز الموقرة التي لم تتح لنا الرد على أسئلتنا بل علمتنا فن استنباط أسئلة جديدة».

على ما أتذكر أن أول مقال قرأته للدكتور شاز، هو في الواقع كانت افتتاحية لمجلة المستقبل للإسلام، **وكان عنوان هذه الافتتاحية: «قضية هوية المسلم الأوروبي».**

بعد ذلك أصبحت مدمنة لكتاباته فقرأت كل ما عثرت عليه، وإن تعلمت من هذه الكتابات شيئاً فهو أنه لا ينبغي لنا أن نؤمن بالمسلمات دون أن نبحثها ونتحقق منها. ونزنها بميزان التحليل والحجة لكل أمر مسلم به؛ لأنه قابل للنقد والتعديل في كل وقت، وذلك في ضوء الوحي والعقل.

ولو سرنا على هذا المنهج العلمي لاستطعنا استكمال رحلتنا العلمية والفكرية وأنقذنا أنفسنا من الكثير من الملابسات والأساطير التي تتحول بمرور الوقت إلى اعتقادات ومسلمات خاطئة.

إنني أقدر الشيخ عائض من صميم قلبي. إنه طرح أحاسيسه ومشاعره أمامنا بدون نقص أو زيادة ودون خوف من لومة لائم. وهو يعتقد اعتقاداً جازماً مع زهده وتقواه أن لديه رسالة، هي رسالة ظهور المهدي المنتظر، وقد قام سماحته بنقلها إلى الجيل الجديد ونحن نشكره على صدقه في القول.

ولكن مستقبل المهدي الذي علينا مساعدته ومؤازرته كما أوصانا الشيخ، الذي لم يأت إلى الآن وقد مرّت قرون على هذا المنوال، وإن أتى فسيكتشف هذا الأمر فيما بعد بأنه لم يكن المهدي المطلوب. ففي هذه الحالة أليس من المناسب أن نجعل هذا الموضوع المسلم به موضوع تحليل ودراسة.

ولإدخال السرور والبهجة على قلوبكم أيها الحضور دعوني أحكي لكم واقعة طريفة. ففي عام ٢٠٠٤م عندما كنت أحضر رسالتي للدكتوراه في إيرلندا، كان هجوم الجيش الأمريكي والقوات الاتحادية والأوروبية مستمراً على بغداد وكان الرئيس صدام حسين قد تمت الإطاحة به من السلطة. ولعلكم تذكرون جيداً عندما كانت الدبابات الأميركية تتوغل داخل العراق من ناحية دولة الكويت وكانت القاذفات للقوات الاتحادية مستمرة في ضرب العراق دون انقطاع، ففي هذه الأثناء جاء ذكر هبوب عاصفة صحراوية في الجرائد مما أحدث ضجة فظن عامة الناس البسطاء أن هذه العاصفة الصحراوية ما هي إلّا مظهر من مظاهر التأييد الغيبي لصدام حسين. لكن ذهبت هذه الأفكار والأحلام أدراج الرياح بعد فترة قصيرة.

نعم كنت أقول: أنه في عام ٢٠٠٤م تمت المواجهة المباشرة بين القوات الإتحادية وجيش المهدي وكان هناك خوفاً عظيماً من أن يلقي القبض على «**مقتدى الصدر**».

في هذه الأيام كنت أرتاد مركزاً إسلامياً للشيعة بإيرلاندا، وكان هناك كثير من الرفقاء يسألون عن أخبار أقاربهم وأعزائهم. ففي يوم من الأيام حينما ذهبت إلى هذا المركز، رأيت ما أثار دهشتي وهو أن بعض الشبان والشابات يكتبون التماسات لرفعها إلى المهدي المنتظر قائلين: «يا صاحب الزمان! الاتحاديون يهاجموننا. يا الله امنحنا نحن الضعفاء القوة بظهورك، يا علي يا محمد اكفيانا فإنكما كافيان وانصرانا فإنكما ناصران يا مولانا يا صاحب الزمان الغوث الغوث الغوث ادركني ادركني ادركني الساعة الساعة الساعة».

سألت ما الحكاية؟ عرفت أن تلك الرسائل هي التي سترسل إلى المهدي المنتظر. وعلمت كذلك أن الأمر لا يقتصر على المركز الإسلامي بإيرلندا وحدها بل في البصرة وكربلاء حيث يعاني المسلمون معاناة شديدة وأيضاً يستمر أهل الإيمان الذين يشعرون بمرارة هذه الظروف السيئة بإرسال الرسائل إلى المهدي من مناطق أخرى من العالم. ويقال لمن يريد كتابة رسالة الاستغاثة أن يكتبها بالزعفران ويقوم برش الروائح الزكية عليها ثم يخلطها بالدقيق أو الطين الطاهر، ثم يقوم بإلقائها في الصباح الباكر في نهر من الأنهار أو في بئر عميق ويردد قائلاً وقت إلقائها: يا حسين بن روح سلام الله عليك! إنك حي في حضرة الله أوصل رسالتي هذه إلى عتبة صاحب الأمر.

أصدقائي الأعزاء! إنكم بكل تأكيد كنتم قد قرأتم في كتب النقوش والرسوم والتعاويذ عن الطائر الأخضر الذي يقال بشأنه أنه يظهر على ضفة النهر بعد بزوغ الفجر الصادق وذلك بعد إتمام عمل روحاني استمر لمدة (٤٠) يوماً.

حدد الأذكياء (الخبثاء) وقت الخيط الأبيض كي ينخدع بها كل راغب في هذا الأمر الغريب وبهذا يرى كل طائر بأنه مصبوغ باللون الأخضر.

فلا الطائر الأخضر الحقيقي جاء إلى يومنا هذا على ضفة النهر في الوقت المحدد، ولا إمام الزمان رد على هذه الرسائل.

ونحن حملة الإلهام، ولدينا مصدر تجليات هذا الإلهام وهدايته ونوره، أليس من الأفضل أن نحاكم وبكل جرأة هذه الأساطير والأباطيل، ونرى ما هي الحقيقة الساطعة.

منذ متى وكل هذا الهراء مستمر، ومن هو العبقري الذي أدخل في ديننا هذه الخرافات؟! إنني لن آخذ من وقتكم الكثير بل أريد من الضيف الكريم لندوتنا اليوم أن يفيدنا بآرائه القيمة وأفكاره النيرة.

إن الكلمة الافتتاحية للآنسة بسمة قد أزالت إلى حد ما أثر النواح والبكاء الذي أثاره الشيخ في المجلس، لكن المشكلة التي حدثت هي أن الشيخ عائض لم نعرف متى خرج مع مريديه من الندوة دون أن يشعر أحد بخروجه.

إن الشيخ منذ سنوات عديدة يعيش في أحلام اليقظة رغبة منه في مشاهدة المهدي وكأنه مصاب بالهلوسة التي لا تسمح له بأي حديث آخر. وليست لديه أي رغبة للإدراك والإستيعاب أو إعادة النظر في هذا الشأن، وإن كل ما لديه هو هلوسة فقط فقد كان يرى بعينيه أن المهدي يسير في طرقات وأزقة إسطنبول ليلاً ونهاراً وهو ينتظر فقط الإذن للظهور.

إنني فكرت أن المهدي علامة بارزة لأسلوب تفكيرنا الأسطوري. فلو ركزنا الحديث على هذا الموضوع فقط فالشباب لا يستطيعون الإستفادة من ندوة أهل العلم هذه.

لكن حديث الشيخ عائض الآسر للقلوب، ثم النقد الفوري للآنسة بسمة قد وضع النقاط على الحروف، وفي هذه الحالة لم يكن من السهل الهروب من هذا الموضوع.

فكرت أنه لا وقت لإلقاء الخطبة ثم إنني لست من أهل الخطابة فلما لا يكون حديثي مقتصراًعلى ترتيب وتجهيز عدد من الأسئلة الهامة.

وبناء على هذا بينت أولاً أننا نحن عامة المسلمين، بما أننا حاملو رسالة الله الأخيرة، سواء كنا ذكوراً أو إناثاً بمثابة فهذا يجعل كل واحد منا وكأنه هو نفسه المهدي المنتظر.

بعد وفاة الرسول (ﷺ) ولحاقه بالرفيق الأعلى، علينا نحن المسلمين الضعفاء تحمل مسؤولية الإرشاد وهداية أقوام العالم من الآن فصاعداً حتى تقوم الساعة.

علينا أن نفيق من أحلام اليقظة هذه بأن المسيح سينزل من السماء لإصلاح الأحوال أو سيخرج المهدي من حضن الجبل. علينا أن نكون على يقين بأن أمنية ظهور المهدي والبكاء والعويل أو الاستعداد بالوقف، والنقوش والتعاويذ أو انتظار قدوم الطائر الأخضر في الصباح الباكر، كل هذا لن يفيد. الآن علينا نحن أتباع محمد (ﷺ) أن نصلح أحوالنا بأنفسنا.

يا أعزائي الشباب! إن الذين يظنون أن المهدي سيكون من آل الرسول (ﷺ) وسيجتمع حوله السادة الأشراف ومصلحو الأمة، لماذا ينسون أو يتناسون بأنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض من ينسب إلى آل الرسول (ﷺ).

إن القرآن الكريم يعلن جلياً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ربما لم يحدث في التاريخ الإسلامي تزوير وتدليس أسوأ من هذا بأن يعد أولاد الابنة السيدة فاطمة (رضي الله عنها) تسلسلاً لنسل النبي (ﷺ)، على الرغم من وجود الشهادة الواضحة من القرآن الكريم، وعدم وجود الأولاد الذكور للنبي (ﷺ).

والأمر العجيب والغريب أنه بعد وفاة السيدة فاطمة (رضي الله عنها)، كل هذا التسلسل النسلي يحسب من الأولاد الذكور للحسن والحسين.

إن سيدنا علي (رضي الله عنه) شخصية عظيمة بلا شك، وكذلك ولدا السيدة فاطمة (رضي الله عنها)، الحسن والحسين (رضي الله عنهما)، فلهما مكانتهما العالية ولهما المناقب الحسنة التي لا غبار عليها.

إذا ليس هناك أحد يرفض هذه المكانة، لكن الإقرار بأنهما من أولاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهذا في الواقع إنكار ورفض للوحي والعقل.

بما أن السيد الذي ينتمي إلى آل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) لا وجود له في هذه الدنيا فظهور المهدي من هذه الأسرة أو حدوث معركة أخيرة لأهل الإيمان تحت قيادة السادة الأشراف، كل هذا هراء وقصة مختلقة لا أساس لها في الدين والتاريخ.

سواء كانت أسطورة المهدي أو حكاية تفضيل آل محمد، فهذه من الأساطير التي لا سند لها، غير أنها جعلت الأمة تنتظر منذ قرون.

والواقع أن هذه القصة المختلقة هي من نتاج الأزمة السياسية التي كانت قد نشأت في القرنين الثالث والرابع من الهجرة، ولا وقت للخوض في هذا الحديث الطويل.

ثم إن حضراتكم كما أحسبكم أهل العلم والدراية فلو ألقيتم نظرة عابرة على هذا العهد وما كانت من خلافات شديدة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وما نتج من الأدبيات في ضوئهما تستطيعون أن تفهموا هذه النقطة بسهولة، إن هذه القضايا في الواقع نتاج الدعاية السياسية أكثر من أن تكون لها علاقة بالدين أو هذا الموضوع.

والمصيبة التي وقعت هي أن روايات المناقب والمدائح والدعاية هذه دونت في القرنين الثالث والرابع من الهجرة في كتب آل بويه، وكتبها كذلك علماء الخلافة الفاطمية وعلماء العباسيين.

أما الخلافات البينية فيهما فقد زالت وانتهت بمرور الأيام، لكن لسوء الحظ أن أدبهم المعارض والمعاند ومجمل رواياتهم ظلت على حالها.

فالذين جاءوا من بعدهم لم يروا إلّا أن الكليني كتب كذا، والشيخ مفيد ذكر كذا، وموقف أصحاب الصحاح الستة هكذا أو الطوسي وابن بويه يرجحان هذا الرأي أو ذاك الرأي.

ثم بمرور الوقت نالت هذه الآثار والأحداث التاريخية المتشابكة مع بعضها البعض، والبيانات المضللة في أغلبها مكانة القداسة.

إن الزمن لم يمكن الذين جاءوا من بعدهم أن يقدموا رسالة الإسلام التي تشجع أهل الإيمان على العمل وبذل المجهود، وعدم إضاعة الوقت في إنتظار شيء لا سند له دون التأثر بتلك الأهواء الشخصية والدعاية السياسية.

واليوم وبعد مرور مئات السنين وبعدما ازدادت ضبابية الأساطير ليس الأمر هينا لعامة الناس أن يدركوا هذه الملابسات، لكنني لست فاقداً للأمل، فالوثيقة الربانية غير محرفة وموجودة بتمام جلالها وجمالها بيننا حتى اليوم.

نحتاج فقط أن نفتحها من جديد. انظروا! المهدي الذي سيقود المعركة الفاصلة لأهل الإيمان ثم المجيء الثاني للسيد المسيح (عليه السلام) الذي سيكون سبباً لتجديد أمتنا وإحيائها، كيف يمكن أن تكون صفحات القرآن خالية من ذكر هذه الأحداث العظيمة؟

لا تذهب إلى أن صاحب الكشف الفلاني قال هذا أو الراوي العلاني نقل هذا. بل انظر ماذا يقول لك كتاب الله سبحانه وتعالى.

إن حديثي وإن كان مختصراً، لكن في هذه المدة القصيرة بدأ بعض

الشباب الذين كانوا في الصف الأخير رفع أيديهم، لعلهم أرادوا أن يقولوا شيئاً أو أنهم ما كانوا يطيقون سماع كلام ضد موقفهم. فلقد كانوا خمسة أو ستة شباب وكانوا يربطون حول أعناقهم أوشحة بيضاء وسوداء على طراز الكوفية الفلسطينية.

في الغالب هؤلاء كانوا قد جاءوا من الموصل مع ركب الشيخ عائض. كان من بينهم شاب نحيف وكان شعره الطويل يصل إلى المنكبين أراد هذا الشاب الاستئذان للسؤال ثم بدأ يقول: إن العلّامة سعيد النورسي ذكر حديثاً في جواز آل محمد (ﷺ). يقول الحديث: «يا علي! كان لكل نبي أولاد ولكن أولادي ستكون منك» فما رأيك في هذا الحديث؟ إن الشاب كان متحمساً وعاطفياً في نفس الوقت.

قلت له: «يا أخي العزيز! مع فائق الاحترام والتوقير للشيخ النورسي، ولكن لا أستطيع أن أقول غير هذا الكلام وهو أن هذه الرواية ضد العقل والوحي معاً».

مثل هذه الروايات أو الأبيات أو أناشيد الإسماعيليين كهذا النشيد على سبيل المثال:

لي خمسة أطفئ بها مر الوباء الحاطمة

المصطفى والمرتضى وابناهما والفاطمة

حسب هذا الشعر فإن الحسن والحسين ولدان مشتركان للرسول (ﷺ) وسيدنا علي (رضي الله عنه).

هذا في الواقع افتراء وبهتان عظيم على ذات النبي (ﷺ) تحت ستار العقيدة والغلو.

واليوم أيضاً هناك خلاف شديد حول قضية آل محمد (ﷺ). فبعض الناس يحصرون آل محمد في خمسة وبعض المتقدمين حسبوا الأئمة

الاثني عشر أو الأئمة السبعة من آل النبي. أما الإسماعيليون فهم أدخلوا الإمام الحاضر في آل محمد.

هناك طائفة أخرى تعتقد أن جميع نسل الحسن والحسين تدخل في آل محمد وهم جميعا ينالون من بركات ورحمات صلواتنا وتسليماتنا.

هناك من يُدخل آل عباس في هذه المكرمة في ضوء حديث الكساء. وهو أن الرسول (ﷺ) قد دعا هذا الدعاء: «**اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً**» وكذلك «**واجعل الخلافة فيهم**».

والآن وقد حكم التاريخ بأن دعاء النبي (ﷺ) لإبقاء الخلافة في آل العباس كان كذباً وأسطورة واهية وإلا فكان لزاماً أن تستمر خلافتهم في ضوء هذا الحديث إلى أن ينزل عيسى (عليه السلام).

مثلما كانت حقيقة ادعاء الخلافة لآل العباس دعاية سياسية محضة لا أكثر ولا أقل. كذلك ادعاء خلفاء الفاطميين والعباسيين بأنهم من آل محمد (ﷺ) أو النعرات مثل «**إعطاء آل محمد حقهم بالرضا من آل محمد**» كان نتاجاً للدعاية السياسية.

كل هذه المتاجرة بآل محمد في الواقع كانت ضد كرامة الحرية الفكرية، كذلك كانت نتيجة للمعارك السياسية الدائرة في القرنين الثالث والرابع من الهجرة.

اقرأ القرآن بعين مبصرة وهنا لا تجد فقط إعلاناً عن انقطاع نسل النبي (ﷺ)، بل تجد مرة تلو الأخرى أن القرآن الكريم يدعو إلى إقامة مجتمع لا تفريق فيه بين الناس إلّا بالتقوى.

فلا تفوق ولا اعتزاز هنا إلّا بالتقوى. والأساس الوحيد للتفوق هو التقوى. يقول الله جل شأنه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ مطلوب من أهل

الإيمان أن يكونوا مسلمين حنفاء لله، وأن يكونوا ربانيين ويكون سبب التميز والتفوق هو صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

«المصنف الفاضل! وإن كان حديثك يقبله القلب، لكن ليس هيناً أن ينزل هذا الحديث في الحلقوم كلقمة سائغة».

سيدة تركية كانت تسمع هذه المناقشة بكل إنصات، تدخلت بأسلوب حكيم إلى حد ما. قالت: «لئن قبلنا كلامك هذا، فيوجد هناك تخوف كبير أن تنهار عمارة الإسلام القائمة الآن. إنني كلما ذهبت لأداء صلاة الجمعة، أجد خطيب الجامع يرطب اللسان بذكر وعد مناقب أهل البيت الأطهار، وقيل لي منذ الصغر أن الخلفاء الراشدين أربعة، بالإضافة إلى ذلك هناك ستة ممن يعدون من العشرة المبشرين بالجنة. وهم سيدنا حمزة (رضي الله عنه) إمام شهداء الجنة، والشابان الحسن والحسين (رضي الله عنهما) اللذان لهما سيادة الجنة، والسيدة فاطمة (رضي الله عنها) فهي سيدة نساء أهل الجنة. فإن رفضت أو هدمت فكر «**آل**»، ففي هذه الحالة تصبح خطبتنا للجمعة بلا معنى. ألا ترى أنك بقولك هذا تثير في الناس أزمة فكرية كبيرة؟».

جلست السيدة التركية بعد توجيه سؤالها الوجيز هذا. لكن حديثها هذا قد أثار قضايا كثيرة.

الخطبة الحنفية لصلاة الجمعة وبصفة خاصة الخطبة الثانية التي تعتبر سندا معترفا به لعقيدة أهل السنة والجماعة.

هل تحتاج هذه الخطبة إلى محاكمة جديدة؟ كان الموضوع في حاجة ماسة إلى حديث مفصل، ولكن لم يكن هناك وقت لهذا، ولذا اكتفيت بهذه الكلمة القصيرة: إن خطب الجمعة المقفاة والمسجعة التي ألفها أهل الفن في القرن الرابع مثل ابن نباتة، والتي انتشرت في الدول غير العربية بعد ذلك. هذه الخطب مرت بمراحل مختلفة في عصر الأمير معاوية (رضي الله عنه).

لم يكن هناك في أي عهد من أيام الخلافة الأموية تقليد ذكر أسماء الخلفاء الأربعة. يقول المؤرخون أن الأمر كان ينتهي على ذكر أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) في عهد الأمير معاوية والناس كانوا يعتقدون أن خلافة علي (رضي الله عنه) لم تكن قد تمت ولذا لم تكن الأمة الإسلامية قد اتفقت على اسمه كخليفة للمسلمين، فلا يجوز إدخال اسمه في قائمة الخلفاء المتفق عليهم.

حدث في عهد المتوكل وبموافقة من ابن حنبل حيث تم ضم اسم علي (رضي الله عنه) كخليفة رابع في قائمة الخلفاء الراشدين وأصبح ذكر اسمه جزءا من الخطبة.

أما تقليد ذكر مناقب آل البيت فقد حدث هذا نتيجة لوجود العداوة السياسية بين الفاطميين والعباسيين. الاثنان في الأساس كانا حركتين شيعيتين وكانتا تطالبان بمنصب الخلافة بسبب قرابتهما للرسول (صلى الله عليه وسلم).

أما روايات المناقب التي نسمعها بكثرة في خطب أهل السنة والجماعة، والتي أصبحت جزءاً لا شعورياً لنا بسبب الذكر المتكرر، فهي متصادمة بالرسالة الأساسية للقرآن الكريم. ثم إن هذه الروايات ليست بدرجة الأحاديث المروية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل هي افتراء وكذب عليه.

إن حديثنا كان قد سلك طريقاً جاداً وهو في نفس الوقت حديث عن أمور حساسة جداً يؤمن بها الناس كعقيدة ثابتة حسب فهمهم وهي في نفس الوقت تثير أسئلة عديدة.

كان من الوارد أن يصبح هذا الحديث غير محتمل لبعض الناس. في هذا الظرف الشائك وجهت الآنسة بسمة كلمة للحضور قائلة: «إن هذه الندوة لم يتم انعقادها للفصل في قضية المهدي. فلو انشغلنا بهذه الصورة في قضية واحدة وبدأنا نتعقد ونواجه بعضنا البعض، فهناك تخوف كبير أن

يذهب الوقت كله في قضية واحدة، وفي هذه الحالة لن نستطيع الاستفادة كما ينبغي من الآراء القيمة للضيف الفاضل».

لكن هذه التنبيهات والتحذيرات لم تأت بفائدة. فوقف شاب كان يتراوح عمره ما بين (٢٠) و(٢٢) عاماً ثم بدأ يوجه كلامه: معذرة! كنت أمر بحالة قلق نفسي، والآن وبعدما سمعت كلام حضرتك بدا لي كأن الأرض قد سحبت من تحت قدمي. يوجد هنا في إسطنبول شخص معروف ومقبول بين الفتيان والفتيات بصفة خاصة. عدد كبير من مريديه وأتباعه يعتقدون سراً بأنه مهدي المستقبل. بعض الشباب وبشكل خاص



السيد «سعيد النورسي».

بنات العائلات الغنية اللاتي يحسبن من مريدي حلقته، يؤمن بأننا نعيش في الساعة الأخيرة لظهور المهدي، وما العجب أن يكون شيخنا وأستاذنا الذي كلف ببشارة ظهور المهدي والذي يعد من عائلة الأشراف أن يكون هو نفسه مهدي المستقبل فهو لم يدع بهذا ولكنه يقول أن السيد «**سعيد النورسي**»، الذي نكن له كل احترام وتقدير، لم يكن مهدياً.

لأن أموراً ثلاثة حسب قول النورسي لم يتم إنجازها وهو - أي النورسي - لم يستطع إنجاز هذه الأمور ففي هذه الحالة لا يمكن أن يقال عنه أنه المهدي.

الأمر الأول عند النورسي أن المهدي سينتصر على المادية لكنه - أي النورسي - لم يستطع إنجاز هذا الشرط، وإن كان قد قام بهدم العقيدة الداروينية، وبقيت إقامة الوحدة في العالم الإسلامي، العمل لإحيائها، تطبيق الشريعة الإسلامية، وقضية تفوقها وغلبتها فهذا العمل هو الذي يؤديه النورسي تحت قيادة الاتحاد الاسلامي التركي للدعوة.

مشكلتي أنني بايعت منذ عدة سنوات على الطريقة القادرية. من ناحية الأبوين فأنا حنفي المذهب وحتي الآن ما زلت واقعا في هذه المشكلة، لكن المبايعة على الطريقة القادرية لمن كان حنبلي المذهب خلقت لي مشكلة أخرى، وهي هل أستطيع أن أبقي على المذهب الحنفي وهل يجوز لي هذا؟ هل أستطيع أن أختار مذهباً فقهياً آخر في المسائل الفقهية تاركا مذهب شيخي الروحاني، في الوقت الذي أوشك ظهور المهدي؟ هل يجوز إبقاء العلاقة بمخيم الشيخ عبد القادر الجيلاني ومخيم الإمام أبي حنيفة (رضي الله عنه) في وقت واحد، هل يجوز هذا شرعاً؟ ثم كيف يتم تكييف المبايعة للمهدي الجديد مع وجود هذه العلاقات المتشابكة؟

هل بسبب ظهوره ستفقد المراكز التقليدية شرعية وجودها مثل الحنفي والقادري؟ والآن بعد أن وضعت حضرتك علامة الاستفهام على جواز السادة الأشراف أنفسهم فقد انهارت طريقتي القديمة في التفكير والتأمل.

لكن الذي لا أفهمه، هل كل هؤلاء الناس الذين بايعوا الطريقة النقشبندية والقادرية، أو الذين يؤمنون بروايات ظهور المهدي، يمكن أن يجتمع كل هؤلاء الناس في وقت واحد على الباطل.

بعد أن انتهى الشاب من كلامه عاد وأخذ مكانه.

ثم بدأ طالب آخر بالتعقيب بهذا الحديث بما لديه من المعلومات، وقد جاء فيه: «قال الرسول (ﷺ) أن من أنكر خروج المهدي فقد أنكر بكل ما نزل علي». خلاصة الأمر أن من يرفض خروج المهدي فهو كافر فماذا تقول بشأن هذا الحديث؟ ألا تعد من الكافرين بعدما أنكرت ظهور المهدي؟

كان أسلوب هذا الطالب جارحاً إلى حد ما، ولذا عبست وجوه المنظمين لهذه الندوة بسبب هذا الأسلوب السخيف، لكن الآنسة بسمة كالعادة قبلت هذا النقد الجارح أيضاً بابتسامة أخاذة.

بدأت تقول: الأسئلة كثيرة والوقت قليل جداً. ففي هذه الحالة أليس من الأفضل أن نجمع كل الأسئلة ثم يقوم الضيف الفاضل بالرد عليها إجمالاً إن لم يكن متيسراً الرد عليها بالتفصيل نظراً لضيق الوقت.

نعم يا سيدي، لدي أيضاً سؤال وهو عن عمر المهدي. يقال أنه يعيش في الخفاء في مكان ما منذ ألف ومائتي عام، فهل يأكل ويشرب مثلنا ويعيش كإنسان حي يرزق أم هو نائم مثل أصحاب الكهف. أخبرني بالحقيقة في ضوء القرآن والسنة؟

بدأت الرد على هذه الأسئلة بسؤال موجه لأولئك الذين يخفون في قلوبهم كعقيدة هذا المهدي المزعوم منذ ألف ومائتي سنة، وتنقضي أيامهم ولياليهم في انتظاره. يعتقدون أن الدعاء لظهوره فريضة دينية، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أنه لم يتم التوافق على قضية المهدي في أي زمن من التاريخ الإسلامي، ولا في أي جماعة من العلماء الجديرين بالذكر أعلنت على الدوام بأن هذه الروايات لا أصل لها. أما الكلام بأن من ينكر أو يرفض قبول الروايات عن ظهور المهدي فهو يفقد إيمانه، فالواقع

أن مثل هذا القول إجتراء وإفتراء على الله سبحانه وتعالى ولو كان هذا الأمر بتلك الأهمية لكان القرآن قد أخبرنا بشأنه بكل تأكيد.

والآن أريد أن أوجه كلمة إلى الشاب الذي يشعر بضيق من الاستمرار على المذهب الحنفي، بعدما بايع على طريقة عبد القادر الجيلاني، الذي كان حنبلي المذهب. أولاً لا بد أن تعرف أيها الشاب بأن هذه المبايعة وما فيها من الطريقة والسلوك والإرادة، فكل هذه الأمور لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالدين الإسلامي. هذه الأمور أمور محدثة وهي بدعة جاءت عن طريق المتأخرين.

عزيزي السائل! من الذي قال لك أن المبايعة على الطريقة القادرية أو اقتداء الحنفية جزء لا يتجزأ من الإيمان؟ وما هو الهدف من وراء هذه المبايعة؟ إن السيد عبد القادر الجيلاني والإمام أبو حنيفة كانا من الناس العاديين مثلي ومثلك. لم يتلقا النبوة ولم ينل أحد منهما صحبة أصحاب النبي (ﷺ).

إن الإسلام قد جاء لوضع حد لمثل هذه المبايعات، فهو يريد أن تكون علاقة العبد بربه علاقة مباشرة، وهو يريد أيضاً أن يصل العبد بربه بلا واسطة. عليك أن تعلم أننا جميعا أتباع رسول الله (ﷺ) وكل من يتشرف بالتمسك بالوحي الإلهي الأخير الذي نزل على الرسول محمد (ﷺ)، فمن كان بيده تجليات الوحي الرباني لا يليق به أن ينظر إلى الآخر غير القرآن الكريم وسنة النبي (ﷺ). يكفينا كتاب الله سبحانه وتعالى وأسوة الرسول (ﷺ). لو تمسكنا بهما حق التمسك لنجونا من كثير من الالتباسات الفكرية والخرافات العملية.

إن حديثي كان قد انتهى، ولكن علامات الحيرة والتساؤلات كانت لا تزال باقية على وجوه السادة الحضور. فهم كانوا يريدون أن يستمر هذا الحديث لمزيد من الوقت، لكن بسبب مداخلة مصطفى أوغلو المتكررة اضطرت بسمة للإعلان عن انتهاء هذه الندوة.

قالت مختتمة الندوة: السادة الحضور كنت أتتمنى نفسي أن تستمر هذه الندوة لمزيد من الوقت، فأسئلة زميلاتي لم يجاب عليها ولكن على الرغم من هذا فإنني في غاية السعادة؛ لأن الناس جميعاً اشتركوا في الاستفادة والإفادة في هذه الندوة.

وما على إلّا أن أقول كتوصية أن تحافظوا على هذا المنهج الفكري والتأملي. عليكم أن تخلقوا الأسئلة ثم ابحثوا عن إجاباتها واستعينوا في هذا البحث والتمحيص بكل صاحب علم. فلو تمسكنا بهذا المنهج تأكدوا أننا نسير على الطريق المؤدي إلى الصواب، أما المراجع والمصادر المخالفة للقرآن والسنة والتي صنعناها نحن بأيدينا ستفقد اعتبارها ولن يبقي إلّا كتاب الله وأسوة رسول الله (ﷺ) فهما باقيان إلى أن تقوم الساعة.

إنني ولدت في أسرة سنية، وكان موضوع دراستي النصوص القرآنية. لكن كان يبدو لي كأنني أخاف فتح هذا الكتاب الخالد، وهذا الخوف كان يرجع إلى أنه لا يستطيع قلبي وذهني إدراك المعاني والمفاهيم لآيات القرآن المجيد التي لا تكون متسقة مع فهم السلف الصالح، ونظراً لهذا الخوف كنت أفتح هذا الكتاب أقل مما كنت أغلقه.

ثم في يوم من الأيام بينما كنت أتلو القرآن المجيد، بدا لي وكأن الله يكلمني مباشرة، وذلك عندما وصلت إلى تلاوة هذه الآية: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.... بدأت أبكي ثم استشعرت وكأن الله قد أنزل في قلبي سكينة كسكينة يعقوب (عليه السلام). كنت في تلك الأيام أمر ببعض من المعاناة بسبب بعض المسائل الشخصية. واليوم بعدما بدأت تلاوة القرآن الكريم مع هذه الظروف النفسية خضت لتجربة جديدة. إنني لم أتول أي منصب للمعرفة والسلوك، ولست أدعي بأنني شيخة، لكن لم تبق لي حاجة بعد اليوم لأكون مريدة لشيخ أمسك حجره وأبايع على يديه.

إنني اليوم شيخة نفسي وعالمة لنفسي. بل ليس لدي أدني حرج

لإبداء هذا الرأي وهو: إنني عندما فكرت مراراً وتكراراً فتبين لي أن النسبة إلى الحنفية غير ضرورية لي، بل يبدو لي كأنه وثن كنت أعبده من غير تفكير مثل كثير من الجهال.

كنت أفكر كثيراً أن الله سبحانه وتعالى علمني القرآن ووفقني للدراسات العليا فكيف يليق بي أن أنظر إلى أي إنسان آخر مثلي والقرآن موجود بيننا للإرشاد والهداية. إنني حطمت هذا الصنم العنصري الموبوء في باطن القلب.

إنني ولدت في بيت من بيوت أهل السنة والجماعة، ولكن عندما عرفت أن شخصية الرسول (ﷺ) كانت بعيدة عن مثل هذه الانتسابات، فلم يكن الرسول (ﷺ) سنيا ولا شيعيا. فهذه الجداليات كلها من نتاج المتأخرين.

سألت نفسي: إن العصر الذي شهد هذا النزاع العقائدي والطائفي ولم أكن قد ولدت في ذلك العهد، وحفظني الله من هذا النزاع، فليس من المفيد أن أدخل نفسي فيه أو أتعلق بأحد الفريقين، ومادام الله سبحانه وتعالى لا يريد مني أن أكون شيعية أو سنية، بل يريد لنا جميعاً أن نكون ربانيين وأن تكون صبغتنا هي صبغة الله وهويتنا هي كوننا مسلمين ومسلمين فقط (هو سماكم المسلمين). وبناء على هذا الأساس ودعت نسبة السنية أيضاً. وإن لم تكن هذه الرحلة العلمية والفكرية سهلة، لكنني اليوم أفهم جيداً بأننا لا نستطيع البلوغ إلى الصواب بدون خوض هذه الرحلة، وبدونها أيضاً لا نستطيع السير على الطريق المستقيم.

أنزل الله رحمته وبركته على ضيفنا العزيز؛ لأنه أيقظ في نفوس الطلاب أمثالنا الثقة والإعتماد على قلوبنا للبحث عن العلم الصحيح ولهذا الأمر عيب واحد فقط وهو أن هؤلاء سيبقون طلاب علم طوال العمر، ولن يصلوا إلى مرتبة العلاّمة أو الشيخ. لكن الذين ذاقوا لذة

طلب العلم فهم بكل تأكيد سيؤثرون على أنفسهم أن يكونوا شيوخا للإسلام.

ندوة اليوم وإن كانت قد وصلت إلى النهاية ولكن ينبغي أن يستمر طرح الأسئلة والبحث عن الإجابة في ضوء الوحي والعقل.

٩

سحر الألحان

عندما أوشكت الندوة على الإنتهاء بدأت تقل المصافحة الحارة، وانخفضت أصوات الإشادة والاستحسان، **والأدعية المأثورة مثل**: «**جزاك الله وما شاء الله**» وفي الختام كان هناك وعد بلقاء آخر.

عندها شكرت الآنسة بسمة وزميلتها نهلة وكذلك صديقاتها وزميلاتها الأخريات. خرجت من القاعة فرأيت مصطفى أوغلو كان قد جاء بسيارته من الجراج، ورأيت في المقعد الخلفي للسيارة شخصين. علمت فيما بعد أن واحداً منهما اسمه الشيخ «**محمد كامل**»، وهو يسلك المنهج السلفي ويعمل في مسجد من مساجد البوسنة والهرسك كإمام. كان قد جاء إلى هنا من دولة الكويت من أجل التبليغ والسياحة مع جماعة دينية، وينوي العودة هذه الليلة، أما الشخص الآخر فهو «**جول محمد**»، يعمل في ميونيخ في تجارة السجاد.

بعد الخروج من المركز المخملي الأخضر لدراسة ومطالعة التاريخ، توجهنا مرة أخرى نحو جسر السلطان الفاتح الثاني. هنا في الجانب الأيسر وعلى مسافة قريبة من الجزء الأناضولي لمدينة إسطنبول توجد سكة حديد باسم حيدر باشا. أشار مصطفى أوغلو من فوق الجسر إلى الساحل الآسيوي قائلاً: تلك هي سكك الحديد التي كان الناس يسافرون بها إلى الحجاز ودمشق في عهد خلافة الأتراك. سمعت أن

المملكة العربية السعودية تفكر الآن في إقامة السكك الحديدية مرة أخرى.

نعم، إن الذين قاموا بقطع وتخريب سكك الحديد لمحطة الحجاز بالبارود؛ لعلهم يحسون الآن أن مرافق السفرهذه كانت تقوم بربط المسلمين بعضهم ببعض.

قال «جول محمد» مشاركا في هذا الحديث: السفر بالقطار له مذاق آخر، ففي القطار لا تسافر أنت بمفردك، بل تسافر معك حضارة بأسرها وتعبر معك نحو الأمام وهكذا يتجاذب أطراف الحديث حيث تتبادل الآراء وتدور المناقشات. وهكذا تنشأ المنافسات والمسابقات وحكايات الحب والهيام. ويستمر كل هذا وذاك في آن واحد على عكس السفر بالسيارات الخاصة؛ لأن السفر بالسيارات بلا متعة ولا ترفيه. فكر واحد يكون مسيطراً على المسافر وهو أن يصل إلى المنزل بأقصي سرعة. غير أن السفر الجماعي يمنح المسافر متعة المنزل بل وقد يصل به الحال أن يشتهي ويتمني بصدق أن يكون هذا القطار منزله ويتوقف التاريخ في التو واللحظة.

استمر «**جول محمد**» في حديثه الشاعري هذا. علمت فيما بعد أنه يعمل في مجال تجارة السجاد ولكنه في نفس الوقت يملك ذوقاً رفيعاً في الشعر والأدب حيث يفرش في غزلياته للحبيب سجادة القلب والعين، وهو ماهر إلى حد كبير في هذا النوع من الفن.

إن الشيخ محمد كامل كان متحفظاً في البداية لكنه سرعان ما أصيب بنكت ونوادر جول محمد، وخرج من دائرة التصنع والكلفة. حرك الطربوش بيديه ثم وضعه في حضنه بعدما خلعه من فوق رأسه. والآن بعدما انزاح الطربوش خرج من داخله إنسان عادي بلحمه ودمه، وكأن آخر ستار للكلفة قد سقط.

«سلم على الشيخ، فالشيخ كامل عالم مستنير. في البداية كان نقشبندياً ثم أصبح قادرياً. ومنذ بضع سنوات تحول إلى داعية للمنهج السلفي». قالها لي مصطفى أوغلو خلال تعريفه بالشيخ كامل.

«**يا شيخ كامل! عالم اليوم يبحث عن شيخ كامل**» وجهت له هذه الكلمة مبتسماً.

نعم يا سيدي، هو أيضاً شيخ كامل فهو الشيخ الذي يسير على الماء لكن بعد ما إنضم لصحبة الوهابيين توقف عن السير على الماء فهو الآن لا يسير على الماء إلّا في الحمام فقط.

إبتسم الشيخ كامل رداً على هذه الكلمات الطريفة، ثم بدأ يقول: إنني ولدت في أسرة متصوفة لكن كانت هناك عراقيل لم تكن لتسمح لي بمراقبة منتصف الليل (التهجد) أو الأوراد والأذكار. لذا سلكت مختلف الطرق الصوفية وظللت عليها ثابتاً حتى هداني الله إلى منهج السلف الصالح. فعندما دخلت في ندوتكم هذه وقد كانت في منتصفها. أعجبني الجلوس معكم جداً والحق أن الروايات المتضادة والأحاديث التي لا سند لها، قد أثارت في أذهان الشباب الريبة والشك إلى حد كبير. خذ على سبيل المثال قضية المهدي هذا، فنحن أهل السنة لسنا في صدد أن نقول شيئاً واضحاً وصريحاً في هذا الشأن فنحن لا نرفضه ولا نقبله فلسنا في انتظار ظهوره من القلب والروح. إنما الشيعة الذين يؤمنون بهذا الاعتقاد، فهم يعيشون ليل نهار في هذا الإحساس، ولا يدرون متي ولا في أي لحظة سيظهر المهدي. كما أن الدعاء باستمرار لظهور المهدي جزء مهم من لياليهم ونهارهم. «لكن أين هم أهل السنة الآن؟» تدخل مصطفى أوغلو قائلاً: بعد نهاية الأمويين، قامت خلافتان وهما العباسية والفاطمية. هاتان الخلافتان كانتا قد تولتا السلطة من خلال نسبهما لآل بيت الرسول (ﷺ) وكانتا حركتين شيعيتين فالعباسيون اختاروا أسلوب المؤمنين لنيل تأييد

ومؤازرة جمهور المسلمين، لكنهم كانوا عاجزين بدون الإدعاء أنهم من آل البيت.

سواء كانت أسطورة المهدي، أو الحديث عن أفضلية أهل البيت أو المعاملة الخاصة من العز والشرف للسادة الأشراف، فكل هذه الدعاوي في الواقع كانت إستراتيجية للدعاية السياسية للعباسيين والفاطميين والاثني عشرية.

في هذا البالون ظلت جميع الفئات السلطوية تنفخ الهواء حسب قدرتهم وطاقتهم، وكانت النتيجة أن الفكر السياسي لأهل التشيع قد إتخذ مكاناً لنفسه للأبد لدي جمهور المسلمين.

والمشكلة الكبيرة لأهل السنة الآن، أنهم سائرون عملياً على طريقة أهل التشيع ولكنهم يتوهمون أنهم من أهل السنة والجماعة. هذه الحالة جعلتهم في أزمة كبيرة فهم ليسوا ممن ينكرون أفضلية علي (رضي الله عنه) ولا تمل ألسنتهم في نفس الوقت من قول أن معاوية أمير المسلمين. كذلك يشارك أهل السنة الشيعة في عقيدة المهدي لكن بشيء من الشعور بالحرج. في ذلك الوقت فكرت أن الشيخ كامل قد مر بعدد من التجارب الروحية، وقطع عدداً كبيراً من المقامات والإرادة والمبايعة. فلم لا نسأل عن تجاربه السابقة؟

بعد اندماجك في الفكر السلفي، كيف ترى الآن المراقبة والأذكار وحالة السماع؟ أردت أن أسمع رأيه في هذه الأمور الصوفية.

ضلال في ضلال وسراب في سراب. يجري وراءها الحمقي.

وعند الحديث عن أهل الصفاء اشتدت لهجته إلى حد ما. فسألته: إنك قد خضت هذه المراحل بنفسك فبكل تأكيد رفعت صوتك بذكر الحق وأنت في مجالس الذكر، فهل خوض هذه التجارب يحس المريد والسالك حقاً بأنه يمر بتجربة روحانية؟

نعم يا سيدي! ألم أقل لك أنه سراب في سراب يحسبه الناظر إليه حقيقة. إن للكلام قوة كبيرة، أما الصمت فهو أكثر قوة من الكلام. فالذين لا يجرحون بسيفه وحده فهم يستسلمون أمام الصمت، ذلك لأن كثيراً من الناس غير عالمين بالقوة الهائلة للسكوت وكذلك لا خبرة لهم بهذا. في المراقبة يبدو لهم فجأة أن الضوضاء الصناعية الذي كانوا يعيشون فيها حتى وقت قريب، قد رحلت عنهم فجأة. وفي عزلة حركية يبدو لهم أن وجودهم بدأ يذوب ويتحلل وهم الآن ذاهبون إلى نقطة الصفر. هذه التجربة يمر بها بعض الناس بسوء فهم لمشاهدة الحق.

في الأيام التي كنت مقيماً فيها بنيجيريا، كنت أذهب إلى مجلس الذكر لأهل الحق. وأقسم بالله العظيم إذ أقول لك عندما كان يمسك الواحد يد الآخر ويلفظ الجميع في صوت واحد «**الله هو، الله هو**» بلا توقف، فالقلب والعقل كانا يذهبان بعيداً بسبب حدوث الضوضاء. إنه لرياضة بدنية حيث إنه مع خروج صوت «**هو**» يخرج هواء كثير من الرئة، وفي هذه الحالة يصاب الدماغ بحالة تنويم، ونحن نظن أنها كيفية الحالة الأولية لرؤية الحق.

فهل سنحت لك الفرصة لذكر النفي والإثبات ذات الضربتين أو الثلاث ضربات؟

نعم يا سيدي! لدي بعض الطوائف النقشبندية توجد شهرة كبيرة لهذا النوع من الذكر. وهذا أيضاً نوع من الرياضة البدنية. وهذا يستلزم إخراج كمية كبيرة من الهواء من الرئتين أثناء ذكر النفي والإثبات، ثم يطلب نفساً عميقاً لملء الرئتين بالهواء. استمر الشيخ في حكايته الممتعة.

تذكرت نفس الطريقة لمشاهدة الحق، كان قد ذكرها لي دبلوماسي روسي، كان اسمه «**نيكولاي**». كان قد استقال بعدما غضب من سياسات الاتحاد السوفييتي سابقاً. حينما قابلته كان مقيماً في هولندا حيث كان يدير

منظمة لإقامة الأمن والأمان، وكان عضواً فاعلاً. بدأ يقول: «حينما كنت موظفاً في مدينة نيويورك، كنت أخرج للجري لمسافة (١٦) كيلومتراً كل صباح، وبعد جري (١٢) ميلاً كان يخف جسمي وكنت أبدأ في الشعور بأنني متصل بكل ذرة من ذرات هذا الكون، وكأن الإلهام أوشك أن ينزل علي. عرفت فيما بعد بأنه كان يحدث لي كل هذا بسبب الجري المستمر وتقليل الأوكسجين» وهكذا أكد الشيخ هذا الرأي بتجربته الشخصية.

إن الدراسات والتجارب التي جرت مؤخراً في نيوروساينس قد قامت بإخراج الهواء من بالون التصوف، والآن ليست هناك حاجة لرحلة الملأ الأعلى، وهي رياضة النفي والإثبات، ولا حاجة لإمساك العرف كي يصبح مثل الديك ويردد «**الله هو، الله هو**». وما عليك إلّا أن تأخذ حقنة الهيروين وقم بعد ذلك مباشرة برحلة السماوات والأرض بالعين الخفية، ولو زاد مستوى السيروتين في المخ فإنه في هذه الحالة سوف تزداد الثقة بالنفس لتصبح بلا حدود، وفي هذه الحالة ارفع مباشرة نعرة «**سلطاني ما أعظم شأني، ما في جبتي إلّا الله**»، وإن نزل المستوى ففي هذه الحالة تحسب نفسك حقيراً ذليلاً وعضوا من الفرقة الملومة على تقصيراتها. كأن الأدوية وضعت هذه التجارب الروحية على عتبة بابك إذ كان المريد والسالك يقضي من قبل عمراً مديدا في هذه التجارب الروحانية الصعبة والمعقدة.

كنت غارقاً في هذه الأفكار حتى ارتفع اللحن الساحر في سيارة «**مصطفى أوغلو**» هكذا:

يا من يراني في علاه ولا أراه   يا من يجير المستجير إذا دعاه

حمزة شكور.. يا له من صوت جميل لحمزة شكور. بدأ الشيخ كامل يتذكر أيامه القديمة. نعم اسمع صوت حمزة شكور واطرب مع صوته. والله حمزة شكور هذا لا نظير له. قالها مصطفى أوغلو مشيداً به.

يا من يجود على العباد بفضله جل القدير وجل ما صنعت يداه
يـا مـن لـه الآلاء فـي أكـوانـه وإذا سألنا العفو لم نسأل سواه
هبني رضاك فأنت أكرم واهب واغفر لعبدك يا عظيما في علاه

لقد سمعت السيد حمزة شكور لأول مرة في المغرب (مراكش)، وكان محاطاً بجمع غفير وكان قد جاء بطائفة كبيرة مكونة من الفتيان والفتيات الجميلات في أزياء شرقية خاصة للمطربين والمطربات. بدت هذه الفرقة من الوهلة الأولى وكأنها نزلت من السماء للتمجيد والتحميد. إلى هنا كان الأمر عادياً لكن عندما ارتفع صوت «**مدد يا رسول الله**» على ضرب الطبول وارتفعت نعرة «**شيئاً لله يا رسول الله**» بدأت أفكر مرة تلو الأخرى كيف نترك بهذه السهولة العقيدة الراسخة مسحورين بالموسيقى.

قال الشيخ متذكراً أيامه القديمة: «لغة الموسيقى لها تأثير كبير وفي أغلب الأوقات يذهب معها العقل والصواب. حتى يومنا هذا عندما تتصادم هذه الألحان بأذني فأبدأ في تذكر اللحظات السعيدة، اللحظات الغارقة في الكيف والجذب».

والحق أن مطرب الشرق عندما يثير العواطف الدينية بغلو فكره، يكون كل هذا جزءاً من العملية الداخلية المعقدة. يبدو أن لغة اللحن سرت في وجدان الإنسان وأصبحت كل شعرة من جسمه وتراً للموسيقى. هذه التجربة الداخلية للموسيقى الدينية حينما يشاهدها أهل الغرب يصيحون ويقسمون بالله أن هذه هي المطلوبة والبعض منهم يعتنقون الدين الإسلامي في التو واللحظة. وإن كان إيمانهم هذا على الإسلام أقل درجة وإيمانهم بالثقافة الإسلامية الشرقية أكثر بكثير.

يا أخي إن الصوت يحمل في طياته قوة كبيرة إن أراد أن يتحول إلى

صاعقة فله وإن أراد أن يتستر بالهدوء والسكينة على مزمار داوود فله ذلك. وضح الشيخ المزيد بهذه الكلمات.

لفظ «**كن**» أيضاً كان صوتاً ويقول المتصوفون بشأن هذه اللفظة لو عوملت اليوم أيضاً بجميع أبعادها ففي كل لحظة يمكن أن يتولد عالم جديد. أردت بهذا الكلام أن أعرف رأي الشيخ.

«إنني لا أفهم أن الأمر في الواقع هكذا ففي رأيي أن المتصوفين واقعون في مغالطة شديدة فهؤلاء المتأثرون بفوضى (هاو) و(هو) بل بسبب وقوعهم في سحره يحسبون أن كلمة كن أيضاً ذكر من أذكار ذات الضربتين أو الثلاث ضربات. الذي يرتب حالة السامع عليها أو تكون قادرة على سحر دماغه أو السيطرة عليه. غير أن الفرق بينهما شاسع وأساسي. فكلمة كن استعارة التخليق الحقيقية وأصوات نطقنا تولد حقيقة مصطنعة فهي تذهب إلى عالم منوم ونحسب للحظات أنها حقيقية» أوضح الشيخ مزيداً عن هذا الموضوع.

فهل أولئك الذين مولعون بالألحان والنغم أو الذين لديهم هواية الموسيقى والعزف على الأوتار وقرع الطبول أو الذين يحبون الشعر والشاعرية ذات المستوى الرفيع. فهل كل هؤلاء واقعون تحت سحر الكلمات.

نعم يا سيدي إلى حد كبير الأمر كذلك، وهذا هو رأيي أيضاً. قاله مصطفى أوغلو ناظراً إلينا بطرف عينه وهو يقود السيارة. خذني على سبيل المثال فإنني على دراية جيدة بإسراب الفكر الصوفي، وعلى الرغم من أنني أملك ذخيرة كبيرة من الألحان والنغمات الصوفية المختلفة. وإن كنت لا أجيد اللغة العربية كذلك عندما أسمع أمثال «**حمزة شكور**» و«**الشيخ حبوش**»، فأوتار القلب تبدأ في الغناء. هذه الكلمات تكون قاتلة جداً ولو وقع أحد في عالم سحر الأصوات وشبكتها فلن يكون أمر الخروج

منها هينا. الشيخ كامل ظل مسحوراً بالأصوات لمدة طويلة ومصطفى أوغلو مع تحليلاته الذكية ما زال محباً لهذه الأصوات. إنه أخذ حقنة الهيروين على لغة اللحن ثم تاب لكن لذة الذكريات القديمة تطربه أحياناً وتنشط روحه على قول غالب: «**أشرب ليل نهار في ضوء القمر**».

لو نظرنا نظرة تأمل لعرفنا أن سحر هذه الأصوات يحيط الأمة بأسرها فإن كانت محافل المتصوفين مستمرة بالأصوات الطربية و«**هاو**» و«**هو**» فأهل التشيع، كل شؤونهم قائمة على مناقب الحسين والنوح والمراثي، يلهبون عواطف الناس بها. بل الحق هو أنه لو لم تكن هناك الشاعرية الدينية والموسيقى الدينية المختلفة لتوقفت التجارة الروحية لمختلف الفرق فجأة. تأمل قليلاً لو لم يكن هناك ابتهالات (قوالي) بمناسبة المولد لتوقفت سلسلة أحوال الوجد والكيف أو لم يكن هناك النوح والمناقب في مناسبات عاشوراء والأربعينيات ولو لم يقم الخطباء والشعراء بإحياء هذه المناسبات وسحر الناس في مجالس الذكر لفقدت كل هذه المخيمات والسرادقات سحرها.

السيد جول محمد الذي كان يسمع كلامنا دون إكتراث منه تارة وتارة أخرى كان يبدي اهتمامه، كذلك كان يبدو في وقت آخر كأنه في رحلة رومانسية للقطار في تصوراته وعيناه المغمضتان لكن الآن غير أسلوبه وبدأ يتداخل ويقول: هناك شيء آخر بالإضافة إلى الصوت والموسيقى يعطل حواسنا في المجالس الصوفية ومحافل السماع، وأيضاً مجالس النوح والعزاء، وهو البيئة الإعجازية المنومة الممتزجة باللون واللحن. في ألمانيا كثيراً ما تأتي جماعات المتصوفين والمغنيين للفرقة المولوية، بل بدأ هؤلاء بالذهاب إلى باريس ولندن والولايات المتحدة الأمريكية حيث ينالون قبولاً ورواجاً على درجة كبيرة. وتصدر كتب لأشعار مولانا الرومي باستمرار. أخبرني ناشر من ميونيخ: «أن هذه الكتب لا يتم طباعتها

بكمية ألف وعشرة آلاف نسخة بل كتاب كهذا يصدر في الولايات المتحدة الأمريكية مائتين وخمسين ألف نسخة». ربما سبب من أسباب انتشار كتب الرومي هو عندما يحيط المطرب بلحنه هالة من اللون والنور، ففي تلك الأثناء يتكاتف السحاب على الحفل من الزوايا المظلمة، ثم تنورة الراقص التي تقوم بتغطية الحفل بنوع من الوجد، والناس الذين لا معرفة لهم بالشعر والنغم فهم أيضاً يصابون بهذا المنظر الغامز وهذا لا يقل عن أي منوم.

فهل كل هذا الذي نحسبه من موسيقى دينية، ورقص، وسماع كلها فنون جميلة. أردت التوضيح من السيد جول محمد.

تسلسل الكلام هذا كان من الممكن أن يستمر لمزيد من الوقت، لكن الطريق أمامنا كان مسدودا، فسيارتنا كانت تتقدم ببطء شديد حتى وصلت إلى حالة الصمت. كان عن شمالنا منظر الأمواج العالية المترامية لمضيق باسفور وفي الجانب الآخر كان يظهر مبني الفندق الذي أقيم فيه. فكرت لم لا أعبر الشارع سيراً على الأقدام بدلاً من تضييع الوقت في هذا المرور الخانق والمكدس، فالفندق على بعد أمتار من الشارع العلوي ولهذا ودعت الضيوف هنا واستأذنت مضيفي مصطفى أوغلو.

هذه هي المرة الأولى التي اجرب فيها زحمة المرور في مدينة إسطنبول، لكنني لم أستغرب مطلقا، ففي المدن الكبيرة حيث تمضي الحياة مثل البرق إنه لشيء عادي أن يضيع الوقت في انتظار فتح المرور. نعم إن المدن التي تتجاوب مع متطلبات الحياة المتغيرة أو تبني الكباري والجسور العالية فعندها لا يحس الإنسان فيها بالزحام الشديد وإن أحس فيكون هذا الإحساس لفترة وجيزة.

مثل الشوارع العامة لو لم يتم بناء الطرق الجديدة على شارع عتيق، لتتعرضت حياة الإنسان لنوع من الجمود. هذا هو حال دنيا الفكر والتأمل

حيث تكون الحاجة ماسة لبناء الشوارع الحديثة والكباري والجسور الجديدة. لو نظرنا نظرة تأمل بصدق لقيادة الأتراك للأمة الإسلامية والتي امتدت زهاء خمسمائة عام، لأحسسنا بوضوح أن بناء الطرق الفكرية وإقامة شوارع متبادلة كانت قليلة جداً. فكانت النتيجة أن شوارعنا الفكرية بدلاً من أن تخضع للتحديث والتجديد، بدأت تتعرض للجمود. وعندما يتعرض المجتمع الإنساني لمثل هذه الظروف تبدأ أسس الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية تهتز. ثم إن السير على مثل هذه الشوارع والإصرار على عدم تركها، تجعلنا نتعرض للالتباس الفكري بكل تأكيد لأننا سائرون إلى المنزل ووجهة سيارتنا صحيحة لكننا وقعنا في زحمة المرور.

١٠

يا رب البهاء

استيقظت في الساعات الأولى من الصباح بشكل غير معتاد. فكنت أرغب في أن أصلي صلاة الفجر في جامع مسجد السلطان أحمد لكن الساعة كانت الثانية صباحاً. رأيت المنظر الخارجي. صفوف الأضواء على ضفة النهر بدأت تنطفئ، لكن آثار الضوء الصناعي، القريبة من ساحل البحر كانت تعطي الإحساس بالصبح الكاذب. الجو كان ملبداً بالأسرار، والطبيعة بكل أسرارها كانت وكأنها تقوم بدور الفتاة التي لا تختفي ولا تظهر وتؤدي دور الدلع والغمز ففكرت لم لا أستمتع بهذا المنظر الخلاب. بمجرد أن انتهيت من شرب فنجان الشاي أديت ركعتين في نفس المكان لأنني كنت قد سمعت يا خواجة يتم التوزيع في زقاقك بالليل فقط.

ثم مشيت على شاطئ البحر للنزهة. إن مدينة إسطنبول مدينة كبيرة وكنت أري أن تعاقب الليل والنهار قليلاً ما يؤثر على أنشطتها؛ لأن عدداً من المدن الأوروبية الكبيرة تفتخر بأنها لا تنام، لكن في هذا الجزء من مدينة إسطنبول لم يكن المرور موجودا بالمرة ولكن على شاطئ البحر كان من الممكن أن تشاهد عدداً قليلاً من الناس الذين لم يناموا بعد أو أنهم من هواة الليل. ولا أدري هل هؤلاء جاءوا باحثين عن الطائر الأخضر أم الأسرار المهيبة جاءت بهم إلى هنا أم بعيداً عن هذه الأحاديث العميقة

قد يكون هؤلاء جاءوا هنا للنزهة مثلي. أيا كان الواقع لكن كان لدي شعور قوي أن أنسب وقت بشارة الطائر الأخضر هو هذا الوقت الذي نحن فيه فهذا الوقت هو الذي يجعل الإنسان يتخيل كأنه يرى الطائر الأخضر.

كتب «أورحان ياكموك» عن مدينة إسطنبول قائلاً: يبدو للإنسان أن جدرانها وبيئتها يغطيها نوع من الحزن. كذلك يبدو أن كل شيء حزين يوجد هنا. في غسق الليل أي قبل بزوغ الفجر وعلى ضفة مضيق باسفور، قارة آسيا تُشعر الإنسان بوجودها مع عظمتها التاريخية بل عظمة تخبطها ففي الضفة الأخرى لمضيق باسفور توجد الكنيسة البيزنطية التاريخية الملحقة بقصر الخلافة وفي نفس المكان وفي مواجهتها يتواجد جامع السلطان أحمد الثاني الذي يطلعنا بالأسرار والرموز على مختلف العصور والأزمنة. حيث يبدو التاريخ نائماً إلى حد ما في هذه الخلفية كلها، ولم لا فقد بذلت المساعي لمدة ثلاثة أرباع القرن لتنويمه عمدا. ففي كل لحظة يكون الخوف مسيطراً من أن يأتي أحد لرفع الآذان في أي منحني وذلك لإيقاظ هذه المدينة الغارقة في سبات عميق.

فهل هو قادم؟

على الأقل في غسق الليل هذا، المليء بالأسرار، حيث تنام المدينة كلها مغطاة برداء السكون ما عدا عدد قليل من الناس. ففي هذه الحالة والوقت الغير المناسبان إن حسبوا هؤلاء رجال الغيب، ويصبح الخوف مسيطراً لأنه من يدري متي وفي أي لحظة يأتي القادم، فلا عجب في هذا. كانت هذه صورة لقصر الخلافة على سطح البحر. إنني كلما رأيت من على أسطح قصر الخلافة الأمواج الزرقاء لمضيق باسفور ومن بعدها شاهدت الجزء الآسيوي، ازداد إحساسي وشعوري أكثر من ذي قبل أن مدينة إسطنبول لا يغطيها طبق من الحزن بل عليها ظل الدراوشة والفقراء

وآثارهم منتشرة من المساجد إلى الحدائق والأسواق والمنتجعات السياحية. في هذه المدينة يلحظ تزيين المقابر والاهتمام الزائد بها. حتى بعد وفاة أصحاب هذه القبور يُرى هؤلاء من السلاطين إلى الأولياء كأنهم واقفون لاستقبال الزائرين فاتحين أذرعهم حسب المراتب والمناصب والقلنسوات. جعلت هذه الحالة الغريبة أهل المدينة مرتبطين ذهنياً بهذه المقابر الموحشة، بدلاً من أن يكونوا مرتبطين بالحياة والحيوية. لا شك في هذا أن الغفلة عن الموت للمؤمن سم قاتل لكن ذكر الموت شيء والاحتفال بالموتى شيء آخر. ثم هذا الاحتفال حينما يتحول إلى احتفال الزواج ويقال له العرس (المولد) ففي هذه الحالة ولإظهار الحقيقة يكفي البحث عن هذه المصطلحات الغريبة ومعرفة وجه تسميتها ففيها دروس وعبر لأولي الأبصار.

كلما بدأ الصبح ينقشع بدأ الجمال الطبيعي في الازدياد بل يمكنك أن تقول أن سحره يزداد بشكل غير عادي. لو جلست على منضدة من مناضد أهل المشي في الصباح الباكر ونظرت إلى الآفاق البعيدة فيبدو لك أن ورقة تلو الأخرى من أوراق السر تتفتح كل لحظة وتظهر دنيا جديدة للحيرة والدهشة. والآن لا أجد في نفسي قدرة على مزيد من الجلوس، كل لحظة هي لحظة تجليات جديدة ويبدو أن كل شعرة مني في مواجهة هذا التجلي وليست لدي قدرة لمواجهته، وكذلك لا مجال للهروب والابتعاد عنها مطلقاً. لي صداقة قديمة مع البحار والمحيطات. إحداهما مع شاطئ المحيط الهندي والأخرى مع البحر الأحمر وفي مرات عديدة ظلت هوايتي النظر على مهابة وسعة البحار المليئة بالأسرار من على شواطئ المدن الأوروبية والأمريكية وجاوة وسومطرة. إن البوستر (اللوحة) المباع في الأسواق والذي يكون مكتوباً عليه: «**يا رب محيطك عظيم لهذا القدر وسفينتي صغيرة لهذا الحد**»، هذه الكلمة قد تعلقت بعقلي منذ الطفولة ولم يتم إزالتها إلى الآن. لكن التجربة التي مررت بها في

فنلندا بجزيرة «**ماري هام**» للطبيعة ناديت ببديهية الله (ﷻ). لم يحدث لي مثل هذا الأمر من قبل ولا من بعد. كانت الساعة ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة مساء وكان مقر إقامتي على مسافة اثنين ونصف أو ثلاث كيلومترات من برلمان «**أولاند إيرلندا**». فكرت أن الجو لطيف والمزاج متأهب وعلى إستعداد، فلم لا أذهب إلى مقر إقامتي سيراً على الأقدام. بهذه النية اتجهت للمشي على الكورنيش والآن بعدما وقعت عيني على الطبيعة الساحرة، بعيداً عن المناقشات العلمية والفكرية، لم أصدق عيناي بأن الله (ﷻ) قد جعل هذه الدنيا بهذا القدر من الجمال الآسر للقلوب والألباب.

كانت الشمس تبث أشعتها بكل ما أوتيت من قوة وكانت غطت بل ألبست على حد قول الشاعر الأشجار والخضرة وسطح الماء الأزرق، العباءة الذهبية. وعلى الجانب الآخر ولمسافة كبيرة جداً توجد سلسلة أشجار (آر كي بليجو). كانت توفر مع الماء الجاري مزيداً من الإمكانيات لحياة سعيدة جداً. فقدت للحظات توازني، مرة أسبح الله وأحمده ومرة أقفز على ارتفاع قدمين ومرة ثالثة أبكي من شدة حظي السعيد. مسافة اثنين ونصف أو ثلاث كيلومترات هذه تحولت بالنسبة لي عملية اكتشاف علاقة غير محسوسة بين الله والعبد والكون. ربما بمثل هذه التجربة للعالم اللامحسوس كان قد مر مولانا الرومي حينما سمع صوت مطرقة الصائغ وكان يردد مع كل ضربة (إلّا الله، إلّا الله). يقال إن الرومي بسماع هذه الضربات الشديدة فقد صوابه. مع كل مطرقة كان يحس حالة وجد جديد. اتضح له لأول مرة معنى كلمة لا إله إلّا الله. بدأ بتقلب مضطرباً مثل الديك المذبوح.

هذه التجربة للرومي كانت سبباً لتأسيس هيئة مستقلة للسماع لمريديه فيما بعد. لو لم يكن الرومي قد اضطرب وفقد صوابه بعد سماع صوت

المطرقة، لما وجدت محافل السماع هذه، التي أنتجت الأشكال المختلفة للشعر الديني والرقص الصوفي والابتهالات الدعائية والقوالي في شبه القارة الهندية الباكستانية وقرع الطبول، ربما لم تكن لتجد قبولاً ورواجاً بهذه القوة إلّا في السند. مثل تجربتي لفقدان الوعي، كان رقص الديك المذبوح للرومي تجربة شخصية محضة. والناس الذين يسعون لإعادة هذا العمل، أو الذين يقلدون هذه التجربة الذاتية للرقص والسماع أو يقيمون لها مؤسسات فلا يمكن لهؤلاء الحصول على كيفية الحظ والسرور.

ظللت أؤدي صلاة الفجر بوضوء العشاء طوال أيام إقامتي في جزيرة «**ماري هام**». لا أدري هل كان هذا بتأثير أحد من أهل القلوب أم كان سببه هو الجهل بالجغرافيا. في أول يوم ذهلت واندهشت فالوقت كان وقت منتصف الليل وكان قد تولد شعور بغسق الليل وإقبال ظلمته. ولم تكن قد مرّت ساعة أو ساعة ونصف حتى بدأ ظهور بياض الفجر. كنت قد قرأت في كتب الملفوظات والحكايات عن مختلف الشيوخ، على أنهم صلوا صلاة الفجر بوضوء العشاء زهاء أربعين سنة إلّا يوماً واحداً إذ نقض وضوؤهم وذهبت ريادتهم هباء. والآن بعد أن أدى هذا العبد الفقير بوضوء صلاة العشاء، صلاة الفجر بهذه السهولة، بل يمكنك أن تقول براحة جسمانية، فكرت يا ليت لو كان قد تيسر لهؤلاء الشيوخ الإقامة بهذه الجزيرة لما فشلوا في تسجيل الرقم القياسي وهو مدة أربعين عاماً. وما عانوا كل هذه المعاناة في الوصول إلى هذه الدرجة من القداسة والعظمة.

ذات يوم كنت جالساً أفكر في موضوع صلاة الجمعة. المهتمون بهذا الأمر كانوا قد خلقوا فينا الأمل قائلين أن هذه الجزيرة يعيش فيها عدد من المسلمين وهم سيأتون لمقابلتك. في هذه الأثناء جاءت فتاة باكستانية بعد الظهر وذلك لإبلاغنا أن اليوم سيقام في بيتها حفل عشاء لتكريمنا، وعدد

من أهل الجزيرة الموقرين وبصفة خاصة الشيوخ والعمداء الدينيون مدعوون في هذه الحفل. وقبل ذلك كانت قد جاءت طائفة بهائية من أصل إيراني وأخبرتنا أن مسلماً واحداً من أصل باكستاني تعيش أسرته فقط في هذه الجزيرة. ولكن هناك طائفة صغيرة لنا نحن البهائيون كُتب عليهم الصلاة فرادي، إذا لا معنى لإقامة صلاة الجمعة.

إن البهائيين الذين يؤمنون بالتوراة والإنجيل مع الإيمان بالقرآن المجيد فإنهم إن كانوا لا يسمون أنفسهم الآن بالمسلمين فهم ليسوا بغافلين أن علاقتهم كانت في يوم من الأيام بأتباع محمد (ﷺ). لكن بسبب بعض الالتباسات الفكرية وبشيء من الإجبار السياسي اضطر هؤلاء أولاً أن يتركوا هويتهم الإسلامية وكثير منهم أجبروا لترك الوطن. وفي وسط القرن التاسع عشر أعلن السيد ميرزا على كونه بابا. كان إدعاؤه أنه المسيح أو المهدي الذي يستطيع أن يقود السفينة الغارقة للأمة إلى بر الأمان في هذه الظروف العاتية. وفي حالة الحزن والاضطراب ازداد عدد الذين لبوا دعوته، ثم لحسن حظ الحركة أنها حصلت على خطيبة حسناء مفوهة مثل قرّة العين التي خلقت حالة حماسية بسحر خطبها. أما على شيرازي فقد تم دحر تمرده بقوة البندقية وقُتل. ولكن لم يكن قد طرأ هناك أي تغيير في الظروف وكانت الحاجة ماسة لظهور المهدي. أما بهاء الله فقد قدم نفسه نتيجة لتنبؤات البابا واكتشف في السجن الانفرادي أنه ليس مهدياً فقط بل هو رسول كامل. يحدثه الله سبحانه وتعالى. وسمي مجموعة الهاماته بالكتاب الأقدس وطبع لأول مرة في مدينة مومباي عام ١٨٩٠م.

كان اسمها «**طاهرة**» وكانت مرشدة لهذه الطائفة. الطائفة كانت مكونة من ست أو سبع أخوات بهائيات. كانت هناك طاهرة التي اشتهرت باسم قرّة العين وبسبب جمالها الأخاذ وخطبها النارية وكذلك

موهبتها وقدرتها على الزعامة، ظلت صداعا مريراً لأصحاب السلطة والحكام. وقد تولت أيضاً مسؤولية القيادة الفكرية في جزيرة «**ماري هام**» لبنات طاهرة الروحية.

بدأت تقول: نحن في هذه الجزيرة بعيدين عن الوطن نقضي حياة المهاجرين مثل مهاجري الحبشة. ضاقت حياتنا في إيران ولكن هنا فتتوفر حرية التبليغ والتعليم أما الشيء الذي ينقصنا فهو أننا لا نجد آذاناً صاغية تليق بهذه الرسالة.

فهل تعتقدين حقاً أن الوحي كان يأتي إلى بهاء أثناء سجنه الانفرادي في منطقة «**سياه تشال**»؟ أردت إثارتها بهذا السؤال.

قالت: ما الريب في هذا. الأب كان قد تنبأ بهذا من قبل بكثير. كان يعلم الأب بأنه أرسل فقط لبشارته وتهيئة الظروف لقدومه. وهناك أحاديث كثيرة تنبئ بقدومه. نفس الأحاديث التي تؤمنون بها أنتم يا أهل السنة وأهل التشيع أنها أحاديث. إن السيد علي شيرازي كان من السادة الأشراف وكتبكم الدينية تشهد على تنبؤاته وبشاراته. إن الادعاء بكون الشخص مهدياً استمر من قبل وسيظل مستمراً في المستقبل ما دامت هذه الروايات التي لا أصل لها تشكل أصلاً دينياً. لكن ألا ترين أن الدنيا بقيت كما هي حتى بعد ظهور «**بهاء الله**» وحتى اليوم يرقب كثير من الناس طريق المهدي وينتظرونه والتاريخ لم يحكم في حقه على أن ادعائه للمهدية كان سليماً.

على اعتراضي هذا غيّرت طاهرة أسلوبها وقالت مبتسمة: لكن منذ متى نحن نؤمن بأنه مهدي ونحن نقول عنه أنه كان صاحب إلهام وقد أرسله الله لإقامة مجتمع عالمي وكتابه الأقدس تسلسل للقرآن المجيد، بل يمكنك أن تقول أنه طبعة حديثة للعهد الجديد.

لكن نحن المسلمين نعتقد اعتقاداً جازماً أن سلسلة الوحي السماوي قد وصلت إلى نهايتها. حتى أولئك الذين ادعوا المهدية في الأمة لم يتجرءوا إتيان الكتاب الأقدس معهم. قلت هذا الكلام توضيحاً لموقفي.

«**لا، بل إننا نعتقد أنه قد وقع ظلم كبير علينا في هذا الشأن**» بدأ صوت طاهرة يرتفع إلى حد ما. قالت أن الذين يدعون أنهم محدثون وملهمون فتاريخكم أيها المسلمون مليء بهم. كم هو عجيب هذا الأمر، أن بهاء الله إن ذكر هذا الإلهام وطبعه في شكل كتاب فيصدر الحكم فوراً بضرب عنقه، ويجبر على ترك الدين والوطن معا. أما ابن عربي وعبد القادر الجيلاني وشاه ولي الله الدهلوي يأتون الدلائل والشواهد بإلهامهم أو يرددون في كل حديث ألهمنا ربنا، فيقال لهم أنهم أصحاب الكشف، حتى معارضوهم يشيرون إليهم بالإنفرادات ثم يتقدمون إلى الأمام. لك اعتراض شديد على الكتاب الأقدس لبهاء الله، لكن لماذا لا تذكر الأحاديث الأربعة والستين التي يخاطب الله فيها عبد القادر الجيلاني «**يا غوث الأعظم**». هذه الآيات المنزلة على عبد القادر والتي تبدأ بقول الله تعالى: «**يا غوث الأعظم**». ألا تبدو لكم هذه ضد ختم النبوة؟ إن الله نفسه يقول لأحد من العباد «**يا غوث**» فماذا بقي بعد ذلك؟ لكن علماؤكم الثقات يتأولون هذه الهفوات بأن الله تعالى يرى ذاته في ذات الغوث الأعظم وهو يرى نفسه في مرآة الغوث فبهذا هو يعظم نفسه بنفسه. إن الأمر لمحير ومدهش ولكن توحيدكم لا يمس بسوء أبدا بمثل هذه الأمور. جمهور علماء الإسلام يلقبونه بألقاب الغوث الرباني والقطب السمداني ومحبوب الرحمن وموصوف بصفات الله تعالى وقطب الأقطاب ومظهر ذات السلطان والغوث الأعظم ومحيي الملة والدين. نفس الجريمة لو وقعت من بهاء الله فيضيقون عليه الحياة بل تسلب منه الهوية الوطنية والدينية.

أسلوب طاهرة كان قد زاد حدة، رفعت عينيها إلى السماء وأخذت نفساً طويلاً وقالت: «يا بابا يا بهاء الله يا رب البهاء كن شاهدا في محبتك، وفي طلبك اضطرت هذه الأمة لترك الوطن. تركن الديار وافترقت وتفككت الأسرة». هنا دمعت عيناها وحاولت الحفاظ على ثباتها ثم فجأة غلب على احتجاجها أسلوب الغيظ والغضب.

كم أنتم غير مؤتمنين. ماذا قال البابا وبهاء الله الذي لم يقلها السابقون. لم يكن البابا أول من ادعى المهدية ولم يكن بهاء الله أول من ادعى الإلهام في التاريخ الإسلامي. من ابن العربي إلى مولانا الرومي ومن عبد القادر الجيلاني إلى أحمد السرهندي وشاه ولي الله الدهلوي وعدد كبير من علماء الثقات ظلوا يدعون مشاهدة الحق والكشف والإلهام. ثم قل لي أي مقياس للعدل هذا أن يقال لابن العربي الشيخ الأكبر ويلقب عبد القادر الجيلاني بالغوث الأعظم ويعتبر شاه ولي الله سنداً لرسوخ العقيدة. أما بهاء الله فيتم تضييق الخناق على أتباعه. بكل تأكيد إنك لا تعلم معنى الغربة ومعنى البعد عن الوطن. مرة أخرى اغرورقت عينا طاهرة مع هذه الكلمة بالدموع. حافظت على ثباتها، ولعلها شعرت بأنها تحدثت أمام ضيف وافد أكثر مما كان ينبغي أن تتحدث به. اعتذرت لهذا الكلام الصريح الطويل وبدأت تقول: «ما كان لي أن أقول كل هذا الكلام. سامحني إنني لم أستطع أن أمنع نفسي من إبداء الحقيقة أمام صاحب علم. إنه ألم داخلي خرج بلا مقدمات».

طاهرة قامت بإفراغ آلامها وشجونها القلبية وانطلقت. وأنا ظللت أفكر أن الأسطورة كم تكون قوية. لا أدري كم من الناس معرضون لأفكار على نهج الأساطير المحملة بفكرة هجرة الحبشة ومنتظرين في أنحاء مختلفة من العالم أن تتغير الظروف. من حركة كيسانية إلى يومنا هذا هناك منحنيات مختلفة للتاريخ الإسلامي فلا ندري كم من المهديين

جاءوا لتصحيح الأحوال والظروف. وكل مهدي عرض أتباعه لمحنة جديدة، بل قام بتأسيس فرقة جديدة لتحارب للأبد. انظر إلى الآفاق البعيدة يظهر جلياً أن الخلافة العباسية والفاطمية قامت على روايات الفضائل والمناقب ولم يكن أساسها في الواقع أكثر من أسطورة. وفيما بعد جاءت إلى حيز الوجود فرق مختلفة سواء كانت درزية أو علوية أو نصيرية أو بهائية أو قاديانية، والفرق التي نعدها من أهل القبلة أو لا نعدها فالواقع أنها بمثابة رواسب هذه الأساطير. البعض يقول إن الاستخدام المؤثر للأسطورة يجعلنا ناجحين في طرفة عين كما حدث على يدي المهدي السوداني الهزيمة النكراء للمحافظ الإنجليزي الجنرال جوردن، لكن الاحتساب بهذا الشكل احتساب جزئي فعلى الرغم من القبول العام القوي والفتوحات العسكرية لم تستطع حكومة المهدي السوداني البقاء لفترة طويلة. الأسطورة في الواقع تكون في حاجة إلى معجزة لما فوق البشرية وعندما لا تأتي المعجزات المتوقعة من الناس العاديين أصحاب اللحم والشحم فبسرعة يبدأ انتشار الضبابية اليائسة. في أذهان عامة الناس، ويزداد الجوع للمعجزات. افترض أن الجني حبيس الزجاجة عندما يتحرر مرة فالسيطرة عليه أو استخدامه باستمرار لا يصبح مستحيلاً.

١١

سفينة النجاة



السلطان محمد الفاتح.

إن منطقة السلطان محمد الفاتح في مدينة إسطنبول لا تكشف عن ستار أسرارها وطلاسمها بسرعة. يفد إلى هنا الكثير من الناس باحثين عن سرتلك الأسرار والطلاسم عند شيخ حي يرزق صاحب الكرامات، وهؤلاء هم الذين لا يتأثرون كثيراً بمحافل الرقص والسماع. عليك أن تأتي من البوابة الشمالية لسوق الأربعاء وانطلق نحو مسجد إسماعيل آغا. تشعر هنا فجأة أن تناغم وجوه الناس مع ملابسهم وبدأ يتغير. القلنسوات شبه العمامة المستديرة واللحي والملابس الفضفاضة والسبح التي لا تكف

الأيدي عن إستخدامها أثناء السير في الشوارع. فلن يكون هناك أدنى شك أن قريباً من هنا يوجد مركز للدعوة والتبليغ أو الدرس والإرشاد. يحتل مسجد آغا إسماعيل كمركز للمتصوفين نفس المكانة التي يحتلها مسجد فيللاً كمركز للحركة الصوفية الإيمانية للشيخ إلياس في نظام الدين بدلهي. نفس الازدحام للزائرين والخارجين منه أكثر عدداً من الوافدين لكن زخم الحركة لا تتوقف. إن جو هذا المسجد (التركي) مختلف تماماً عن المساجد الشهيرة الأخرى لمدينة إسطنبول. إنك تجد هنا من هو مشغول في الذكر وهو صامت ومن هو في المراقبة والمجاهدة لأنها تحتل لديه الأولوية، وهناك أناس في جماعات صغيرة يتبادلون الحديث فيما بينهم دون تصنع أو كلفة. يبدو أن إحساساً عاماً يلقي بظلاله على المسجد، وهناك أناس واقفون وعلى أتم الاستعداد لتوفير المعلومات الضرورية لمن جاءوا من أماكن بعيدة ويحتاجون لتوجيهات تيسر لهم شؤون إقامتهم هنا.

كان لدينا متسع من الوقت قبل أن يحين موعد صلاة العصر، ففكرت لم لا أستعلم عن الشيخ محمود. سألت شاباً ذا قلنسوة خضراء إذا ما كان يعرف الشيخ محمود أفندي. وبمجرد سماع اسم الشيخ انفرجت أساريره بالبشر والسرور، إذن حضرتك تريد مقابلة الشيخ محمود. من أين جئت؟

★ من الهند

★ هندووستان! قام بمد الواو لفترة ثم نظر إليّ متسائلاً، وقال: إن الشيخ قليلاً ما يأتي هنا بسبب تدهور صحته فهو في هذه الأيام يقضي معظم أوقاته في سكنه الذي يقع في الجزء الآسيوي بمدينة إسطنبول. ولكن إن كانت هناك نية للإقامة لمدة أسبوع أو عشرة أيام فمن المحتمل أن تنال فرصة للحصول على تبريكاته. في هذه الأيام كثيراً ما يرجع الناس من غير أن يتمكنوا من مصافحة الشيخ. فإن

أردت مني أي مساعدة فلا تتردد إنني مريد متواضع للشيخ، وعلى كل حال أعذرني وإن لم يكن هناك أي حرج فأرجو أن تخبرني هل حضرتك أيضاً نقشبندي وهل سبق لك وأن التقيت بالشيخ أم هذه أول رحلة لك لمدينة إسطنبول؟

حاولت المماطلة في الإجابة على هذا السؤال وبالاستفسار منه على ما هي الطريقة المثلي لنيل بركة الشيخ؟

بدأ يقول: «في المجالس والمحافل العامة مصاحبة الشيخ ليست أمراً صعباً لكن إن لم يكن هناك رغبة وقناعة قلبية وعقلية فالأمر لا يستقر بمجالسته بضع مرات. قلوبنا رانت بالمادية ولا بد من إزالتها تماماً وإلّا فالصبغة الروحية لن تكون قوية. كثير من الناس يأتون إلى هنا ويذهبون كما يأتون، أما الفائدة الأصلية فينالها أولئك الذين يقضون فترات طويلة في هذا الطريق. إن عمل الشيخ هو إزالة الأدران التي علقت بقلوبنا وتطهيرها بالروحانية. لا نستطيع أن نصل إلى المدارج العليا للروح ما لم نخضع ونقتنع لإحداث التغيير في داخلنا. ونسلم قلوبنا وعقولنا إلى يد الشيخ، والبيعة على يد الشيخ معناها التفويض لهذا الأمر وهو أن يصبح ضامناً لآخرتك».

«**ضامن للآخرة؟ لم أفهم**» أردت بهذا السؤال إثارة الشاب الذي كان يسعى بكل نشاط وهمة أن يؤهلني مستعداً لمبايعة شيخه، معتقداً أنني زبون روحي جديد.

اندهش الشاب بأسلوبي الاعتراضي وبدأ يسترسل كلامه: معذرة، إن قصدي من ضامن للآخرة هو أن الشيخ مثل السفينة. إن الباحثين عن الروحية يسلكون مسالك شتى لكن ما إن وضعت يدك في يد الشيخ، فاعلم أنك صعدت على سفينة النجاة وفي هذه الحالة إن ظللت نائماً على المركب فرحلتك مستمراً. هذه هي فائدة المبايعة.

«فماذا يحدث لمن لم يبايعوا الشيخ وظلوا كما هم؟» سألته هذا السؤال بشيء من البراءة.

لعله لم يكن مستعداً لسماع هذا السؤال. بدأ يقول مثل هؤلاء لا يحصلون على معية الشيخ في الآخرة ولا ينالون أي مدد من شيوخ الطريقة الذهبية. أحسب أنهم لم يستطيعوا الصعود إلى سفينة النجاة.

«فهل في رأيك أن كل هؤلاء الذين لا ينتمون إلى الطريقة النقشبندية للشيخ محمود، فهم سيحرمون من رحمة الله يوم الآخرة؟» أردت أن أثيره أكثر فأكثر.

بلى، إنني لا أقول هذا. في هذا الشأن تستطيع أن تتحدث مع شيوخنا وكبارنا، لكني على يقين أن الفرقة النقشبدية هي الفرقة الناجية من اثنين وسبعين فرقة للمسلمين. لو تأملت السلسلة الذهبية لشيوخ الطريقة النقشبندية يصبح الأمر سهلا وميسوراً لك للاعتراف بهذه الحقيقة. لأن عددا كبيراً من الشيوخ أصحاب الكشف والكرامات شهدوا أن الرسول (ﷺ) أطلعهم بنفسه على حقانية الطريقة النقشبندية، وعلى هذا فهناك إجماع لعلماء الحق أن المهدي (عليه السلام) سيكون ظهوره في سلالة النقشبندية وسوف يجمع الناس على الطريقة النقشبندية وفي النهاية ينتصر الحق وتكون الغلبة في كل مكان للمسلمين النقشبنديين. هذا ما وضحه الشاب التركي.

وما رأيك في عودة المسيح؟ هل هو أيضاً يؤدي مسؤولياته تحت إمامة الشيخ النقشبندي؟ قبل أن يصطبغ حديثي بلون المناقشة الحقيقية توقف بسبب رفع صوت إقامة الصلاة. بعد أداء الصلاة جاء نفس الشاب إليّ مع شخص كهل. قال لي: سلم عليه فهو الشيخ حمود. تستطيع أن تستفسر منه عن كل ما تريد معرفته عن الشيخ محمود أفندي وسلالته الذهبية. وإن كان هناك صعوبات ذاتي أو تواجه أي مشكلة في سفرك

الروحي فتستطيع أن تستفسر منه أيضاً دون كلفة. وسأعد لك القهوة في هذه الأثناء.

إن قلنسوة الشيخ حمود شبه العمامة كانت مختلفة إلى حد ما عن قلنسوات عامة المريدين. كان مرتديا فوق البنطلون والقميص جبة طويلة باللون السماوي وكانت لحيته كثيفة كما كان يرتدي نظارة محدبة. هذه الهيئة كانت تشير إلى مرتبة رفيعة بسبب رزانته وسلوكه ورباطة جأشه في عالم التصوف. ضغط على يدي بكل حماس وظل ممسكاً بها لثوان وهو جالس ثم بدأ في إظهار سروره وسعادته على مجيئي من الهند وقال بلهجته التركية كلمة الهند كأن له علاقة قلبية بهذا الاسم. الهند أرض مجدد الألف الثاني. له مكانة كبيرة عند الله، أرسله الله مجدداً للألف الثاني. وفي السلالة الذهبية النقشبندية يحتل هذا المجدد مكانة عظيمة.

لكن هذه المكانة الدينية للشيخ أحمد السرهندي لا يوجد إجماع عليها، بل قليل من الناس اتفقوا عليها. هل المسلم غير النقشبندي ينظر إليه أيضاً نظرة تقدير واحترام ويكون مستحقا لهذه المكانة؟ سألته ببراءة طالب علم.

نعم، ولم لا. الدنيا بأسرها تقول عنه مجددا للألف الثاني من الميلادية. وهناك تنبؤات وبشارات في القرآن والسنة لقدومه، فهل هناك دليل أكبر من هذا في كونه مجدداً حقاً.

نعم، ماذا قلت؟ في القرآن والحديث؟ هل نزلت أية آية قرآنية في شأن حضرة المجدد؟ قال لي وكلامه يضاعف حيرتي ودهشتي: ليست آية أو آيتين بل هناك عشرات الآيات وكثير من الأحاديث النبوية.

فازدادت دهشتي على رده هذا وتوترت كما لم يحالفني الحظ ولم أدرك هذا الأمر، وكيف غابت عن عيني آيات القرآن المجيد هذه التي يشير إليها الشيخ. غير أسلوبه ونبرة صوته وحرك رقبته قليلاً ثم قرأ بعد الاستعاذة

والبسملة آية من القرآن الكريم مثل قراءة القراء العجم: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وقام بتدعيم دعواه بآية سورة الواقعة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ نظر إليّ بابتسامة المنتصر وقال: إنك بكل تأكيد لديك معرفة باللغة العربية، ثم علماء الهنود أذكياء يصلون بسرعة إلى لب الحقيقة. إن السيدين شاه عبد القادر وشاه عبد الحق، المحدث الدهلوي اعتبر السرهندي وخلفاءه من «**قليل من الآخرين**»، ثم الحديث المشهور للرسول (ﷺ): «إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» يطلعنا أيضاً على قدومه. وفي الروضة القيومة هناك حديث ورد بشأنه فقط: «يبعث رجل على أحد عشر مائة سنة، هو نور عظيم، اسمه على اسمي، بين السلطانين، ويدخل الجنة ألوفاً». الشيخ حمود بدأ يقدم نصاً وراء نص. أما أنا فبدأت أزداد اندهاشاً وقلقاً. شعرت أنه سيكون له باع طويل بكل تأكيد في حلبة اختلاف التأويل والشرح، فلما لا أسأله بعض الأسئلة الأصولية البدائية. سألته هل مفسروا القرآن الكريم الذين قالوا هذا يقصدون من «**قليل من الآخرين**» السيد أحمد السرهندي وطائفته، ألم يكونوا هم أنفسهم من النقشبنديين؟ من سؤالي هذا استاء الشيخ قليلاً ثم قال لي لا بأس، لكنهم كانوا على درجة عالية من العلم لا يمكن الوصول إليها. أصبح أسلوبه الآن دفاعياً.

إنني لا أتحدى أحداً. أريد أن أقول فقط لو أن نقشبندياً قرأ في تفسير القرآن الكريم تفسير شيخ النقشبنديين، فيكون هذا في الواقع مرآة لآرائه وتعصباته الشخصية. وشهادة فريق لا تكون حجة له.

كلامي هذا كان له وقعاً على طبعه الحساس لكنه لم يتخلى عنه كما أن الابتسامة لم تفارق شفتيه. غير أن أسلوب حديثه الآن كان قد تغير من تقديم الدلائل والشواهد إلى الترغيب والترهيب والنصح والإرشاد.

قال هذه أحاديث فيوض وبركات التأمل. هنا تتغير وتتبدل دنيا

القلوب. أما الأدلة العلمية، فلا يمكن إثبات وجود الله سبحانه وتعالى نفسه بها. فكما أن إدراك وجود الله تجربة الإنسان الذاتية كذلك الاتصال وإقامة الروابط مع الله أيضاً عمل أهل القلوب. لا يمكن إدراكه بدون التعامل معه والخوض فيه. هذا العمل لا يؤدي بعد الإدراك بل يؤدي أولاً ثم يأتي الفهم والإدراك.

الشيخ حمود أخرج من جعبته السهم الأخير، الذي يصوبه دائماً شيوخ الكشف والكرامات صوب تلاميذهم ويحقق نجاحاً باهراً وبذلك يتجنبوا تقديم الدلائل العقلية والعلمية.

ثم قال: «كلما تكون علاقة الإنسان بربه قوية، تتحول حياته الروحية بنفس القدر إلى السعادة الأبدية». نحن لا نفعل شيئاً سوى أننا نمهد الطريق أمام الناس، وبعد ذلك يقتصر كل هذا على مجاهدتهم واجتهادهم، والسرعة التي يقطعون بها المسافات ويصلون إلى أهدافهم. شيخنا حمود أفندي وشيخه الذي تصل سلالته إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، هؤلاء تحملوا كثيراً من المشاق ثم نالوا هذه الدرجة الكبيرة لدى الله سبحانه وتعالى. هنا فجأة تغير أسلوبه إلى شيء من الإرهاب، وقال هل تعرف من هو الشيخ محمود أفندي؟ لعلك لا تعرف مكانته وعظمته. مئات الآلاف من الناس يفدون إلى إسطنبول لإلقاء نظرة واحدة على الشيخ. أجداد شيخنا ظلوا يخدمون الإسلام طوال حياتهم فجده إسماعيل آغا الذي سمي هذا المسجد باسمه، وكان يحتل منصب شيخ الإسلام في عهد الخلافة العثمانية. مما لا شك فيه أنك قد سمعت عن شخصية العلاّمة زاهد الكوثري! نعم، الذي يقال له الغوث الثاني أيضاً. فضيلته كان آخر تلاميذه على هذه الأرض. من حسن حظنا أننا ما زلنا نعلوا بفيوض بركات الشيخ محمود.

مونولوج الشيخ حمود كان مستمراً حتى اعتذرت لقطع كلامه

ورأيت قبل أن ييأس الشيخ مني نهائياً، لم لا نسمع على لسانه بعض أسرار وطلاسم عالم التصوف.

قل لي: لو هناك وافد جديد ويريد الاستفاضة من فيوض وبركات هذه السلالة الذهبية، فماذا عليه أن يفعل أولاً؟

الأمر في غاية اليسر! مثلما يصبح شخص ما مسلماً على الفور بعد نطق كلمة الشهادة، كذلك بعد بيعة الشيخ يصبح الشخص في الفور جزءاً من السلالة الذهبية. بعد ذلك ينتهي عمل المريد ويبدأ عمل الشيخ. إن الشيخ يجلي ويصفى قلبه وحسب استطاعته يكلفه بالأوراد والأذكار. انظر إن الهدف الأول هو إقامة العلاقة مع الله لكن هذا الشيء لا يمكن بدون إقامة علاقة مع الرسول (ﷺ) ثم لإقامة العلاقة مع الرسول (ﷺ) ينبغي أن تكون علاقتك قوية مع الخلفاء الروحيين المعينين من جانبه. كأن محبة الشيخ هي محبة الله وطاعته. لو انتهجت مرة هذه العلاقة الوطيدة فمن المحتمل أيضاً أن تستخدمها مع الناس.

إنني مرتبط بالشيخ منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً. قمت بمسؤولية الإنابة عنه في أماكن مختلفة. إن الشيخ يعاملني معاملة خاصة. عندما أعيد النظر على حياتي السابقة فلساني ينطلق شاكراً لله سبحانه وتعالى على أنه وفقني للسير على سنة النبي (ﷺ). إنني لم أخطو خطوة واحدة إلى الخارج بدون وضوء منذ خمسة عشر عاماً، وقبل خمسة وعشرين عاماً عندما كنت قد دخلت في هذه السلسلة لم أرتدي الملابس الغربية قط. والبنطلون (السروال) لم يصل إلى الكعب كما أنك ترى في جيبي السواك على الدوام. كل هذا الالتزام بالسنن والتوفيق تستطيع أن تحسبه معجزة بيعة الشيخ. إنه غير حياتي.

إن الشيخ حمود عندما كان يتحدث عن هذه التفاصيل لحياته الشخصية كان قد غلبت عليه العاطفة. جرى على لسانه فجأة: أنزل

رحمتك على خواجات النقشبندية ووفقني لاتباع الشيخ محمود بكل حب وشوق.

شكرت الشيخ محمود وأردت الاستئذان لكن لم يكن ليتركني بهذه السهولة. كيف يمكن أن يأتي مسلم من الهند إلى إسماعيل آغا ولا يدخل في السلسلة النقشبندية. لا يمكن أن يحدث له هذا. بدأ يقول إن الله سبحانه وتعالى أتى بك هنا بتخطيط خاص. لا تدري أن الله يريد أن يستخدمك لأمر هام بعد غد ليلة الجمعة، والشيخ محمود بسبب مرضه لا يقابل الضيوف لكن في هذه الأيام قد جاء هنا وفد باكستاني للدعوة الإسلامية ومن المحتمل أن يسمح الشيخ لهذا الوفد الحضور إلى جنابه للحظات. لو أردت الاستفادة من هذه الفرصة فإنني على استعداد أن آخذك إلى الشيخ. هذه فرصة نادرة والشيخ مصباح السحر.

قلت له: إن لم يكن هناك وقت لإجراء الحديث والأمر مقتصر على تقبيل اليد فقد حصلت على هذه السعادة من خليفة معتبر مثلك. ولكن هذا الأسبوع سيكون لنا اجتماع آخر مع سماحتك. من يدري لعله يكون سبباً لفك عقدة من عقد القلب.

١٢

الحديث التليفوني مع الرسول (ﷺ)

إن الجانب الساحلي لجامع إسماعيل آغا، الذي يقال له في لغة السياح «**جولدن هارن**»، وباللغة المحلية يقال لهذا المكان شاطئ الخليج، أما بالنسبة لي فهي منطقة مألوفة. ربما سبب من أسباب هذه الألفة هو أن أيام الدراسة، حينما كانت لدي المقدرة على التفقد بسرعة كنت أستشعر بشدة في هذا الجزء من مدينة إسطنبول أن تاريخها في سبات عميق.

لو خرجت من مسجد محمد الفاتح الثاني لوجدت خلفه الأسواق والمقاهي التقليدية وتحسبها «**نزلا للمسافر**». وبعد الجلوس هنا تحس أن قافلة ما قد مرت من هذا المكان. كذلك تجد هنا «**الشوربة**» التي تقدم في الكؤوس الشرقية التقليدية ويشعرك مذاقها كأنها تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي، وبالطبع تتجدد ذكريات تلك الأيام القديمة حينما كانت علاقة الغذاء بالتذوق عميقة. كان الإنسان وقتئذ يتناول الطعام ويتلذذ بمذاقه ونتيجة لهذا كانت تخرج كلمات الشكر للمنعم من لسان الحال والقال في آن واحد بدون تصنع.

هنا في شواطئ الخليج تستطيع أن تصعد على المراكب الصغيرة وتتذوق سندوتشات الأسماك الطازجة وكذلك تتمتع أيضاً بشرب كوب

أو كوبين من عصير البرتقال الطازج، ثم تتفكر في الكون بعد أن أصبحت نشيطاً.

في بلاد الشرق وبصفة خاصة العالم الإسلامي حيثما تحل تجد إلى يومنا هذا الشعور بالسعادة بعد الأكل والشرب، وشائبة التكنولوجيا كلما قلت يكون الغذاء طبيعياً وتناوله يكون سبباً لإبداء الشكر للمنعم بدلاً من أن يكون تناول الطعام هذا عملاً ميكانيكياً. الموائد المفروشة على الأرض في بلاد الشرق حيث يجلس أفراد البيت حولها ويتناولون نعم الله معا بل يتقاسمون في جلسة الطعام هذه أفراح وأطراح الحياة أيضاً ويساهمون فيها كل على سعته. أما أهل الغرب فهم لا يدركون ولا يعرفون قدرها وقيمتها حيث يبدو المواطن الغربي بعد تناول البرجر والساندوتش كأن الله لم يمنحه النعمة بل ألقي إليه طعاماً خالياً من اللذة والمتعة.

لدى المرور من شارع محكمة توتنهام بمدينة لندن تشاهد ازدحاماً كبيراً على محلات الساندوتشات وهم يأخذون ساندويتشات أسماك التونة الموجودة منذ أيام في الثلاجات والتي كانت في انتظار الجوعي، فهذه الساندويتشات تستطيع أن تملأ بطون الجائعين، لكن لا يمكنها أن تجعلهم شاكرين لنعمة الله. محلات الوجبات الخفيفة والسريعة بسالزبوري والتي تقدم قطع الفواكه الباردة فهي تحرم الناس من المتع والسعادة التي يحصل عليها الشخص الذي يقطفها من على الشجرة، ووقتها يستشعر في داخله فطرياً أن هناك علاقة قوية بين الكون وخالقه.

رأيت لم لا أتناول العشاء الليلة في هذه المنطقة حيث ما زالت رائحة المذاق القديم باقية حتى الآن.

السيد مصطفى أوغلو كان عائداً لينضم إلينا فقررنا أن ننتظره في مقهي اسماعيل آغا هذا. تسمية هذا الرستوران بالمقهى في الواقع تهمة بحق؛ لأن رائحة الأطعمة المختلفة كانت أقوى من مذاق القهوة. في

زاوية هادئة كان التليفزيون مفتوحاً وموسيقى صوفية مبهجة كانت تملأ الجو بالنشوة والطرب. خارج المقهى وفي المكان الملحق به كانت الكراسي مفروشة ومزينة حول المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء. إن جو البهرجة كان في الخارج أكثر من الداخل. لم أكن قد قررت بعد على أي جانب سوف أجلس إذ سمعت أصوات عدد من الشباب وظهر لي أنهم يتحدثون لغتي الأم اللغة الأردية، فرفعت نظري إليهم بقدر من الحيرة والسعادة معاً. جاء واحد منهم إلى وبعد التحية قدم يده للمصافحة.

هل أنت مريد الشيخ محمود؟ أراد أن يعرف سبب قدومي هنا. ثم استطرد قائلاً: نحن جئنا هنا من كندا لزيارة الشيخ محمود. بدا لي من رؤيتك أنك من دولة باكستان.

ليس من باكستان بالضبط ولكن بكل تأكيد أنا من الهند جارة باكستان. وضحت له ذلك.

طلبنا مزيداً من القهوة التركية وسنحت لنا فرصة أخرى لفهم مشاهدات ورؤي الشباب والاستفادة منها. فهؤلاء يتحدثون اللغة التي أتحدثها وهم بعيدون عن الوطن.

في هذا الجزء من مدينة إسطنبول حيث يشاهد بكثرة القلنسوات واللحي ويوجد هنا جو من الثقة والأخوة. يقل الإحساس هنا بأن الحياة تسير بسرعة البرق فلا وقت لدى الآخر كي يتبادل معك الحديث؛ لأنه في عجلة من أمره. كلما تأتي هنا ولو بعد فترة، تشاهد هذا الجزء من إسطنبول بنفس اللون القديم ونفس التنسيق الموجود منذ زمن. هذه المنطقة في محيط سيطرة الشيخ محمود أفندي فدائرة حكومته الروحانية واسعة جداً. فكما يقصد من مولانا هو شخصية مولانا الرومي كذلك هنا يفهم من لقب حضرة السيد الشيخ محمود الذي يكن له عامة الناس كل احترام وتقدير، فبمجرد ما يأتي اسم حضرة الشيخ محمود أفندي على اللسان

تنفرج أسارير وجوه المريدين له وترتفع الأيدي إلى الصدور، بنفس طريقة أهل التشيع عندما يصلون ويسلمون على النبي محمد (ﷺ)، فترتفع أيديهم إلى الصدور ويهزون رؤوسهم إلى الأمام قليلاً.

في اعتقاد المريدين أن الشيخ له صلة بآل محمد (ﷺ)، وقصص كشفه وكراماته شائعة جداً هنا. يقال أن إحياء الدرس والإرشاد في مسجد إسماعيل آغا بسبب هذا الاعتقاد. فذات يوم ألهم بل يمكنك أن تقول جاء الأمر الإلهي وفي ضوئه قام الشيخ بترتيب وتنظيم جديد للسلالة المكسورة، وفي لحظات وصل عدد معتقديه إلى مئات الألوف. إنك مهما كنت على مسافة كبيرة من إسطنبول أو كنت في الشرق أو الغرب فاللفتة وإن كانت بسيطة من حضرة السيد، فهي كافية لنجدتك في التو واللحظة.

يقال: في الأسبوع الماضي علم مريدوه ومعتقدوه أن الشيخ يتمني أن يؤدي العمرة في آخر عمره هذا، فاستعد أربعون ألفاً من مريديه ليصحبوه في هذا السفر المبارك وتم تدبير طائرات شارتر. كذلك تم برنامج الحجوزات في جميع الفنادق القريبة من الحرم المكي. أنا لا أدري كم من الناس سافروا في الواقع لأداء العمرة في مصاحبة الشيخ، لكني رأيت بأم عيني في المدينة المنورة في الحرم المدني منظر الازدحام الشديد حول الشيخ. تجددت في الذهن ذكريات عن الاحترام الفائق والتوقيرغير العادي للعلماء والمشايخ الذي كان سائد في عهد السلاجقة كما قرأت عنه في الكتب.

تحكي هذه الكتب أن بعض كبار علماء السلاجقة عندما كانوا يخرجون من مقارهم فكان يصاحبهم جيش من العلماء بزي واحد. وفي خضم هذا الازدحام كانت تتهافت على الشيخ النذور والهدايا كأن السماء تمطر الدراهم والدنانير، وكان عامة الناس كالأنعام يتهافتون أيضاً على

الشيخ لتقبيل يديه بل كانوا يقعون على بعضهم البعض بسبب شدة الزحام على أمل أن يجدوا فرصة لتقبيل قدميه وإن لم يتمكنوا من ذلك اكتفوا بتقبيل أي جزء من ملابسه. بل أن بعض الناس كانوا يظنون أنهم سعداء لأنهم استطاعوا تقبيل ذيل حصان الشيخ.

في المدينة المنورة كان حول كرسي الشيخ المتحرك شبيهاً لهذه الفوضي الخلاقة. مئات من مريدي الشيخ بزي موحد وهو عبارة عن القلنسوة البيضاء مثل العمامة والجلباب الأبيض أيضاً كانوا يقدمون منظراً غير طبيعي لإظهار عظمته الروحية وتعظيمه بشكل فوق العادة. مثل هذه المناظر لا يمكن مشاهدتها حتى وقت قدوم الأمراء والحكماء. واليوم إذ إنا جالس بين مريدي ومعتقدي الشيخ يلح على هذا السؤال مرة تلو الأخرى. والآن بعدما رأيت هذه المجموعة من الشباب القادمين من كندا وهم من أصل باكستاني أصبح يلح هذا السؤال على الذهن أكثر من ذي قبل.

الجرعة الأولى للقهوة التركية تكون ثقيلة على شاربها لكن بالتدريج تتحول هذه المرارة إلى متعة. وبعد جرعة أو جرعتين عندما تغير الجد إلى جلسة عادية وبدون كلفة سألت السيد هاشم! منذ متى وأنت حاصل على شرف مريدي الشيخ؟

قبل أن يتفوه هاشم بشيء تدخل وليد - الذي يتراوح عمره بين العشرين والاثنين والعشرين عاماً والذي أظهر إلى الآن عدم الاهتمام بالموضوع - قائلاً: ما زال في مرحلة البحث عن الشيخ، ولو كنتم على معرفة بمثل هذا الشيخ الواصل الكامل فاخبرونا أفادكم الله.

لا تلتفت إلى حديثه فهو يجعل كل أمر مزاحاً، عرفني هاشم بكل جدية ورزانة بأسباب سفره قائلاً: إن الصديقين وليد وساجد وصديقاً ثالثاً لنا وهو عبد العزيز الذي ذهب إلى مدينة أنقرة لمقابلة قريب له فقد جئنا

من كندا لزيارة الشيخ محمود بصفة خاصة. كنا قد إنضممنا إلى الطريقة النقشبندية في كندا منذ سنتين تقريباً. بكل تأكيد أنت تعرف شيخ هشام كباني، فالشيخ هشام كباني نفسه خليفة للشيخ ناظم حقاني النقشبندي القبرصي. إنضممنا إليه وما زلنا متصلين به، ولكن مؤخراً حدثت بعض الأحداث التي كدرت صفونا، فالشيخ هشام تجاوز سلطاته وبدأ يأخذ البيعة لنفسه بدلاً من الشيخ ناظم. هذا الحادث جعل بعض رفقائه يقفون ضده. والآن بدأ تبادل التهم والرفض للكشف وكرامات الآخرين والادعاء الجديد للكشف والكرامات، فالأمر معقد وصعب جداً لأمثالنا إذ كيف لنا أن نعرف من هو صاحب الكشف الصادق ومن هو صاحب الكشف الكاذب. من الذي أعطاه الرسول (ﷺ) حق البيعة في الأصل. وفي الأيام الماضية كان قد أتى بعض الناس إلى مركزنا ومن خلالهم سمعنا وعلمنا عن الطاقة الروحية للشيخ محمود وعرفنا وقتئذ أن الدنيا ليست خالية من أهل الحق والصفاء. إننا هنا منذ أسبوع وننوي البقاء لمدة أربعين يوماً. فلقد وجدنا في مسجد إسماعيل آغا جواً روحانياً ونورانياً لكننا إلى الآن لم نتشرف بزيارة الشيخ محمود فكما سمعنا هو في هذه الأيام يمر بحالة مرضية.

إن السيد وليد الذي كان يسمع كلامنا تارة بعدم اهتمام، وتارة أخرى بإنصات بدأ يقول: لقد رأيتك وأنت تتحدث مع الشيخ محمود في المسجد. في الواقع هو رجل صالح. لديه معلومات كثيرة عن الدين. هل حضرتك مريد قديم للشيخ؟

لا، إنني أيضاً مسافر مثلك جئت بحثاً عن شيخ، قلت له هذا مبتسماً.

في هذه الأثناء جاء وانضم إلينا مصطفى أوغلو. وبدأ يقول: كلما خرجت في البحث عن شيخ بدا لي كأن الشيخ، صاحب الكشف

والكرامات موجود بين أظهرنا. ولا يحتاج الأمر إلّا أن تكتشفه فقط. شيوخ الخارج كلهم بدون استثناء شيوخ لكنهم خواء من الداخل. لو كان باطنهم مضيئاً لما قدموا أنفسهم لمنصب الشيخ ولا يأخذون البيعة ولا يجعلون أحداً مريداً لهم ولا استطاعوا أن يأمنوا لأحد، لتولي كل هذه الأمور لا بد أن يكون الإنسان كادحاً.

كلمات مصطفى أوغلو للشباب الباكستاني لم تكن أقل من قنبلة وخاصة عندما وقعت هذه الكلمات على هاشم كصاعقة، ولكن وليد وجد أن الفرصة سانحة له لإبداء شكوكه التي كان يخفيها حتى الآن على سبيل المروءة.

بدأ يقول: يا أخي مصطفى! هل تعرف الشيخ ناظم القبرصي؟ تتواجد مراكزه في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، وكذلك له مركز كبير في لندن، كان قد اشتراه له قبل سنين طويلة شيخ من بروناي. الشيخ ناظم يقول عن نفسه أنه من السلسلة الأربعين ويتصل نسبه بالرسول (ﷺ).

قبل بضع سنين عندما كان الشيخ خارجاً من البيت إذ حضر إليه فجأة رسول الله (ﷺ) بنفسه، فعيناه المفتوحتان لم تستطع تحمل هذا المنظر ووقع مغشياً على الأرض. تحدث الرسول (ﷺ) معه لمدة أربع أو خمس ساعات متواصلة وأطلعه أن الطريقة النقشبندية هي الفرقة الناجية وكذلك مستقبل المهدي سيظهر من هذه الطريقة نفسها. لهذا الحد ظللنا نؤمن بكشف وكرامات الشيخ لكن في الأيام الأخيرة حدثت واقعة غريبة وقناة الجزيرة التليفزيونية أيضاً قدمت تقريراً عنها. ادعى الشيخ أنه تحدث مع الرسول (ﷺ) على التليفون. هذا الكلام تسبب لنا نحن الشباب بالاختلاج الذهني وزد على هذا أنه حينما ظهرت الاختلافات والنزاعات الداخلية فيما بينهم انكسرت وتهشمت تماماً. وإن أردت الصدق فإنني لا أعتمد كثيراً بعد

الآن على القصص والحكايات. لكن صديقنا هاشم وكذلك ساجد اللذان يقولان أن أرض الله لم تخلوقط في أي وقت من الأوقات من أولياء الله ولا يمكن للدنيا أن تبقى دنيا بدون الولي. لذا فكرنا هذه المرة في الأجازة أن نتسكع في مدينة إسطنبول. إنني لا يمكن أن أقع في شباك الشيخ وأمثاله بعد اليوم، لكن لا بأس أن نلتقي بالشيخ محمود ولو لمرة واحدة. الناس هنا يحسنون الظن به ويحملون له كل الود والاحترام ومريدوه معظمهم عاملون بالكتاب والسنة. كثير منهم أصحاب لحى ويلبسون البنطلون فوق الكعبين واستخدام السواك منتشر بينهم. أما السيدات فيجلسن في مكان منفصل وهن بالبرقع بعيداً عن الرجال. كذلك المصافحة لغير المحرم غير منتشرة بالمرة. إلى هذا الحد الأمر حسن وطيب لكننا ننتظر ما يأتي فيما بعد.

إنك تأخذ كل أمر بالشك والريبة وهذا السلوك غير صائب. قالها هاشم محذرا. أهل الله الصادقين عن طريق كشفهم يتعرضون لشكوك الناس والذين قلوبهم بها شك دائم، فالشيخ لا يلتفت إليهم وهذا مبدأ أصيل لأهل القلوب. ما دام المريد غير مخلص في طلبه فالشيخ لا ينظر إليه بعناية. وعلى أرض الشك لا ينمو نبات اليقين. إذا كنت تريد أن يلتفت إليك الشيخ باهتمام فيجب عليك في هذه الحالة أن تطهر قلبك من الوساوس الشيطانية هذه.

لكن هنا لا بد من المعرفة إن كان الحق مع الطريقة النقشبندية أم لا، وإن لم تكن فما هي تلك الطريقة، أهي طريقة الشيخ ناظم القبرصي أم طريقة حضرة الشيخ محمود أفندي؟ حاول مصطفى أوغلو صب الزيت على نار هذه القضية.

★ لكن على يد أي شيخ بايعت أنت؟ أراد هاشم أن يستفسر مصطفى أوغلو.

★ ما الحاجة لكي أبايع أحداً؟

★ ماذا! خرجت هذه الكلمة من على لسان هاشم فجأة. ألا تعرف أن من لا شيخ له يصبح في هذه الحالة الشيطان شيخه.

★ من أين أتيت بهذا الكلام؟ تبسم مصطفى وهو يسأل.

★ نعم، ألا تعرف أنه ورد في الحديث.

★ في الحديث!

★ نعم يا سيدي! وفي حديث آخر ما معناه أن أي مسلم رقبته خالية من البيعة ومات على هذه الحالة فموت مثل هذا الشخص يكون كالموت في الجاهلية.

لكن في الإسلام المبايعة لا تكون إلّا لخليفة العصر ذاته. من أين حصل هذا وذاك على سلطة أخذ البيعة لنفسه. جعل مصطفى أوغلو سؤاله أكثر حدة وصرامة.

انظر أنا لا أعرف كثيراً، لكن الذي أعرفه هو أن السادة الأشراف هم المكلفون بتربيتنا الروحية والرسول (ﷺ) هو الذي كلفهم بهذه المسؤولية. أما سلسلة المبايعة، فهذا الأمر ليس بجديد، من شيخ الشيوخ، الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى داتا غنج بخش ومعين الدين جيشتي ومجدد الألف الثاني وشاه ولي الله الدهلوي وكل الأسماء الكبيرة كانت قد بايعت على أيدي شيوخ عصورهم؛ لأن مكانك من غير البيعة مثل الطائرة الورقية المقطوعة التي يستولي عليها الأولاد الأشقياء لأنها لا وارث لها ولا صاحب. استمر هاشم في سرد حديثه.

ثم في هذه فائدة نيل الفيوض والبركات. الأخ ساجد الذي كان يسمع الحديث بصمت إلى الآن وكان يبدو من هيئته أنه غير مطلع على هذه المسائل، أراد أن يثبت وجوده ويتدخل.

الفيوض؟ إن الفيوض والبركات تصل إلى شخصية الولي عن طريق نذور وقرابين المريدين. قالها مصطفى أوغلو مع ابتسامة مشاغب.

اسمع، مثل هذا الكلام اجتراء وافتراء على مكانة الشيوخ وهذا لا ينبغي أن يقال. قالها الأخ هاشم محتجاً.

إن هؤلاء الشيوخ ليسوا في حاجة إلى نذورنا فالله سبحانه وتعالى سخر لهم الشرق والغرب والشمال والجنوب. كم من الناس تغيرت حياتهم بنظرة واحدة من الشيخ. بل تحسنت أحوالهم المالية بدعاء الشيخ وبركاته. لي صديق وهو الطالب حسين أيضاً من معتقدي ومريدي الشيخ. كان على أسرته أن تنتقل من مدينة كراتشي الباكستانية إلى كندا، ومنذ سنتين كانت إجراءات الأوراق معلقة. في كل مرة كانت تنشأ قضية جديدة وتتأخر الأوراق. هذا الصديق طلب من الشيخ أن يدعوله لحل هذه الورطة فبشره الشيخ أن المشكلة ستجد حلها خلال شهر واحد. ولم يكن قد مرّ ثلاثة أيام إلّا وقد جاء تليفون من المفوضية العليا للتأكيد على انتهاء إجراءات الأوراق الرسمية. وهناك عشرات من الأمثلة لقبول الدعاء. إن الذين ينطلقون في طريق السلوك والبيعة يكفيهم التفات الشيخ إليهم. إنك تستطيع أن تتصل بالشيخ من أي مكان في الدنيا.

نعم، بشرط أن يكون لدي الشيخ هاتف نقال. تدخل مصطفى أوغلو مرّة أخرى بأسلوبه الفذ.

معذرة إنك جاهل تماماً بمثل هذه الأمور. لدى أهل القلوب «**الاتصال**» نوع من المصطلح وهو موجود من قبل أن يظهر الهاتف الجوال التكنولوجي إلى حيز الوجود. إن المريد حينما يتوجه نحو شيخه وهو في عالم المراقبة ويمكن القول أنه بقدر ما يكون إعتقاد المريد بشيخه قويا، فبنفس السرعة والقوة يستعلم الشيخ عن معاناة مريده ويحضر إليه في التو واللحظة، أي نعم بنفسه ونفيسه، بلحمه ودمه. وهذا الشيخ عن

طريق شيوخه وأحياناً بشكل مباشر يكون على اتصال بالرسول (ﷺ) بل يكون له اتصال مباشر مع الله سبحانه وتعالى. وبناء على هذا لا يمكن لأي قوة على ظهر الأرض أن تقهر أهل الله وخاصته. المريد في ظاهره إنسان عادي لكن بسبب كونه متصلاً بشيخه يكون مرتبطاً بقطب الوقت وبكل أولياء الله. إن هذا المريد عندما وضع يده في يد الشيخ فقد أصبح مستحقاً للمدد الإلهي ولهذا قال شاعرنا الشرقي العلّامة إقبال: إن يد المؤمن في الواقع يد الله سبحانه وتعالى وهي الغالبة والمؤثرة والقادرة والصانعة.

اترك شاعر الشرق لأنني لست على معرفة باللغة الأردية، وعلى هذا لا أستطيع تقدير شعره. قل لي بالله عليك هذا القطب الذي يقوم عليه نظام الدنيا أو الذي يسير نظام هذه الدنيا أين مقره؟ ثم لماذا يحكم الدنيا وهو بهذه الحالة السيئة؟

لم يستطع مصطفى أوغلو أن يصبر على حديث هاشم الإيماني العميق هذا.

اسمع، لو أنك جاد في الواقع فإنني سأتناول هذا الموضوع بقدر من التفصيل وإلّا فلا ينبغي بأي حال من الأحوال الاستهزاء والاستخفاف بالأمور الدينية.

وقع أثر هذا التنبيه على مصطفى أوغلو فغيّر جانبه وبدأ يقول: بعد تقديم الاعتذار إنني لم أقصد أبداً الاعتراض على أداء الله سبحانه وتعالى. إنني أريد فقط أن أعرف من أين جاء علم وجود القطب والأبدال؟

من الشيوخ الذين بذلوا جهودا مضنية ومساعي حميدة لكي تكون أنت ونحن مسلمين. هؤلاء هم الذين أخبرونا عن هذا الأمر. ألم تسمع اسم ابن عربي. إن الدنيا كلها تعرفه باسم الشيخ الأكبر. هو الذي أخبرنا بأن الله شكل فريقاً للروحانيين لتسيير نظام الدنيا. وفي هذا الفريق يحتل القطب

أعلى الدرجات وتحت إشرافه إمامان وأربعة أوتاد وسبعة أبدال و(١٢) نقيباً و(٨) نجباء. أما على الهجويري فقد بيّن أن (٣٠٠) من الأخيار و(٤٠) من الأبدال و(٧) أبرار و(٤) أوتاد و(٣) نقباء يتحركون تحت إشراف القطب.

ما مصادر ومراجع معلومات هذين الشيخين؟ مصطفى أوغلو الذي كان قد اختار الآن جادة العلماء سأل هذا السؤال بكل جدية.

والآن بدأت تعترض على هؤلاء السادة. إن هؤلاء حصون الإسلام وأصحاب الكشف والكرامات. لو رفضت ملفوظاتهم وحديثهم عن الدين فما الذي سيتبقي؟

ما عدا الخرافات والخزعبلات سيبقى كل شيء. تحول مصطفى مرة أخرى إلى لونه القديم.

معذرة إنك تبدو لي ملحداً إلى حد ما. لسانك خال تماماً من قداسة واحترام الأولياء والشيوخ. يبدو لي أنك إما ملحد أو وهابي، وفي كلتا الحالتين الكلام معك لا يجدي نفعا. استشعرت أن التدخل أصبح ضروريا من جانبي بعدما رأيت الأخ هاشم يشتاط غضباً.

اسمع يا أخي، لا هو ملحد ولا هو وهابي. فإنني ضقت ذرعا بسماع سيديهات الألحان والأغاني الصوفية الموجودة في سيارته. ثم لا بد أن نعرف أن هدفنا هو الإدراك والتفهيم والاستفادة والإفادة والمساهمة في تخفيف آلام الآخرين. وقبل هذا وذاك فإنه لا يليق بالمرة بأهل الله هذا الغيظ والغضب. وهناك أمر آخر جدير بالذكر: أليس العلمانيون والوهابيون مستهدفين أيضاً لدعوتك؟

حديثي هذا قام بتهدئة ثورة هاشم قليلاً لكنه أثار مرّة أخرى هذه القضية وهي أن بذرة الإيمان لا تنمو ولا تزهر ولا تثمر في أرض الشك

والريبة. وبدأ يقول في هذا الشأن: إن شيخ الحديث المولوي زكريا قد كتب: إن الله إذا أراد أن يضل أحداً فيملأ قلبه بالبغض والكراهية لأولياء الله. وكذلك كتب مولاي رشيد أحمد جنجوهي قائلاً: إن الذين يسيئون ويتجرئون في شأن الله فلن تكون نهايتهم على الإيمان. لو فتحت قبورهم لوجدت أن قبلتهم حولت إلى غير جهة قبلة المسلمين.

معذرة! إنك أسأت الفهم. أراد مصطفى أوغلو مرة أخرى أن يقوم بتصحيح القضية قائلاً: إن قصدي ليس إهانة أولياء الله. أنا من جانبي أقدر وأحترم أولياء الله الصالحين. ثم كيف يمكن لمسلم أن يرفع يده للاعتراض على من قال الله عنه أنه من أوليائه. ولكن لا بد من التحري أن الشخص الذي حسبناه ولياً هل هو فعلاً يستحق هذا المقام ويقال له أنه ولي من أولياء الله.

ثم ما هي علامة الولي؟ وكيف السبيل لمعرفته؟ وضح هاشم قائلاً: لمعرفة الولي لا بد أن يكون السائل نفسه ولياً؛ لأن الولي هو الذي يستطيع أن يتعرف على الولي.

ثم كيف تنحل هذه العقدة على عامة الناس بأن ما قاله الولي عن ولي آخر هو صحيح؟ سأل مصطفى هذا السؤال ببراءة طالب علم.

نعم، ضروري لهذا الأمر إما أن تؤمن بأحاديث أولياء الله أو تسير على هذا الطريق وتبلغ منصب الولاية.

لكن المشكلة عندي هي أنني ما لم أعترف بولاية السابقين لا يمكن أن تستقيم ولايتي نفسها. لا بد من الإقرار بالأولياء السابقين كي يقال لي أنني ولي لأنها نفس الواقع الذي جاء في قصة الملك الذي كان مجردا من الملابس لكن أهل البلاط أمسوا يثنون على ملابسه خوفاً من كشف حماقتهم؛ لأن الأذكياء كانوا قد أذاعوا من قبل أن ملابس الملك

النفيسة هذه لا يراها إلّا الأذكياء أما الحمقي فسيكونون محرومين من مشاهدتها، أليس الأمر كذلك؟ قالها مصطفى ناظراً إلى الأخ هاشم.

ما هذا الهراء في شأن أولياء الله. هناك آيات في القرآن المجيد تتحدث عنهم. أراد هاشم أن يجعل مصطفى أوغلو الشخص الذي لا يملك الرد عليه. ألم تمر عليك تلك الآية الكريمة التي تقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

من ينكره يا هذا! أصل القضية هي من الولي؟ لماذا لا تبحث عن تعريف الولي في القرآن المجيد؟ إن لدينا تفاصيل كثيرة في قضية الولاء والبراء، وكل طالب علم للقرآن يعلم هذا جيداً بأن الذين آمنوا بالله ونذروا كل ما يملكون لإعلاء هذا الدين، فهؤلاء هم في الواقع أولياء الله وهؤلاء هم من حزب الله. بشرهم الله بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

في الدنيا نوعان من الناس، النوع الأول لأولئك الذين هم أعداء الله وأعداء الإنسانية وهؤلاء هم الذين يقضون على الأمن والأمان، هم أولياء الشيطان أي الذين يعملون لمصلحة الشيطان. وعلى النقيض من ذلك النوع الآخر وهم أولئك الذين يعيشون في معية الله ويعملون بكل نشاط وهمة للقضاء على الفتن والفساد لتطهير الدنيا منها. ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، هؤلاء هم أولياء الله وأصحاب حزب الله.

في هذه الجماعة يدخل جميع المسلمين وهذا مصطلح عام يحيط بجميع أهل الإيمان. كل أتباع الأنبياء الصادقين يستحقون هذه البشارة.

السيد هاشم كان يسمع كلام مصطفى أوغلو بكل إنصات وكذلك السيدان وليد وساجد كانا مندهشين كأنهما سمعا هذا الكلام لأول مرّة ولم يتسن لهم من قبل سماع مثل هذا الكلام أو التفكير بهذا الشكل.

لكن من أرواح أولياء الله يحصل الناس على الفيوض والبركات،

أليس كذلك؟ أسلوب هاشم كان أسلوب طالب علم بدلاً من أسلوب المعارض المعاند.

يا أخي هذا كله خرافات وخزعبلات ومشعوذات. عليك أن تقر أولاً أن الولي الفلاني يتشرف في القبر العلاني وهو يسمع من هناك حوائج المريدين ويدعو لهم ويشفع لهم أمام الله سبحانه وتعالى، ثم عليك أن تجلس ووجهتك نحو المقبرة، وتقضي هنا أربعين يوماً. بعد قضاء هذه المدة المحددة يفوضك الولي السلطة الروحية لمنطقة ما، وبعد أن تذهب إلى هذه المنطقة تبدأ سلسلة أخذ البيعة وإلقاء النصح والإرشاد. غير أن المقابر التي تعتقد أنها مبعث ظهور الفيوض والبركات والنفحات، هي في الواقع ليست إلّا ركاماً من التراب. إن القرآن الكريم يقول لنا بصراحة كاملة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [**النمل**: ٨٠]. وفي [**سورة فاطر، الآية: ٢٢**]: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي أنك لا تستطيع أن تسمع الموتى. لكن على الرغم من هذا البيان الرباني الواضح يقوم مجاورو القبور بالدعاية ليلاً ونهاراً عن ظهور النفحات والبركات من هذه القبور.

الأخ هاشم كان يسمع هذا الحديث بكل إصغاء وكان يريد أن يقول شيئاً أثناء الحديث ولكنه كل مرة كان يصمت، ثم بدأ يقول: هل كل هؤلاء مدعو الكشف والإلهام لا اعتبار ولا سند لهم؟ هل جميع قصص وحكايات نيل النفحات والبركات كاذبة؟

إن هذا القرار يرجع الآن إليك يا أخي، فالبيان القرآني الصريح في جانب، وفي الجانب الآخر إدعاءات هؤلاء الشيوخ المزعومين. سكت مصطفى أوغلو بعد هذا الحديث وكاد المجلس أن ينتهي لولا طلب الأخ وليد مزيداً من فناجين القهوة التركية، وسألني ناظراً إلي: ما رأيك أنت؟ إني أراك صامتاً تماماً.

رأيي المتواضع هو أنه يجب علينا أن نسعى جاهدين لمزيد من

المعرفة والفهم. فلو كان نهجنا نهج طلاب العلم ولدينا رغبة صادقة للوصول إلى الحقيقة الخالصة فالأمر في هذه الحالة يصبح ميسراً. إن الله سبحانه وتعالى منح كل واحد منا قدرة على التفكير وهو يحاسبنا حسب فهمنا وتفكيرنا ولكن القضية تفسد حينما نغلق باب الاجتهاد والتفكير والتأمل. انظر كيف أغلق بالحيلة الماكرة حامل التصوف باب الاجتهاد والتفكير. أما القول: أن الله حينما يريد أن يضل عبداً يلقي في قلبه بذرة العناد والمعارضة لأولياء الله، أو الكلام بأن الذي لا يوجد في قلبه محبة لأولياء الله فلن يكتب له حسن الختام، وفي القبر يحول نعشه من جهة القبلة. إن الذين يقومون بمثل هذه الدعاية الكاذبة هم الذين يريدون أن ننحرف عن الحق ونؤمن بهذه الأكاذيب والدعاية المنفرة. وهناك أمر آخر وهو أن الأخ هاشم كما قد سبق وأشار في حديثه عن القطب ومعاونيه والأخيار والأوتاد والأبدال وغيرهم وغيرهم فعلينا أن نكون على علم تام بأن ابن العربي وعلي هجويري اللذين قدما البيان المفصل عن القطب وحواريه، ففي تفاصيلها هذه يوجد تضاد كبير، من الصادق منهما ومن الكاذب، الله وحده يعلم هذا. عندما نخرج باحثين عن الحق وأذهاننا تكون عامرة بهذا الدعاء المحمدي: «**اللهم أرني الأشياء كما هي**». ففي هذه الحالة يبدأ سفرنا نحو الجهة الصحيحة وما علينا إلّا أن نجتهد بكل ما أوتينا من قوة وما دمنا مخلصين في طلبنا هذا، وقلوبنا خالية من الغل والتعصب والعناد فبكل تأكيد سنصل إلى الحقيقة.

«لكن هذه الأمور من المسلمات، ولأولياء الله والمتصوفين مكانة في الإسلام من الأزل. والدنيا كلها تعترف بالولي الكبير وهو الغوث الأعظم». عبر الأخ هاشم عن قلقه بهذا الأسلوب الجديد.

الدنيا تعترف بهذا الولي وعلى هذا غاب نور الإسلام الحقيقي من بيننا. أليس هو نفس عبد القادر الجيلاني الذي يقال عنه أنه كبير أولياء الله.

حاول مصطفى خطف هذا السؤال قائلاً: يا أخي إن له كرامات كثيرة. إنك تكون قد قرأت قصة أربعين دينار ولكني سمعت أيضاً أن والدته حينما شعرت بألم الوضع فلم يخرج حضرته إلى الدنيا وصار والده قلقاً على هذا الوضع الطارئ فذهب إلى ولي كبير آنذاك، فقال له الولي: وليدك هذا كبير الأولياء فهو لا يخرج بهذا الشكل العادي، ثم أعطاه قطعة من عمامته التي خرقها وقال له: أعطها لزوجتك كي تبلعها. نفذت الزوجة أمر الولي وبعد إذ خرج إلى الدنيا قطب الأقطاب وهو يستر عورته بهذه الخرقة.

حقاً؟! أبدى وليد قدراً كبيراً من الحيرة قائلاً: يبدو أنك بالغت في هذا الأمر.

لا لا، إنني لم أقل شيئا من عندي. إنما هذه كرامات عادية تصدر من أولياء الله. ولم لا، فالسيد عبد القادر الجيلاني يوحي إليه أيضاً. فهل لي أن أقرأ عليك الكلام الذي نزل على الغوث الأعظم.

الكلام؟ ما هذا الذي تقول؟ سأل هاشم بحيرة ودهشة.

نعم، إنه لبحر عميق لا تنفتح أسراره ولا تنكشف طلاسمه بسهولة. إنك ستسمع ما هو أكثر بكثير من هذا، ويفقد العقل صوابه. اسمع يا أخي ماذا قال الله للغوث الأعظم. بعد ذلك أغمض مصطفى أوغلو عينيه وجلس بأدب كما يجلس قارئ القرآن ثم بدأ يقرأ بأسلوب القارئ:

«قال يا غوث الأعظم، إن لي عباداً سوى الأنبياء والمرسلين، لا يطلع على أحوالهم أحد من أهل الجنة، ولا أحد من أهل النار، ولا ملك مقرب، ولا رضوان. وما خلقتهم للجنة ولا للنار، ولا للثواب ولا للعقاب، ولا للحوار ولا للقصور. فطوبى لمن آمن بهم وإن لم يعرفهم. يا غوث الأعظم وأنت منهم. ومن علاماتهم في الدنيا أجسامهم محترقة من

قلة الطعام والشراب ونفوسهم محترقة عن الشهوات، وقلوبهم محترقة عن الخواطر، وأرواحهم محترقة عن اللحظات. وهم أصحاب البقاء المحترقين بنور اللقاء».

وحينما انتهي من قراءة هذا النص طلب ساجد بأنه لو يترجمه أيضاً لكان أفضل. اسمع الترجمة من السيد راشد شاز. قالها مصطفى أوغلو مشيراً إليّ. وأضاف أن السيد راشد شاز صديقي وهو باحث إسلامي يترجم لك كل كلمة من هذا النص.

راشد شاز! مرحباً! هل أنت ذات الشخص صاحب موقع مستقبل الإسلام؟ سأله هاشم بحيرة شديدة.

نعم! إنك عرفته جيداً. أيده مصطفى أوغلو.

لقد اطلعت على بعض من أعمالك.

علي كل حال لم أكن أتوقع أنني سألتقي يوماً بك بهذه الصورة المفاجئة.

هل أنت على معرفة به؟ سأله ساجد باستغراب.

نعم، إنني رأيت بعض أعماله على الشبكة العنكبوتية. أوضح هاشم، وقال أيضاً: لي صديق في كندا وهو من محبيه وعشاقه وقد طلب مؤخراً عدداً من كتبه من الهند مباشرة، ولكنه يقول إن هذه الكتب باللغة الأردية الأدبية الصعبة وإنك لا تستطيع أن تفهمها بسهولة. لكني الآن أستطيع أخبره بأنني قابلته شخصيا في مدينة إسطنبول التركية وهو بكل تأكيد سيفرح جداً بهذا الخبر.

لتغيير الموضوع قلت لمصطفى أوغلو محذراً: إنك قمت بنفس الحركة مرة أخرى. ففهم ما كنت أقصده. قال: حينما إن نبي الله موسى (عليه السلام) لم يستطع صبراً على الخضر (عليه السلام)، فأني لي أن أصبر

فمعذرة على كشف الأسرار بهذه الصورة الارتجالية. برر مصطفى أوغلو على ما حدث من الخطأ دون قصد.

حينما رأي وليد أن جو المجلس بدأ يطرأ عليه شيء من التغيير قال لي: لم لا نستمر لمزيد من الوقت في الحديث الهام الذي كان جارياً بيننا.

بدأ مصطفى أوغلو يقرأ الآية الغوثية مرة أخرى وأنا من جانبي أترجمها.

عندما انتهت الترجمة كانت حالة الشبان الثلاثة كأنهم قد أصابتهم سكتة قلبية. لأول مرة سمعوا هؤلاء وحياً في اللحن الداوودي غير القرآن الموحي إلى النبي محمد (ﷺ).

هل يتوفر في السوق مجموعة وحي الغوث الأعظم؟ سأل هاشم.

إن لم تجدها في السوق ففي المكتبة تجدها بكل تأكيد. لهذه المجموعة أسماء عديدة مثل: رسالة الغوث الأعظم والفتوحات الربانية وإلهامات الغوث الأعظم وبأسماء مشابهة لهذه الأسماء. ثم إن هذه الرسالة متداولة بين العلماء والمشايخ منذ القرن السادس الهجري. وأوضح مصطفى أوغلو هذا.

هل علماؤنا على علم بهذا. تكلم أنت يا دكتور شاز؛ لأن هذه قضية في غاية الخطورة. كنا نظن أن غلام أحمد قادياني وحده ملوث بهذه الجريمة النكراء ولهذا طرده علماء الإسلام من الملة. والآن يقول الأخ مصطفى: من ابن عربي إلى شاه ولي الله الدهلوي كل هؤلاء كانت لهم ادعاءات أنهم على اتصال مباشر مع الله. فكيف نتحمل مثل هذه الآراء الشاذة، بالله عليك إلق الضوء على هذه القضية.

إن هاشم كان يبدو مشتت الذهن وقد أعجبتني عاطفته الصادقة. فربت على كتفه قائلاً: أخي العزيز لا تعول على كلامي ولا على كلام

غيري دون تحقيق ودراسة. عليك أن تخرج بنفسك للبحث عن الحقيقة لأنك لو لم تقم بهذا لن تجد في داخلك للحق حالة يقين. إن السبب الرئيسي لضلالتنا إلى يومنا هذا هو أننا نهرول ونجري وراء الأسماء الكبيرة وقد تعودنا على هذا. نحن نظن أن العلماء الكبار ما داموا يشهدون على صدق أمر ما فبكل تأكيد سيكون هذا الأمر صادقاً لأن كل هؤلاء لا يمكن أن يجتمعوا على الباطل وأن يكونوا حمقي أو ضالين وخاصة عندما يقام حول هذه الأسماء هالة من القداسة. فلو قبلت فتواي بدلاً من أن تعتمد على آرائهم فتدور حول آراء الرجال ولن تستطيع الفرار منها. إنك تحتاج أن تحل هذه القضايا بنفسك وتسعي لها. رأيي لا يمثل إلّا أنه رأي شخصي. عليك أن تضع هذا الرأي في ميزان الشرع والعقل.

بقي تعجبك من أنه كيف تحمل الناس من جيل إلى جيل هذه الادعاءات والاجتراءات ضد القرآن؟ هذا سر يحتاج كشفه إلى معرفة عميقة بالتاريخ الإسلامي والاطلاع الواسع بالخلافات الفئوية والسياسية، ثم دراسة القرآن الكريم دراسة متأنية بعيون مبصرة. والآن ما عليك إلّا أن تعرف أن هذه الهفوات للروحانيين التي تستهزئ بالقرآن علنا وصلت إلى الأمة مرة بشكل الشطحات ومرة بالتفردات ومرة ثالثة سمي بالعلم الباطن، غير أن طالباً عادياً للقرآن الكريم يستطيع أن يدرك بسهولة ويسر أن ابن العربي في فتوحاته أو نصوصه أراد أن يهزم المعاني الواضحة الظاهرة بالشرح الباطني للقرآن الكريم كما ادعى هؤلاء أنهم أصحاب الكشف والإلهام ولهم اتصال مباشر بالملأ الأعلي، فليكن معلوماً أنه لا مكان في هذا الدين لمثل هذه الهفوات بالمرة. إن الدين قد اكتمل بما جاء به رسول الله محمد (ﷺ) فهو خاتم الرسل، والأنبياء والقرآن هو آخر الوحي المنزل من السماء. لكن علماؤنا الثقات يسدلون الستار على هذه الخرافات مرة خوفا من عتاب العامة، ومرة بسبب قلة

العلم والاجتراء ويقولون هذه أمور تتعلق بالكبار ولا يليق بنا أن نفتح أفواهنا وأن نخوض فيها. هؤلاء العلماء الثقات يقولون علانية أن التعرض لأخطاء الشيوخ الكبار خطيئة. والنتيجة أن العاصفة الفكرية الملتبسة التي ثارت في القرنين الثالث والرابع من الهجرة وفي الظروف الطارئة بدأت تضيف فيما بعد إلى التباسات ضبابية. إن العداوة بين الخلفاء الفاطميين والعباسيين مهدت الجو لحركة المتصوفين كي يعملوا تحت الأرض. كل متصوف قادم بدأ يستند على التصوف السابق ويعلي من شأنه. فبدلاً من أن يبطلوا ويرفضوا هذه الادعاءات الإلهامية قام هؤلاء على نفس الأسس بل استحكموها. فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن الصغار والكبار والعلماء الأفاضل والجهلة والمغفلين ملئوا تصانيفهم بدعاوى الكشف والإلهام. ثم الإسلام الذي انطلق إلى الأمام كان اسلام ابن عربي وعبد القادر الجيلاني وقد أعطى مزيداً من الصبغة على يده جويري ومودود جشتي وأحمد رفاعي وأحمد سرهندي وشاه ولي الله وجنجوهي ونانوتوي ومولوي زكريا والمئات من أمثال هؤلاء وأولئك الذين ساهموا في نماء هذا الدين الجديد. وكانت النتيجة أن الدين الخالص لمحمد رسول الله (ﷺ) قد تخلف عن الركب.

أوشك الليل أن ينقضي ومع هذا لم يظهر وجوه هؤلاء الشباب أي أثر للتعب، فلقد كانوا يصغون إلى كلامي بكل إنصات. وكان الأخ وليد مرة كان ينظر تارة إلى السماء وتارة أخرى إلى فنجان القهوة الموجود على المنضدة أما ساجد فكان مندهشا، وأما هاشم فلا تسألن عن حاله. كان يبدو أن الأرض قد سحبت من تحت قدميه. عند الوداع تصافحنا وحاول أن يقبل يدي ولكنه لم يفلح في ذلك وافترقنامع الوعد بلقاء الغد ثم انطلقت سيارتنا نحو الفندق.

١٣

مدد يا سيدي عبد القادر الجيلاني

بعد المرور من الحواري والأزقة خرجت سيارتنا إلى الشارع عندها قلت لمصطفى أوغلو: يا مصطفى إنني لم أكن على علم بأنك حافظ للمصحف القادري أيضاً. إنك تلوته بشكل جعل الناس ينصتون له. تبسم أوغلو من كلامي هذا وبدأ يقول: في وقت ما كنت حافظاً لمعظم الإلهامات القادرية ويرجع هذا إلى الأيام التي كنت تلميذاً للشيخ على وكانت قراءتها تدخل في الورد اليومي لي. والواقع أن الوحي المزور لهؤلاء الشيوخ لا يظهر على حقيقته إلّا بعد أن تقارنه بالوحي الحقيقي. حينئذ ينكشف الأمر ويزداد النفور والكراهية لهذا الإلهام الكاذب. أما قبل المقارنة فيحيطها هالة من القداسة. لقد وصلت إلى نتيجة حتمية وهي أن كل هذه الوثائق للوحي المزور، وكل هذه الادعاءات الباطلة للكشف والكرامات، ليست من أجل التحريف في القرآن فحسب بل لإلحاق الهزيمة بالرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فكلما أعملت العقل في هذه الإلهامات الباطلة تبدوا مخالفة تماماً للعقل والإلهام بل أشد سوءاً. على سبيل المثال خذ هذا المصحف القادري الذي جاء فيه حينما سأل عبد القادر الجيلاني ربه: **يا رب أي صلاة في**

عندك أعظم مرتبة؟ فجاء الرد من الله: الصلاة التي ليس فيها سواي والمصلي نفسه غائب عنها. وفي آية مزعومة أخرى جاء فيها إن الله بين بكل وضوح أنه لا مكان لأهل العلم لديه.

بدأ مصطفى أوغلو مرة أخرى يرتل كما يرتل القارئ القرآن الكريم قائلاً: يا غوث الأعظم ليس لصاحب العلم سبيل عندي طالما كان مع العلم حتى ينكره.

إن العقل ليتحير ويندهش لما يقال. إن باب الوصول إلى الله مغلق تماماً أمام صاحب العلم بل لا يمكن له أن يدخل في حضرة الله حتى ولو ترك العلم فهناك وعيد له أنه بسبب هذا العلم يتحول إلى شيطان. لو حصلت على العلم ولو لمرة واحدة لخسرت. صاحب الولاية هذا له قول آخر وهو: «**العلم حجاب أكبر**». انظر إلى هذا الحديث إلى أين وصل بشأن العلم. غير أن القرآن يدعونا باستمرار إلى تحصيل العلم والاكتشاف والتأمل والتدبر. أما وحي الغوث الأعظم فيشير أن مجرد ذكرالعلم ذنب عظيم لا يغتفر ولا مجال لطلب العفو أو النجاة.

هل الصحيفة القادرية التي تسميها إلهامات الغوث الأعظم جزء من الأوراد والأذكار التي يتم ترديدها وذكرها وشرحها في مجالس الصوفية؟ وجهت هذا السؤال إلى مصطفى أوغلو.

رد قائلاً: لا، إن للمبتدئين هناك أوراد وأذكار مختلفة ولكن على مستوى الخواص هناك أهمية كبيرة لهذه الإلهامات. فبعد قراءة بعض قصار السور وذكر الأدعية المأثورة تبدأ تلاوة هذه الإلهامات أيضاً.

ولمثل هذه الإلهامات إسهامات في إبتداع الصلاة الغوثية، وضحها مصطفى أوغلو.

ذاكرتك ما شاء الله قوية. عندما تتلو هذه الآيات تبدو لي كأنك كنت

في يوم من الأيام تؤم الصلاة الغوثية التي تؤدي في بغداد. أردت أن أثيره بهذا التعليق. قال: أحفظ الكثير والكثيرمن هذه الخرافات والخزعبلات في ذاكرتي.

انتظر قليلاً سأسمعك الآن شيئاً يسعدك كثيراً. **حرك زر جهاز التسجيل يميناً ويساراً ووقتئذ خرج صوت جميل مع الضرب على الدف:**

عـرفـت الـهـوى مـنـذ عـرفـت الـهـواء

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه فاكشف لي الحجب حتى أراك

★ قل لي ما رأيك في هذه الأغنية؟

★ أي نعم، إن الموسيقى لها سحر عجيب وكذلك التناغم بين الصوت والقافية والرديف شيء مذهل. في حالة الوجد هذه يقول القائل كل ما يريد أن يتفوه به. منه ما يكون مناسباً ومنه ما لا يليق. أبديت له رأيي.

★ هذه أغنية مشهورة ومعروفة لفرقة ابن عربي المغربية. هؤلاء يدعون أنهم هم الذين أحيوا الموسيقى الصوفية الأندلسية من جديد. فهذه هي الموسيقى التي كانت رائجة وسائدة في أندلس ابن عربي.

★ إن مذهب ابن عربي يدعو إلى العمل بصمت دون أن يشعر أحد، فتجد في موضع ما الألحان الصوفية وفي موضع آخر تجد ذكراً للإلهامات والملفوظات وفي ثالث تسمع حديثاً عن وقائع الكشف والكرامات، وفي آخر تجد المراقبة ومشاهدة الحق وأيضاً ترى شطحات أهل الحق والاهتمام بالمولد والزيارات. باختصار هناك ترويج وانتشار واسع لمذهب ابن عربي وفي المقابل تجد الدين الحق الذي جاء به محمد رسول الله (ﷺ) غائب تماماً عن العالم الحسي. إن الرسالة المحمدية محفوظة ومصونة في إطارها الرباني

الموحي إلى سيدنا محمد (ﷺ)، لا ريب في هذا. لكن قفزات أهل الحق والقيل والقال للفقهاء وتأويلات المفسرين والروايات الموضوعة للمحدثين بشأن نزول الآيات القرآنية هي أقامت حدوداً وقيوداً على معانيها الحقيقية.

انظر إلى شبابنا النابه الذين يترددون على الروحانيين باحثين عن الدين الصحيح. ولا أدري كم من الناس وقعوا فريسة لمختلف شيوخ الطرق والدراوشة والمشعوذين والمتصوفين، وهكذا يذهبون بقوتهم الثمينة سعياً وراء هؤلاء الدجالين. فهناك شخص يظل قابعاً طوال النهار لمراقبة الشيخ وهناك آخر أمره شيخه أن يردد الورد الفلاني واحدا وعشرين ألف مرة وثالث يمضي أربعين يوما بجوار مقبرة ما أملاً في الحصول على الفيض والبركات من صاحب هذه المقبرة وهناك على بعد مئات الأميال شخص رابع سجين لهلاوس الذي لم يتمكنمن الإتصال به لسوء حظه وعدم إدراكه. كل هؤلاء مشغولون بأمور بعيدة كل البعد عن ميزان الشرع والعقل. كم هو عجيب وغريب هذا الواقع المؤلم وكم هي مقيتة وبغيضة شبكة الروحانيين هذه التي جعلت الأمة تنام في سبات عميق وكأنها تناولت الأفيون. أبديت ألمي وحزني من هذا الكلام.

قال: والمصيبة أن هذا العمل المذموم المنافي للدين مستمر بل يزداد يوماً بعد يوم. ألا ترى أن عدداً من زوايا المتصوفين قد تم إحياؤها، فالنقشبندية والمولوية والقادرية والجلوتية والرفاعية وفروعها المختلفة التي لا تحصى بدأت تمتد وتنتشر. كذلك لهذه الطرق الصوفية هناك حلقات وحلقات. وكل مركز صوفي يفد إليه زوار من قارة أوروبا وأمريكا بالإضافة إلى الزوار المحليين وتمرهذه المراكز بأيام الربيع الصوفي. ليس هذا فحسب بل هذه السلاسل من المتصوفين قامت بفتح مقار فرعية لها في بلاد الغرب حيث يأتي إليها الزوار بدون توقف.

ما هو السبب الرئيسي لهذا الإقبال الكبير على مولانا الرومي والمراكز الصوفية؟ أردت بهذا السؤال الموجه إلى مصطفى أوغلو أن أعرف رأيه.

بدأ يقول: أولاً إن الإقبال على أي شيء في بلاد الغرب ينال القبول على الفور لدينا أيضاً، ثم إن السواد الأعظم من أهل العلم متأثرون جداً بالموضة الغربية وعلى هذا اشتهر الرومي أولاً في أمريكا ثم بدأ الحديث هنا عنه في المقاهي الشرقية. والسبب الثاني هو أن الغرب في محاولة منه لإخفاء عداوته وبغضه وكرهه للإسلام يستخدم دائماً الإسلام الصوفي ستاراً له وما دامت مؤسسة كبيرة تعمل ليل نهار للقضاء على الإسلام في العالم الإسلامي فما العجب أن يستعين هؤلاء المعادون للإسلام والذين يحسبون أن الإسلام خطر عليهم بالتصوف. وهناك سبب ثالث وهام لهذا الأمر وهو أن أهل الغرب يوجد لديهم فراغ كبيرعلي المستويات الثقافية والروحية والفكرية فهؤلاء يجدون في ضوضاء الرقصات الصوفية والألحان العاشقة ملاذهم وسلواهم. ولهذا تجد أن الناس يأتون بالتدريج إلى رياضة اليوجا مرة ثم مرة أخرى إلى المراقبة الصوفية ومرة يأتي الناس من الغرب إلى الشرق للإستمتاع بروحانية الرقص والموسيقى. وضح مصطفى أوغلو هذا الأمر بشيء من التفصيل.

لكن أغلب أهل الغرب الذين يأتون إلى مدينة إسطنبول باحثين عن الحق ليس في قلوبهم شيء من التعصب وهم يأتون هنا معتقدين أن هذه الحركة هي التي تمثل الإسلام.

نعم، إن عامة الناس يحسبون هذه الفوضى صورة من صور الإسلام أما إخلاصهم وبحثهم عن الحق فهما فوق الشبهات لكن القضية هي ما هو السبيل لوصولهم إلى الحق؟ قالها بألم شديد.

عندما قام مصطفى أوغلو بتوصيلي إلى المقر كان الوقت تقريباً في منتصف الليل ولم أكن أشعر بتعب كبير وحاولت أن أنام مبكراً نظراً

للجدول المليء بالزيارات في اليوم التالي. لكن بدأ هاجس الأفكار والآراء ينتابني وتذكرت أسئلة الأخ وليد المضطربة والغارقة في الشكوك والشبهات. فتارة أتأسف على الأوهام التي يسير وراءها هؤلاء الشباب وتارة أثني على العواطف الجياشة لهؤلاء الشباب الذين يبحثون عن الحق في الوقت الذي تجد فيه معظم الناس مشغولون في الأكل والشرب واكتساب المال. وقد وفق الله سبحانه وتعالى هؤلاء الشباب أن يترفعوا عن أمور الحيات العادية ويفكروا في الأسئلة الأزلية. ولكن أشفق عليهم لأنهم عندما استاءوا من سلوك شيخ خرجوا باحثين عن شيخ آخر. جاءوا إلى إسطنبول ليبايعوا على نقشبندي خالدي، تاركين نقشبندياً حقانياً على ضرب المثل القائل «**وقعوا من شجرة نارجيل وتعلقوا بشجرة نخيل**». هؤلاء المساكين يرون كل ما يحيط بالشيخ محمود أفندي شيء مقدس مقارنة بهشام كباني وشيخه ناظم حقاني. في مسجد إسماعيل آغا إن الأشخاص الذين يطلقون اللحي الطويلة ويلبسون العمائم البيضاء والسراويل فوق الركب وعليها الجلابيب الطويلة يبدون لهؤلاء الشباب غاية في النقاء. هذا الجو الإيماني والأيام والليالي النورانية كم جعلت هؤلاء الشباب مبهورين ومسحورين لولا هشام الكباني وعبد الكريم القبرصي إذن فليحل محمود أفندي مكانهما ويتحكم في حياتهم ونجاتهم وهكذا ستحرم الأمة من مواهب هؤلاء الشباب الثلاثة أيضاً. إن هاشم وأصدقاؤه نموذج بسيط لهذه الظاهرة العالمية. وشبكة الروحانيين هذه المنتشرة في أنحاء العالم. لا أدري كم من أتباع الشيخ يتناولون الأقراص المنومة ليغطوا في سبات عميق.

إنني كلما حاولت النوم بدأت هذه الهواجس تلاحقني. اليوم أحسست ولأول مرة أن النوم الهادئ ليس أمراً سهلاً بل ربما يكون مثل هذا النوم من نصيب أولئك الذين ركبوا سفينة الشيخ الناجية ؛ لأنهم ما

داموا قد صعدوا إلى سفينة النجاة فالسفينة تسير بقيادة الشيخ دائماً نحو الأمام سواء نام المريد أو ظل ساهرا. نهضت من السرير مجبراً ورفعت الستار عن الشباك. فشاهدت في الضوء الخافت على مسافة بعيدة من ساحل البحر ظلال بعض الأشخاص السائرين. بدا لي أنهم قلقون أيضاً مثلي. سلبت الظروف الصعبة والقضايا المعقدة من هؤلاء هدوء الليل. ظللت أرقب لفترة طويلة التحركات الخفية لهؤلاء الأشخاص على شاطئ الباسفور.

ربما هذا هو المنظر الذي شاهده مصطفى أوغلو أيضاً فتراءى له أن أصوات أقدام عباد الله تسمع بوضوح قبل بزوغ الفجر على شواطئ إسطنبول وهؤلاء هم الذين يتجولون في مختلف الحواري والأزقة في آخر الليل. ويسير أغلبهم على ضفتي الباسفور والخليج العربي. وكان أوغلو على يقين تام بهذا الأمر حتى أنه قام بالسير أكثر من مرة قبل طلوع الفجر. يقول: ذات صباح خرجت بحثاً عن عباد الله بعد قراءة الأوراد والأذكار المختلفة فحدثت لي تجربة عجيبة. رأيت شيخاً ذا لحية بيضاء في عباية بيضاء وعليه عمامة بيضاء ويمسك بعصا مقبلاً عليّ فبدت لي الفرحة والاستعجاب وقدر من الدهشة في آن واحد. وبسبب الدهشة أغمضت عيني وأمسكت قبضتي وأحسست كأن نوراً مر بقربي وبعد فترة طويلة عاد إليّ صوابي.

يقول أوغلو: منذ أن حدثت لي هذه الواقعة انقطعت عن الذهاب إلى الساحل في تلك اللحظات المليئة بالأسرار.

عندها فكرت كم أن الإنسان ساذج وخيالي وكم أن العقل الإنساني أيضاً خصب ومعقد. ينسج الأسطورة بنفسه ثم يصدقها.

١٤

السيد عثمان

في اليوم التالي كان علينا زيارة مسجد إسماعيل آغا حسب البرنامج المقرر. كنت قد واعدت الشيخ حمود وهاشم وأصدقاؤه فكانوا أيضاً في انتظارنا لكن الاتصال التليفوني لمصطفى أوغلو الذي جاء فجأة قد غير البرنامج تماماً. قال لي: مساء اليوم هناك مجلس للشيخ علي داغستاني في المنطقة الآسيوية بمدينة إسطنبول وإنك تستطيع أن تذهب إلى إسماعيل آغا في أي يوم. لكن مثل هذه المجالس الخاصة لا تنعقد كل يوم ثم إن المشاركة في مثل هذه المجالس ليس أمراً سهلا. عليك أن تكون جاهزاً بعد العصر في الفندق وإن لم أستطع الحضور فهوجا عثمان سيأتي ليأخذك. كذلك سأبلغ هاشم أن يعتذر للشيخ محمود لعدم حضورنا اليوم. بهذه الكلمات أنهى مصطفى أوغلو الاتصال التليفوني.

علي داغستاني؟ أمعنت التفكير قليلاً، ما العجب أن يكون هذا قريباً أو تلميذاً لحميد الله الداغستاني. لقد سمعته قبل (٧) أو (٨) سنوات في مسجد الإمام المهدي بجبل قيسون وكان ينشد الابتهالات وبصفة خاصة حينما كان الشيخ يتوقف عند «**اللهم صل على**» ويبدأ الشطر الثاني «**وآل محمد**» فعلى الفور يأخذ الشطر الأول ويصل بالشطر الثاني «**اللهم صل على**» فإذ الجمع كله يبدأ ينشد ويبتهل بتناغم صوتي عجيب فينتاب المجلس حالة غريبة من النشوة.

إن الشيخ علي داغستاني كان قادماً من سمرقند القريبة من أرض بخاري التي تقع فيها مقبرة مؤسس السلسلة النقشبندية الشيخ بهاء الدين النقشبندي. ويمكنك أن تقول في هذه الحالة أن شيخاً روحانياً قديراً كان قادماً إلى إسطنبول من المقر الرئيسي للنقشبندية بوسط آسيا. قبل الوقت المقرر بقليل وصل مصطفى أوغلو مع هوجا عثمان إليّ.

كلمة هوجا كلمة تركية وهي مرادفة للأستاذ وتستعمل هذه الكلمة عند مخاطبة شخص محترم وأحيانا يصير هذا اللفظ جزءاً من أسماء بعض الناس بسبب التكرار.

السيد هوجا عثمان ظهر لي شخصاً ضخم الجثة وتاجراً متواضعاً، أما السن فكان يتراوح بين الستين والخمسة والستين عاماً. له تجارة كبيرة في السيراميك المزخرف.

سألته إنك تصنع السيراميك لتزيين الجدران وزخرفتها. قال: نعم هذه الحرفة هي حرفة عائلية متوارثة وبفضل الله كل شيء متوفر لدينا والآن أقضي معظم أوقاتي في خدمة أهل الله.

كيف إتجهت من تزيين وزخرفة الجدران إلى تجميل الأرواح؟

قال لي: مادام الباطن خاوياً من الجمال والسكينة ففي هذه الحالة لا يستطيع الإنسان أن يزين ويجمل ما حوله. فهذه المباني الأثرية العظيمة التي تشاهدها في إسطنبول بقدر ما فيها من عظمة وفخامة فهي في الواقع تظهر قوتنا الداخلية وسكينتنا القلبية والفكرية وثقتنا بأنفسنا. هذه الآثار والذكريات ترجع إلى العصر الذي كنا نعي ونعرف جيداً أن الدنيا تم مسخرة لنا ودار الخلافة كانت بمدينة إسطنبول التي كانت تحتل مكانة عالمية وبذلك صارت عاصمة العالم. لكن عندما بدأت تذهب الثقة بالنفس فصارت هذه المباني الفخمة خراباً ومهجورة بالسكان.

إن هوجا عثمان أثبت في الواقع أنه أستاذ عن حق. إن شخصيته كانت مثل السيراميك المزخرف والجذاب وفي حديثه أيضاً كان مثل الشكل الهندسي مناسب وموزون. كل كلمة موزونة ومناسبة في مكانها. كان مصطفى أوغلو تربطه به صداقة قديمة بل يمكنك القول إنه كان قاب قوسين أو أدنى أن يصبح أخاً لهوجا عثمان في السلوك والإرادة. وحتي يومنا هذا لم ينس دعوة مصطفى أوغلو للذهاب إلى المحافل الروحية الخاصة جداً التي تصيب الشركاء بالجذب والسكر. أصبح هوجا بسبب طبعه اللطيف واحداً منا وانتهت الكلفة بيننا. سألني هل أنت أيضاً صاحب الهاتف الجوال والساتلايت؟ ثم قام بالتوضيح إذ قال: في وقت ما أنا ومصطفى أوغلو كنا نؤمن بالإتصال الأرضي أي كنا نتوسط الشيخ لإقامة الاتصال مع الله سبحانه وتعالى. أما في الآونة الأخيرة إذ انتشرت لعنة الهاتف الجوال، فاهتز اعتقاد الكثير. يقول مصطفى: في عصر الموبايل، والتليفون والساتلايت أصبح جعل الشيخ وسيطاً نظاماً بالياً وقديماً.

والآن فهمت ماذا يريد السيد هوجا أن يقول. فقلت له نعم، لم لا يكون هكذا ما دام شيخ طريقتنا يستخدم الهاتف الجوال للاتصال برسول الله (ﷺ). ألم تسمع إدعاء الشيخ ناظم أنه تحدث مع رسول الله (ﷺ) هاتفيا بشكل مباشر.

الشيخ ناظم! سبحان الله. السيد هوجا ردد اسم الشيخ كأنه إنتابته حالة من الجذب ثم أغمض عينيه لثوان وظل صامتاً إلى أن قال: ربما شخص ما قام باختلاق هذه الشائعة ضده أو أنه من المحتمل أن يكون قد صدرمنه شيء من هذا القبيل وهو في عالم الجذب والسكر. إنه يحتل مكانة كبيرة. إن الشيخ ناظم ينتسب إلى سلسلة الأربعين من السلاسلة الذهبية ويصل نسبه إلى مولانا روم وعبد القادر الجيلاني، وهو يرى ما لا ترى أعيننا.

إن السيد مصطفى أوغلو الذي كان يستمع بإنصات إلى حوارنا هذا وهو يقود السيارة قال: يا هوجا اترك موضوع الحديث بالتليفون مع رسول الله (ﷺ) واسمع ما هو آعظم من هذا. إن الشيخ ناظم هذا قد وصل الأمر به إلى أن قال في عام ٢٠٠٤م في مجلس من مجالس مريديه: إن الإله الذي تبحثون عنه ما هو إلّا أنا. فمريدوه أشاعوا هذا الخبر وظل هذا الحديث متداولاً لأيام وليال على الإنترنت بكل قوة إلى أن قام خليفة الشيخ في مدينة نيويورك وهو عبد الكريم حقاني بتوبيخ وتأديب مريديه في جلسة خاصة له.

قال السيد هوجا رداً على كلام مصطفى أوغلو: هذا الأمر لا ينبغي أن يثار حوله كل هذه الضجة؛ لأن أهل الحق يمرون بظروف تعطي الانطباع أن المسافة التي كانت بين الله وعبده قد انتهت. في العام الماضي كان قد أثير هذا الموضوع بشيء من التفصيل في جلسة خاصة للشيخ علي داغستاني حينما كان يشرح سورة النجم. ربما لم تكن موجوداً في هذه الجلسة. لقد كانت جلسة روحانية عظيمة خاصة عندما بدأ شرح «قاب قوسين أو أدنى» لم أسمع مثل هذا التفسير لا من قبل ولا من بعد في أي مكان في العالم. كم هو دقيق الحجاب الذي بين العبد وربه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. عندما لم يكن هناك شيء فهو كان، ثم تجلى في النور المحمدي. كل هذا سر من الأسرار يا أخي. ربت هوجا على كتفي بحنان أثناء كلامه هذا. ثم قال إن الذي يستطيع أن يعرف هذا السر هو من يجرؤ على قول الحق والمشنقة حول عنقه. عندما يرفع الحجاب الذي بين الحياة والموت فوقتئذ تنكشف للإنسان هذه المعضلة وهي أنه ما في جنبي إلّا الله. ثم يصدر من لسانه عفوياً وهو يصف نفسه بنفسه (سبحانك ما أعظم شأني). إن السيد هوجا أصبح جاداً جداً مع هذا الكلام ثم رفع صوته بنبرة قوية (يا مولانا شيخ ناظم) وخرجت من لسانه كلمة يا مولانا بشكل يعطي الانطباع كأنه في حالة سكر.

لكن هذا هو ما يحصل مع أهل الإيمان منذ قرون والشيخ وناظم ليس هو وحده في هذه القضية. قلت لمصطفى أوغلو موجهاً إليه: كان عندنا في العاصمة الهندية دلهي عالم ثقة وهو الشاه ولي الله المحدث الدهلوي وكان منتسباً للسلالة النقشبندية. فقد ذكر في إحدي كتبه عن والده شاه عبد الرحيم قائلاً: ذات يوم عندما خرج والدي مع بعض مريديه للنزهة فحان وقت صلاة العصر أثناء رحلة البحث عن الحق هذه، فصلوا صلاة العصر في المسجد الواقع على جانب الطريق، وبعد أداء الصلاة سأل الشيخ مريديه: لمن تبذلون كل هذه الجهود وعمن تبحثون؟ رد الجميع بصوت واحد: الله، نحن نجتهد في البحث عن الله. بعد سماع هذا الرد قام الشاه عبد الرحيم من جلسته وقال: ها أنا هو ثم قدم يده إلى الناس للمصافحة.

بعدما سمع مصطفى أوغلو هذه النكتة الروحانية ظهرت على وجهه ابتسامة خبيثة. أما السيد هوجا هذا فكأنه وجد سنداً لرأيه وهو أن الشيخ ناظم ليس وحده من أدعي هذا بل هناك من يسانده من الصديقين ويدعم هذه المساندة الثقافية الروحية.

والآن وصلنا إلى خارج حدود المدينة وهي منطقة نائية إلى حد ما والشوارع بسبب عدم استخدامها أغلبها كان خالياً من الخطوط المستقيمة، ولم تكن هذه الطرق والشوارع من مكان لمكان ممهدة كما كانت أيضاً غير متصلة ببعضها البعض. وفي جبل وعر بمكان نائي كان قد وضع شخص ما على ورقة بيضاء علامة وقام بلصقها هناك، وعلى الباب كان هناك شعلتان كبيرتان وفي داخل الأبواب شبه مكسورة كان في الممرعدة قناديل موضوعة فيه، وفي الداخل كانت هناك قاعة كبيرة إلى حد ما. هذه القاعة كانت مفروشة بالمراتب وتغطيها ملايات بيضاء. كذلك كانت قد جهزت منصة صغيرة مفروش عليها سجاجيد تركية فخمة ووراء هذه المنصة وعلى جانبيها كانت هناك دفايتان مشتعلتان. أما الشبابيك

والشراعات فكانت هناك مشاعل صغيرة مضاءة. ولم يكن قد وصل الشيخ علي إلى الآن ولذلك كان الناس مشغولين في الأحاديث الجانبية في مجموعات صغيرة.

إن هذه الزاوية شبه المهجورة والمناظر الليلية والحيطان المكسورة التي قد تم ترميمها حديثاً كي تصبح قابلة للاستعمال والدفاية وضوء الشمعات، كل هذه مجتمعة كانت تقدم جواً مليئاً بالأسرار. قبل تشريف الشيخ علي كان قد أحاط الجو نوع من السرية ثم فجأة حدث هرج ومرج. بعض الناس تقدموا إلى الممر والكثير منهم قد أخذوا أماكنهم في القاعة التي لا تقل عن مراصد الاحترام والتقدير. وهنا ظهر الشيخ على المنصة المفروشة ووقف الناس في الطابور لتقبيل يديه بل قدميه.

بعد قليل هدأ الجو إذ انتهت تأدية امراسم الرسمية لإبداء التقدير والاحترام. ثم بدأ الشيخ علي بافتتاح الجلسة بالذكر الجهري. في مكان مهجور وخرب بدأ يرتفع صوت **(الله، الله)** وازداد الخوف مع كل ضربة أن النداء الغيبي سيأتي في أية لحظة. نادى المنادون بكثرة وخرجت أنفاسهم قوية من شدة المبالغة والحماس الشديد لكنهم ظلوا محرومين من النداء الغيبي. والآن بدأ الشيخ الذكر القلبي قائلاً: كما هو معروف وأنتم على علم بهذا: أن كلمة الذكر بالجهر هو من أجل أن تصبحوا مستعدين للتجارب الروحانية والذكر الحقيقي هو الذكر القلبي الذي يجعل الله ساكناً في قلوبكم بشكل أن القلوب فيما بعد تصبح مأوى وملاذاً لتجليات الله ولو لم يذكر؛ أي أنكم تغسلوا أنفسكم بالذكر الجهري وتطهروا أنفسكم من أدران القلوب ثم بالذكر القلبي الصامت أستحضروا عظمة الله في قلوبكم. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي خالية تماماً من هذين الذكرين الجهري والقلبي وفي هذه المرحلة تصبح قلوبكم مأوى وملجأ لتجليات الله وحده. ثم قال: والآن تبدأ المراقبة. مراقبة اسم الذات الإلهي. اغلقوا العيون والأفواه وافتحوا عيون القلوب.

في الذكر القلبي الصامت هذه كانت قوة الله الضاربة التي تهوى على القلب مباشرة. عدد كبير من الحضور كانوا يتمايلون ببطء يميناً ويساراً وهم جالسون في أماكنهم والبعض الآخر وهم مغمضو الأعين يحركون مناكبهم يميناً ويساراً بشدة وكأن كرباجاً يضرب قلوبهم باستمرار. بعد الربع أو الثلث ساعة عندما تم ضرب القلوب إلى حد ما قال الشيخ علي بصوت مرتفع: «**اللهم صل على**» والمناكب المهتزة القافزة توقفت فجأة عن الحركة والقفز وقال: «**الصواب يجري في الدماء**» وقال أيضاً: كانت طريقة مشايخنا أن الأنفاس لا تكف عن الذكر فنحن نحاسب على كل نفس، وواجب علينا أن نصل إلى الدرجة التي يكون النفس بنفسه مشاركاً في ذكر الله.

والاصل الثاني هو: النظر إلى القدم، أي أن تكون العينان مركزتين على القدمين ولا حاجة للنظر هنا وهناك. وليس عليك أن تلاحظ ما ذا يقول الناس عنك. فالمسلم عامة يكون تركيزه في الصلاة فقط وعندما يقوم للصلاة فعيناه تكونان مركزتين على الأرض وفي الركوع يرى أعقاب رجليه وفي حالة السجود تكون عيناه مركزتين على الأنف. وحينما يجلس فينظر هذا المصلي إلى حجره.

هذا التركيز هو تركيز عامة المسلمين الذي يحدث لهم أثناء الصلاة فقط. أما نحن أهل السلوك والتصوف فحالة التركيز هذه تكون مستمرة معنا على الدوام. يلزمنا أن نكون في وضع الصلاة بإستمرار.

يروى عن سيدنا ربيع ابن قاسم انه كان دائماً مطأطأ الرأس، فالناس الذين لم يكونوا على معرفة به كانوا يحسبونه كفيفاً وهذا هو معنى الآية الكريمة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

والأصل الثالث هو: السفر إلى الوطن، والمراد به أن يتتبع السالك ويحاسب باطنه بالاستمرار ويعرض عن الزهو، والمباهاة والكبر،

والغرور، وحب الجاه، والسلطة وحب المال. وعندما ينشأ أي حب أو هوس للدنيا في داخله فعليه ان يقمعه بالبحث عن الله.

عليكم أن تعرفوا جيداً أنه لا سبيل للوصول إلى الله إلّا أن نزين ونجمل قلوبنا بحب رسول الله (ﷺ) وحب أولياء الله. كذلك يجب أن نشغلها بالصدقات والأعمال الخيرية وزيارة مقابر أولياء الله. كما ينبغي ان يكون كل واحد منا مشغولاً بالأكثار من الأذكار والأوراد. وإذا فعلنا هذا فسوف نجد أنفسنا في حالة الخلوة مع الله. ويصبح الذكر القلبي جزءاً أساسياً من حياتنا في النوم واليقظة وفي القيام والقعود. الصوفي الحقيقي يكون في الظاهر موجوداً بين الناس لكنه في الواقع يتواجد في مكان آخر. هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم على هذا النحو: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

من أقوال شيخنا خواجه نقشبند: ينبغي لمريدينا أن تكون أيديهم في الظاهر مشغولة في التجارة لكن قلوبهم يخرج منهاعلي الدوام قول لا إله إلّا الله.

والمرحلة التالية هي: الذكر ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاذكروا الله كثيراً أيها الأحباب حتى تصلوا إلى الغاية أو يشرفكم ويكرمكم برؤيته ومشاهدته.

في مصطلح التصوف يقال لهذا العمل أيضاً مشاهدة الحق سبحانه وتعالى.

والمرحلة التي تليها هي: العودة والرجوع إلى الله. عندما تعتاد أيها الحبيب على الذكر ويصبح لقلبك ذكر الله الصامت عملاً طبيعياً فعليك أن تنادي الله بالاستمرار قائلاً: **يا إلهي أنا طالبك، أنا أريد رضاك.**

وأجعل هذه الحالة تستقر في باطنك بكل ثبات وقوة حتى تسمع دويها وصداها كل لحظة.

وتأتي بعدها مرحلة أخرى وهي تعرف باسم المراقبة. في هذه المرحلة يطرد السالك والمريد من قلبه كل الأفكار والآراء السلبية بكل شدة. وحينما يتطهر القلب من الخوف والطمع ومن جميع الدوافع الدنيوية فتأتي منزلة فناء القلب.

في هذه الحالة الدنيا بكل زينتها وزخرفها لا تساوي جناح بعوضة والجسد الإنساني بصبح في غني عن الجوع والعطش ومثل هذه الإحتياجات البشرية إلى حد كبير. بعد ذلك لا يبقى للمريد والسالك أي فرصة للضلال الفكري ويصبح ذاكراً لله (ﷻ) كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. عندما نصل إلى هذه المنزلة فعلينا كما علمنا مشايخنا أن نتابع أنفسنا باستمرار، هل اللحظة السابقة مرت في ذكر الله أم لا؟ وبفضل هذه النعمة تكون ألسنتنا رطبة بالشكر والاستغفار على نعم الله وكأننا أصبحنا جاهزين للحضور في حضرة الله إلى حد ما. وإلى هذه النقطة تشير الآية الكريمة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. وهذه المرحلة تسمى في مصطلح المشايخ «**الوقفة الزمنية**» لكن لم تنته هنامن مرحلة أهل القلوب.

المرحلة القادمة هي «الوقفة العددية». ذكر النفي أو الإثبات عليك أن تؤديه في الأعداد الوترية؛ لأن الله وتر يحب الوتر وله نسبة خاصة به. في أول الأمر أذكر الله في نفس واحد من ثلاث مرات إلى واحد وعشرين مرّة، ولو اضطررت للتوقف فلتتوقف على عدد وترى. إبدأ الذكر على هذا النهج، ثلاث مرات ثم خمسة وهكذا بالتدريج تصل إلى الهدف وهو واحد وعشرون مرة في نفس واحد. وأعلم أن سر الأعداد لا يعرفه إلّا الخواص أو الراسخون في العلم. وما عليك إلّا أن تصل إلى عدد واحد وعشرين مرّة من الذكر وإن لم تستطع الوصول إلى النتيجة المنشودة فأعلم أن قلبك إلى الآن لم يندمج بشكل كامل مع الذكر القلبي الصامت.

على السالك أو المريد أن يضع نفسه على هذا الطريق من جديد بكل قناعة، فإن جاءت النتيجة إيجابية للوقفة العددية، ففي هذه الحالة عليه أن يعد نفسه للمرحلة الأخيرة وهي الوقفة القلبية. في هذه المرحلة لا يحتاج القلب لشيء آخر غير الله وصدق مولانا رومي إذ قال: إن البقرة وكذلك الحمار يسبحان الله فإن ذكر الإنسان الله أيضاً بدون شعور فما الفرق في هذه الحالة بين الإنسان والحيوان.

أعزائي الكرام! علمنا مشايخ النقشبندية أن نحصل في الذكر الإلهي على مكانة أخص الخواص. والأمر اليقيني أن الوصول إليها ليس بهين لكن باتخاذ وسيلة مشايخ النقشبندية والاستعانة بأرواحهم الطاهرة يصبح الأمر ميسوراً وسهلا.

ركّز الشيخ على هذه الجملة بصفة خاصة ورفع عينيه إلى السقف وتوقف لحظة ثم قال بصوت جهور: «**إلهي بوسيلة وجاه مشايخ النقشبندية**»، وبعد ذلك بدأ المجلس كله بصوت واحد وبنغمة خاصة يصلي ويسلم على النبي بصيغة: «**اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد**».

لفترة غير قليلة بدأت هزات الصلاة والسلام تصيب القلب والعين ثم قال: اللهم صل على محمد كأنها كانت إشارة إلى أن الصحبة القادمة في انتظار أن تبدأ والحضور أصبح على أهبة الاستعداد للاستماع. قال الشيخ: الوسيلة تكمن في داخلها قوة كبيرة، بهذا العمل تستطيع أن تقيم علاقتك مع القوة المحركة للكون. من رسول الله (ﷺ) إلى صاحبه الخاص أبي بكر الصديق ومن جعفر الصادق إلى الشيخ بهاء الدين النقشبندي ومن ثم جميع شيوخ السلاسل الذهبية بمن فيهم الشيخ عبدالله الداغستاني وشيخنا ومولانا الشيخ ناظم النقشبندي - أمد الله في عمره - يأتي كل هؤلاء ليكونوا ظهيراً لك. إن أرواح جميع مشايخ النقشبندبة تكون مستعدة كل حين وآن لمؤازرتك ومساندتك.

والجدير بالذكر أن الشيخ ناظم يتصل بالشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً ومن ثم فهو يجمع ويحيط بجميع كمالات هاتين السلسلتين الكبيرتين. سبحان الله كم أنتم سعداء، المدد يا خواجة. يا عبد القادر الجيلاني شيئاً لله. يا رسول الله. هكذا نادي الشيخ الأرواح المقدسة وهو يلح ويبكي. كان بادياً على وجهه شيء من مشاعر الرهبة والقلق.

معظم الحضور في المجلس شعروا بالحماسة تدب في أرواحهم ثم بدأ الناس فجأة يصلون ويسلمون على رسول الله بشكل غنائي.

ثم قال: إن أفضل وقت للتوسل بالشيخ هو وقت التهجد وأن يتواصل معه مرتين فذلك أفضل. وطريقة التوصل والاتصال هي أن يقرأ المتوسل سورة الفاتحة مرة وسورة الإخلاص ثلاث مرات. ثم يقول المتوسل: يا إلهي كل ما قرأته يصل ثوابه إلى الروح الطاهرة لرسول الله (ﷺ) وإلى أرواح جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين والصحابة والتابعين وأولياء الله الصالحين وبصفة خاصة مشائخ النقشبندية وأن يصل ثوابه إلى أستاذ شيخنا مولاي ناظم وهو الشيخ عبد القادر الداغستاني. ثم يقول: إلهي بحرمة شيخ المذنبين. إلهي بحرمة الغوث الحالي وقطب الزمان الشيخ بهاء الدين النقشبندي وجميع شيوخ النقشبندية.

والأفضل أن يذكر أسماء الشيوخ فرداً فرداً. إن الناس الذين يواظبون على هذا يعلمون أنهم لو لم يستطيعوا التوصل إلى الشيخ في المرحلة الأولي فإنهم حتماً يستطيعون الحصول على التفات الشيخ.

أحبائي الأعزاء! إن الالتفات نوعان؛ الأول أن يغير الشيخ قلبك بتصرفه. لكن هذا الوضع ليس دائما، والطريقة الثانية هي أن تطيع الشيخ وتحب ما يحبه وتكره ما يكرهه وتسكنه في قلبك وتجعله راضياً عنك. فبهذه الطريقة يتولد في قلب الشيخ نفسه حبك ويتعلق قلبه بك. ومن ثم

حينما يلتفت الحق تعالى إلى الشيخ ويشمله بعناية خاصة في هذه الحالة عندما تكون موجوداً في قلب الشيخ من البداية فبكل تأكيد ستحصل أنت أيضاً على نصيبك من هذا العطاء الإلهي.

للتوسل والالتفات والاتصال بالشيخ لا بد من زيارة مقابر شيوخ النقشبندية فهي وصفة مجربة. إن شيخ شيخنا ناظم عبد القادر الداغستاني كان قد أمره بأن يجلس على مقبرة الشيخ عبد القادر الجيلاني المباركة لمدة ستة أشهر بنية المراقبة. إن الكشف والكرامات التي ترونها في شخصية الشيخ هي نتيجة حتمية لفيض أرواح هؤلاء الشيوخ الكرام. إن شيخنا يرى ما لا ترى أعيننا. هو يخبرنا ماذا سيحدث لنا في المستقبل من الحوادث والوقائع؛ لأن عينيه تكونان في الملأ الأعلى بسبب فيض شيوخه. إن هذا الذكر الإلهي الذي تذكرونه لا تحسبوه هينا؛ لأن «**نداء كن**» خلق الكون والصوت المسكين الفقير العاجز للفظ الجلالة «**الله**» يحكم مستقبل هذا الكون. السفهاء سيقولون ما هذا الذي تردده قائلاً «**الله الله**». أي إسلام هذا. إن السفهاء بكل تأكيد هم سفهاء فهم، هم قلقون أن الإسلام الحقيقي بدأ ينتشر وينال القبول بين الناس. إن الإسلام الذي يعلم الناس الطاعة حيث لا يكون هناك مجال لأهواء الناس فيما يحبونه وفيما يكرهونه. إنه إسلام الرسول وأولياء الله ولا يناله إلّا من يجلس تحت أقدامهم.

أخبرنا نبينا (ﷺ) أن المسلمين في آخر الزمن سينقسمون إلى (٧٣) جماعة وهذا هو الذي يحدث اليوم، فواحد منهم يقول: أنا مسلم كمالي «**إشارة إلى كمال أتاتورك**»، والآخر يقول: أنا مسلم علماني، والثالث يقول: أنا مسلم ولكن في نفس الوقت أنا شيوعي، والرابع يقول: أنا ديمقراطي وأنا داع لحقوق المرأة. يا الله كم من الفرق هذه التي انقسم إليها المسلمون. كل هؤلاء انحرفوا عن جادة الطريق. إن الإسلام الحقيقي هو إسلام رسول الله (ﷺ) الذي وصل إلينا عن طريق السلسلة

الذهبية لمشايخ النقشبندية من صدر إلى صدر. واليوم الدنيا كلها خائفة ومرعوبة ومرتجفة من الإسلام الحقيقي. خذوا على سبيل المثال اليهود الذين يقولون إننا لسنا قلقين على كونكم مسلمين لكن هناك في القرآن توجد بعض الآيات التي لا نقبلها. هم يطالبوننا بألّا تكون عقيدتنا على: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. انظروا ماذا يقولون هؤلاء فنحن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان نعلن في خطب الجمعة: لا يوجد على ظهر الأرض دين مستند وموثوق ومقبول عند الله غير دين الإسلام. وهم يطلبون منا أن نكون مسلمين حداثيين.

إنهم يعترضون أيضاً على أزيائنا وملابسنا. يريدون أن نبدو أيضاً مثل هؤلاء الشياطين. إنني أقول لهم: مبروك عليكم قبعة البيسبول فرؤوسكم تبدو مثل البيسبول خالية من الروحانية. عليكم أن تضعوا على رؤوسكم ما شئتم. هم يريدون منا أن نترك ارتداء الملابس الفضفاضة التي تعطي نوعا من الوقار والوجاهة للرجل بعد ارتدائها. هم يريدون منا أن نرتدي الجينز الضيق مثلهم وبهذا يتوقف جريان دمائنا أيضاً وبالتدريج نفقد نحن أيضاً رجولتنا مثل أهل الغرب.

في الواقع هؤلاء يخافون من الرجال والمسلمون هم بحق رجال. أهل الغرب يريدون أن يلتف حولهم النساء بدلاً من الرجال لكي يسيطروا بسهولة عليهن ثم هؤلاء هم الذين يحتفون ويهتفون بالمساواة بين الرجل والمرأة. هؤلاء يطلبون من النساء أن يكن مثل الرجال. أي خطة هذه؟ إنها خطة شيطانية، خطة للسيطرة على العالم. ألا تعلمون أن الله وعدكم أنه لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يطفئ نور الله ما دام على الأرض موحد واحد على قيد الحياة. وما دامت الفرقة الناجية من المسلمين باقية على ظهر الأرض وسنة الرسول (ﷺ) ما زالت متبعة لن يستطيع الباطل أن ينجح في خطته.

اليوم من هم أكثر إتباعاً وعملاً بسنن النبي (ﷺ) من مريدي النقشبندية؟ نحن نرتدي ملابسنا حسب السنة النبوية. نحن نأكل ونشرب ونتحرك على الأرض حسب سنة النبي (ﷺ). نحن نسعى دوماً ألا تفوت أو نترك أية سنة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم. إن أتباع الرسول (ﷺ) الصادقين لا يمكن إخضاعهم وإضلالهم لغير الله ورسوله في أي وقت من الأوقات. قلوبهم عامرة بنور الله والقوة الكونية تساندهم. لو غضبوا لتغير الواقع في غمضة عين لكن أمرنا أن نسيطر على غضبنا. ألا تعرفون الأحاديث التي تبين أنه قد جاءت الفرص أكثر من مرّة أمام الصحابة (رضي الله عنهم) ولم يتمكنوا من البقاء أمام الرسول (ﷺ) وهو في حالة الغضب. إن الرسول (ﷺ) حينما كان يتكلم في حالة الغضب فكأن الكون كله بدأ يرتجف. هذا هو جلال أهل الإيمان الذي ورثناه. هؤلاء الغربيون يريدون أن يجعلونا نساء مثلهم حيث يقول الولد عندهم عن والده إنه مثل أمي تماماً، فإني لا أخاف منه بل هو الذي يخاف من والدتي. فهذا نوع من المرض، نوع من الأوبئة منتشر في الغرب ولا يمكن علاج هذا المرض بالأدوية الطبية أو الفياجرا. إن هؤلاء الأوروبيين حينما ينظرون إلى أحوالنا الحالية فيعتقدون أن الأمة الإسلامية أيضاً مصابة بالعقم، لكن الأمر ليس كذلك. مازال هناك عباد لله يعيشون على ظهر هذه الأرض وهناك الكثير والكثير وراء الأحجبة والأستار منتظرين الوقت المناسب للظهور.

أيها الإخوة: إن الظروف صعبة ونحن نعيش في آخر الزمان. قال رسول الله (ﷺ): في آخر الزمان حينما ينسي الناس سنتي.. ماذا قلت؟ السنة! ما هي السنة؟ هل تربية اللحية سنة؟ نعم يا سيدي بكل تأكيد. هل وضع العمامة على الرأس سنة؟ طبعاً. هل استخدام السواك سنة؟ بكل تأكيد. مع إصلاح الباطن لا بد من تجميل الظاهر وتزيينه حسب السنة. إن بعض الجهلاء يقولون: لا تنظروا إلى ظاهرنا وانظروا إلى قلوبنا. والله

إنها لخدعة ومغالطة وإنها وسوسة شيطانية. البعض يقول: لو كان الرسول (ﷺ) اليوم موجوداً بيننا لفعل كذا وكذا، لكان يعيش كذا ويرتدي كذا. أيها الضالون المضلون ما هذا الذي تتفوهون به؟ هل كان الرسول (ﷺ) يختار ملابس الكفار؟ هل كان يبدو مثلهم؟ أستغفر الله ثم أستغفر الله ما هذا الحديث الخبيث الذي يتحدث به المسلمون الذين وقعوا فريسة للغرب والذين غزتهم الحضارة الغربية. طهروا قلوبكم من هذه الوساوس الشيطانية. لا مكان في الإسلام للقيل والقال ولا مكان في الإسلام لحرف إن ولو. إن الإسلام الحقيقي واحد، وتذكروا أن في الإسلام تعاليم وتوجيهات لاختيار خمسمائة معروف والابتعاد عن ثمانمائة منكر. إن الذين يريدون السير على الطريق المستقيم فالله يهديهم ويرشدهم إليه. لو أراد شخص ما اليوم أن يكون مسلماً حقاً ومتبعاً للسنة النبوية لأصبح مجرد سيره في الشوارع والطرقات أمراً صعباً. قال الرسول (ﷺ): «في آخر الزمان سيصبح ارتداء اللباس على سنتي صعباً ويكون حاله مثل الرجل الذي يسير وعلى رأسه نار تشتعل». ونحن نعيش اليوم هذا الزمان. لو أنك إرتديت البذلة ورابطة العنق فبهذا توفر لنفسك الأمان التام وأما الذين يرتدون الملابس طبقاً للسنة النبوية فالدنيا كلها تنظر إلى هؤلاء باستنكار متسائلة ما هذه الملابس. إن اتباع السنة ليس أمراً هيناً. وعلى الرغم من أنه شاق إلّا أننا لن نتخلي عنه بأي حال من الأحوال. بعد ذلك بدأ الشيخ يصلي ويسلم على النبي (ﷺ) بهذه الصيغة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم. وإتخذ هذا الذكرالمتناوب مرة أخرى شكل حلقة في المجلس. بدأ الناس لفترة ترديد: الله حق. الله حي، حي، حي.. حق، حق، حق.. يا حي، يا قيوم. بدأ صوت هذا الذكر يدوي في المجلس ثم قرأ الشيخ بصوت عال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ثم استعد الناس لتلقي التعليمات التالية.

هذا، وكان قد ازداد إلى حد ما انفعال الشيخ فقال في غضب: إن الذين يريدون القضاء علينا عليهم أن يدركوا أن الله قد قذف في داخلنا نوراً لا يمكن إطفاؤه وكيف تعرفون أن الدنيا خلقت من نور عليكم أن تسموه ذرة أو جزئ. ففي الشمس والقمر والأرض والسماوات يسري هذا النور وما بداخلنا هو نفس النور المحمدي الذي هو في الواقع نور الله، نور خلق الكون. وجاء إلينا نفس النور عن طريق الأنبياء والمشايخ. إن الله نفسه نور: «**الله نور السماوات والأرض يهدي لنوره من يشاء**» فلا قدرة لهذا الكون أن يدوم بدوننا. الخطة الشيطانية لن تنجح في أي حال من الأحوال.

لقد حان وقت المعركة الفاصلة بين الحق والباطل. والمهدي (عليه السلام) في انتظار الإذن للظهور مع تسعين من خلفائه، والشيخ ناظم حقاني قد بشرنا بأن وقت قدومه قد اقترب وهو الآن مختبئ في غار عميق بصحراء الربع الخالي في الجزيرة العربية وآلاف من الجن مسخرون لحراسته. في القريب العاجل سيسمع أصوات نفير المعركة الفاصلة. ستنقلب الدنيا ويصبح عاليها سافلها لكن المؤمنين لن يتأثروا بهذا الزلزال مطلقاً ومتبعو الطريقة النقشبندية هم في الواقع راكبون على السفينة المهدية وهي في الأصل سفينة الله وربانها هو الله وأولياءه الذين يؤدون واجباتهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. مع قراءة هذه الآية توقف الشيخ لحظة ثم رفع صوته قائلاً: «**الله، الله**» ثم بدأ يستغفر الله بشيء من التنغيم قائلاً: أستغفر الله، أستغفر الله. ثم قام بالاستغفار بأسلوب الصعود والنزول. وشاركه في هذا الاستغفار شركاء المجلس جميعاً ثم حان وقت انتهاء المجلس إذ بدأ ترديد الأدعية المأثورة المعتادة للمشايخ. بدأ الجو كله يدوي فيه صوت البكاء والتضرع، وهو يدعو: يا مفتح الأبواب، يا مسبب الأسباب، يا غياث المستغيثين. وفجأة رفع الشيخ إصبع الشهادة وقرأ الآية التالية: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. ثم أشار

بأصبعه للشهادة إلى الأرض وتوقف لحظة ثم قال: الرابطة الشريفة مع السيد الشيخ محمد ناظم الحقاني وسيدي سلطان الأولياء السيد الداغستاني. ثم استمرت الأوراد والأذكار تارة يرتفع الصوت بـ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ وتارة تتلى الآية ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ حتى وصل مجلس المشايخ هذا إلى نهايته.

لقد مرّ الوقت سريعاً في هذه الأجواء المليئة بشجن لفظتي «**هو، ها**» ولم أعلم أن الساعة دقت الثانية صباحاً .أما أهل المجلس فكانوا مفعمين بنفس النشاط والوله ولم يكن هناك على الصعيد العام أي أثر للتعب والاكتئاب. بل البعض كانوا يحسون أنهم دخلوا في عالم كله نشاط وسعادة وبداخلهم أكثر انشراحاً وشوقاً ونشوة. هذا المجلس الذي يدوي فيه مرة صوت هو ومرة يخيم عليه الذكر القلبي الصامت. تارة كان المجلس يأخذ شكل إلقاء الوعظ وكان يشعر كل المستمعين بأنهم كيان واحد بسبب إختلاف ألوانهم وأشكالهم. إن الشيخ على حينما رفع أصبع الشهادة إلى السماء وهو يتلو الآية الكريمة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ «فكثير من المريدين وهم شبه مغمضي العيون كان يبدو عليهم ظاهرياً وكأنهم تواصلوا عبر الشيخ علي مع الله جل جلاله وعز شأنه مباشرة». على الأقل كان على وجه السيد هوجا نفس الحالة من الطمأنينة التي تحدث للمؤمن بعد ما يفوض أمره إلى الله ولكن الشيخ علي حينما وجه إصبع الشهادة إلى الأرض وأراد محاولة الاتصال بشيخه فلم يستطع في أثناء هذه الحالة وهو بنفسه مر بهذه المرحلة بسرعة وبقدر من السماحة. يقول إن الاتصال مع الشيخ ليس في مقدرة أي شخص. إن الاتصال بالشيخ المعاصر أو بشيخ الشيوخ ومن ثم الاتصال مع رسول الله (ﷺ) فهذه الفرصة لا يحظى بها إلّا قلة قليلة من الناس ولكن المريدين مأمورون أن يستمروا في محاولاتهم وأن لا يصابوا باليأس.

انتهى المجلس محملاً ببشارة غير عادية فالناس كانوا مستبشرين وكانوا مطمئنين على أنهم فوضوا أمرهم إلى الله من ناحية ومن ناحية أخرى كانوا معتمدين إلى حد ما على إعانة شيخ الشيوخ والاستعانة والتأييد من قبل رسول الله ومن ثم نصر من الله الذي سيأتي قريباً لنصرتهم ويأذن للمهدي بالظهور. بناء على هذا وذاك كان الناس مطمئنين إلى حد ما بأن القادم سيأتي قريباً ويصلح أحوالهم.

أخونا هوجا لا أدري ماذا حدث له لأنه عندما ذهب لمصافحة الشيخ علي مودعاً جلس ممسكاً يده قائلاً بكل إلحاح وبأسلوب التوصل: يا سيدي أصبحت الظروف الآن غير محتملة. قل للشيخ ناظم أن يدعو الله وقل للشيخ نقشبندي كذلك وأطلب من شيخ الشيوخ وجميع شيوخ السلسلة الذهبية أن يرفعوا كل هؤلاء مرافعة عجزنا في خدمة الرسول (ﷺ). والشيخ ناظم كما هو معلوم حبيب الغوث الأعظم فقد كان مجاوراً لمقبرته في بغداد وقضى وقتاً طويلاً هناك ونال من فيوضه وبركاته. سبحان الله كم هى عظيمة مكانة الغوث الأعظم. إن أعناق جميع الأولياء تحت قدميه. لئن أصر وألح فليس على الله بعزيز أن يأذن بظهور المهدي. يا سيدي كثر الهرج والمرج والظلم وصل إلى نهايته. اليوم الواحد والعشرون والقصف الإسرائيلي مستمر على أهلنا في قطاع غزة والدنيا بأسرها تتفرج، وأفغانستان تم تدميرها. أما العراق فهي تتعرض باستمرار لفوضى خلاقة وحرب أهلية. الأطفال اليتامى الأبرياء والنساء الأرامل في مخيمات اللاجئين. إن المهاجرين واللاجئين في العالم كله نسبة المسلمين منهم (٨) بالمائة. وقد كبل العالم الإسلامي بقيود الظلم والاستبداد الشديدة من الولايات المتحدة الأمريكية. ووصل الحال الآن أنه لا يستطيع أحد أن يحتج على هذا الاستبداد والظلم البربري لأنه لا سمح الله معتقلات التعذيب مثل جوانتانامو وغيرها من المعتقلات العديدة تجعلها عبرة لكل من يتجرأ على الاعتراض والاحتجاج. فإن لم

يأت المهدي الآن فمتي سيأتي؟ مع هذه الكلمات بدأ حلقوم هوجا عثمان في حالة البكاء ثم قام بإمساك جبة الشيخ علي بعاطفة شديدة مع عينيه الباكيتين. رفع الرأس ونظر إلى الشيخ لعله قد رفع يديه للدعاء لكن لم يحدث شيء من هذا.

الشيخ علي ربت على ظهره وقال: يا عثمان أمرنا بالصبر وغير مسموح لنا مطلقاً التدخل في أمر ربنا. هذا سر لا يعرفه أحد على ظهر الأرض غير الشيخ ناظم ومشايخنا لا يخفي عليهم هذا الواقع المرير وهم على علم تام بما فيه المصلحة والحكمة. هم يعرفون جيداً بأن الوقت لم يحن بعد لظهور المهدي. انتظر يا هوجا انتظر ما علينا إلّا الانتظار والصبر. إن أولياء الله منحوا معجزات وكرامات كثيرة وشيخ مشايخنا يتمتع بعناية خاصة من الرسول (ﷺ). لو أراد لدمر الأعداء في غمضة عين بقوته العظيمة لكنه لا يستطيع أن يفعل هذا فأصحاب المكانة العالية أمورهم ليست هينة.

ظل هوجا عثمان واقفاً بدون أن يشعرو هو ينظر إلى الشيخ علي للحظات وهو مبهوت. ثم خرج وقد تثاقلت قدماه وإمتلأ قلبه بالهموم. إن إضطراب وقلق هوجا وهمه بالأمة كان قد حرك في قلبي عاطفة الحب والاحترام له لأنه بدا لي أن هوجا طالب صادق قلق من الظروف وهائم في البحث عن الطريق. بمجرد الركوب في السيارة ضغطت على يده بكل حب واحترام وخرج من لساني عفوياً (يحفظك الله يا شيخ عثمان). سألني أي دعاء تقرأه لحفظك ولرفع البلايا؟ قلت له إن الدعاء المحبب لي هو (**اللهم أرني الأشياء كما هي**). إنه دعاء مأثور عن الرسول (ﷺ) ومعناه يا رب اطلعني على الحقيقة للأشياء. قال: إنه كلام كبير ولا يمكن نيله بسهولة. إن الله قد أطلع أولياءه عن حقيقة الأشياء. إن شيخنا ناظم علي موهوب ومطلع على أحوال المريدين وهم على مسافة مآت الأميال

وينجدهم. وهناك وقائع عديدة حسب علمي إذ رأى المريدون وقت النزع من جاءهم ليأخذهم إلى الجنة.

إلى الجنة؟ سألته باستغراب. قال نعم! في عالم النزع الأخير حينما ترفع جميع الأحجبة فالميت يرى ما لا نستطيع نحن مشاهدته. حدثت عدة حوادث عندما كانت سكرات الموت بادية على الميت وفجأة ظهرت على وجهه علامات الطمأنينة وقال هذا المتوفى: انظر لقد جاء شيخنا. لكن كيف عرفوا ماذا رأى الميت؟

هو يرى شيخه وقت الاحتضار حيث يكون هذا عصيباً عليه لكن إن كنت بايعت الشيخ الكبير صاحب المعجزات والكرامات فتصبح جميع المراحل سهلة وميسورة. في هذه الحالة ملك الموت لا يقبض روحك بل شيخك هو الذي يقبض روحك ثم يسلمها لملك الموت. هذا لأنك بعد أن بايعت الشيخ فقد منحته السلطة الكاملة عليك. إن هذا يحدث لشيخ عادي فما بالك بشيخنا ناظم. إن له شأن عظيم فهو يعتني بموتى مريديه أيضاً وعندما يأتي الملكان منكر ونكير للسؤال ويسألان الميت من ربك وما دينك. فالشيخ ناظم يهمس الجواب الصحيح في أذن مريده. ولهذا أقول لك: عليك أن تبحث أيضاً لنفسك وبسرعة عن شيخ ولا تتجول هنا وهناك بدون معين فليس هناك ضمانة أمان للحياة والموت.

ربت على كتف السيد هوجا عثمان فبدأ يبكي وهو يقول لي ناصحاً. ورأيته جاداً في نصيحته هذه لي. وقبل أن يعين لي شيخاً ويهتم بنجاتي بشكل مضمون قلت له بعد تغيير الموضوع: أليس ظهور المهدي مقرر في السلسلة النقشبندية وكما بشر الرسول (ﷺ) الشيخ ناظم في عالم اليقظة وكما هو معلوم إصرار الشيخ أحمد السرهندي على هذا الظهور. لكن كيف يتعين أن يكون المهدي من طائفة نقشبندية معينة. هل يكون من النقشبندية الحقانية أم الخالدية أم المجددية أم الأسلمية. فإن كان من

السلسلة الخالدية فما فائدة إمساك تلابيب ناظم حقاني؟ في هذه الحالة لا بد من الذهاب إلى الشيخ محمود أفندي ولكنه يقول: **إن المهدي لن يأتي في هذا القرن.**

بعد اعتراضي هذا سكت السيد هوجا عثمان وبدا لي كأنه يبحث عن جواب. فكرت في نفسي لا أدري هل سألتقي بالسيد هوجا بعد ذلك أم لا. لم لا أسلمه بعض الأسئلة وأتركه لأن الأسئلة لو وضعت بكل أبعادها في مكانها لسهل على السالك الوصول إلى الحقيقة بدون تأخير. وبناء على هذا قلت للسيد هوجا: يا سيدي هوجا هل لي أن أقول لك أمراً؟ فرآني وعيناه شبه مغمضتين وأخرج من جيبه سبحة صغيرة وحركها بأصابعه ثم جلس بكل استعجاب.

قلت له: يا هوجا هل لي أن أقول لك الحقيقة؟ لن يأتي الآن أحد. لقد أتى من كان عليه أن يأتي وهو خاتم الأنبياء والرسل (ﷺ) الذي سلمنا رسالة الله الأخيرة والآن يرجع الأمر إلينا أن نعمر هذه الدنيا ونصلحها في ضوء هذه الرسالة. نحن أتباعه وخلفاؤه وفي أيدينا تجليات الوحي في صورة القرآن المجيد. والآن علينا نحن أتباع محمد (ﷺ) أن نؤدي هذه الأمور فلن يأتي بعد اليوم عيسى المسيح ولا المهدي المنتظر ولا إلامام الغائب. فكر يا هوجا مليا. كم من المراحل الحرجة مر بها تاريخ الأمة الإسلامية خلال أربعة عشر قرن من الزمان وكاد مصباح الأمة أن ينطفئ بعد وفات النبي (ﷺ) مباشرة. يا هوجا كيف تعرضت الأمة للشكوك والشبهات ثم حدثت فتنة مقتل عثمان (رضي الله عنه) وقلبت هذه الحادثة حياتنا الاجتماعية رأس على عقب وشتتها ثم جاء اليوم الذي استشهد فيه سيدنا الحسين (رضي الله عنه) في زمن الفتن والتخاذل. ولم تتدخل عدالة السماء في حادثة استشهاد الحسين أيضاً وحينما سقطت بغداد على أيدي المغول ولم يظهر أي مهدي وانطفأ سراج سلطنة المغول وطوى بساط الخلافة

العثمانية التركية. كل حادث من هذه الحوادث المشار إليها كان أكبر وأعظم من سابقه. هذه الحوادث قد فرطت عقد حياتنا الاجتماعية لكن المهدي بقي في ملجأه منتظراً للإذن. فكر يا هوجا قليلاً: مادامت عدالة السماء لم تتدخل لمناصرة ومؤازرة فلذة كبد الرسول (ﷺ) فلماذا تتدخل لأمثالنا من المذنبين.

نظر إلى هوجا بحيرة شديدة وبدا لي كأنه يريد أن يقول لي شيئاً. توقف للحظات وهو شبه مغمض العينين ثم دعا لي أن يحفظني الله، وينصرني وقدم إلى سبحته الجميلة الغالية قائلاً: البركة البركة خذها ستنفعك في الذكر. سأطلع على كتبك وعليك أن تستخدم سبحتي لذكر الله سبحانه وتعالى. ومن خلال هذا العرض من جانب السيد هوجا تذكرت فجأة صديقي القديم المتصوف هاشم مهدي. ذات مرة رأيت في بيته كتب ابن تيمية فأبديت دهشتي واستعجابي منها حينئذ قال لي: في هذه الأيام أنا أقرأ ابن تيمية وهو يقرأ كتبي في قبره ثم أضاف: ذات مرة حلمت أن ابن تيمية يشكو مني فوضحت الأمر من ناحيتي وقلت له يا شيخنا المحترم قد حدث لك سوء فهم، اطلع على كتبي ثم أعطيته كتبي ورداً على هذا أعطاني ابن تيمية مجموعة من كتبه. ومن ذلك اليوم أنا أقرأ كتبه وهو مشغول في قراءة كتبي في قبره. وعندما أظهرت استغرابي من هذا الحديث قال لي هاشم: **ألا تعلم أن سلسلة التعليم والتعلم تستمر حتى بعد موت الإنسان.**

فمن خلال التعامل وجدت أن أكثر أهل القلوب يدمنون أسلوب معاملة النقد بالنقد سواء بسواء، خذ وهات وبناء على هذا التفكير أخذت سبحة هوجا ووضعتها في جيبي مع تقديم الشكر له.

في الصباح الباكر وأنا أتمشى على شاطئ البحر تذكرت سيد هوجا مراراً وتكراراً وكيف انتابته الحيرة عندما جاء ذكر الحسين (رضي الله عنه) فهل

هناك سيد أكبر وأعظم من الحسين بن علي (رضي الله عنهما). لو كانت لدى الروحانيين أية وسيلة للاتصال، أو الكشف، أو الكرامات، ولو كانت هناك أية طريقة حقيقة للوصول فمن يكون أكبر وأعظم روحاني، وعالم أسرار لهذه الدنيا الروحانية من الحسين بن علي (رضي الله عنهما).

إن السيد هوجا كان عاجزاً عن التعبير عن اضطرابه وقلقه في الكلمات. ففي الظاهر كان قد لجأ إلى المراقبة وعيناه شبه مغمضتين لكن قلقه واضطرابه كانا يشيران إلى أنه وقع فريسة للشكوك والشبهات التي دائما ما تصبح من نصيب الأمم المصابة بداء الأساطير. يقال أن اليهود المقيمون في ألمانيا النازية الذين كان قد أطلق سراحهم والمتدينون منهم قد انتابتهم حيرة شديدة بسبب هذا الأمرفمادامو هم أحباء الله، وهم الذين تشرفوا بحمل التوراة - الكتاب السماوي الأول - فهل من الممكن أن يسمح الله لأعدائهم أن يقتلوهم جهاراً نهاراً. ففي مخيم أوشوتز حيث كان يجري القتل المنظم لليهود على أيدي النازيين فكانت ألسنة معظم اليهود من الأطفال والشيوخ رطبة بالأذكار والأوراد. فمن كان يحفظ شيئاً من التوراة أو بعض أوراد التوراة كان مشغولاً في تلاوتها. إن اليهود كانوا على يقين وإيمان بأن الله سيتدخل مباشرة من السماء لإنقاذ أحبائه. وكان يدخل فوج وراء فوج في الغرفة النازية والمتفقهون منهم يزدادون في الأذكار والتلاوة. وفي النهاية بعدما تم القضاء على عدد كبير من الشعب اليهودي إحتل هذا السؤال الموجه من فقهاء ومفكري اليهود أهمية كبيرة هل هم فعلاً أحباء الله أم لا؟ وإن كانوا هم حاملو التوراة وعلى هذا فهم أمة مختارة فلماذا لم ينقذ الله أحباءه ولم يوفر لهم أسباب النجاح.

يقال إن هذا الحادث قد زعزع الأسلوب الفقهي لليهود وأصبحت عقائدهم الدينية والكونية معرضة لأزمة كبيرة. واليوم هذا هو ما يواجهه

منتظرو المهدي المنتظر وهؤلاء بسبب الروايات المختلقة والموضوعة ينتظرون منذ قرون، يتطلعون إلى طريق السيد المسيح الذي سيأتي وينقذهم مما هم فيه.

١٥

سفينة النور

ذات يوم كنت أنظر من نوافذ فندقي إلى أمواج نهر الباسفور الهادئة ولعله كان هذا وقت العصر ولاح في الأفق السحاب الناصع البياض بسبب نزول المطر الخفيف وتوارت أشعة الشمس الذهبية خلفه عند غروبها بحيث لا أدري كيف تذكرت حكايات أهل الكشف عندما يبدو أن طريقاً من النورانبعث من كوخهم الغارق في الظلام متجهاً نحو السماء وذلك بسبب قيامهم الليل. يا ترى من يدري لعل سالكاً يكون جالساً في جبل أولوداغ البعيد في حال المراقبة. منذ عدة أيام كان قد وعدني مصطفى أوغلو وأعطاني أملاً كبيراً في أنه سيأتي بنبأ عظيم من جبل الراهب «**كيشش داغ**». يقال أن هذا الجبل الذي ظل وما زال ملجأ لرهبان النصارى إلى يومنا هذا يسمع صوت وقع أقدام لأشخاص مجهولين. وإن كان جبل أولوداغ في هذه الأيام يُعرف كمنتجع سياحي في فصل الشتاء حيث يأتي الناس من بلاد بعيدة للاستمتاع بالتزحلق على الجليد. لكن لأهل القلوب هذا مقام حافل بالأسرار حيث يجتمع قطب الأقطاب والأبدال الأربعون بجبل قاسيون سنوياً. ومن المستحيل أن يشترك في هذا الاجتماع السنوي شخص عادي وإن كان يرى أحياناً من بعيد السفينة النورانية للروحانيين وهي تجري على أمواج الباسفور أثناء سماع موسيقى

الجذب والسكر واللحن المليء بشجن أصوات «**هو وها**». كما يقول البعض إنها هلوسة محضة ولكن هوجا عثمان يقول أنه شاهد ذات مرة بأم عينيه هذه السفينة النورانية.

كنت تائهاً في مثل هذه التهيئات والأفكار ومنتظراً لمصطفى أوغلو لما سيأتي من الأخبار إذ رن جرس التليفون في هذه الأثناء. كان على الجانب الآخر وليد وساجد. قال: إننا قد جئنا من منطقة السلطان أحمد ففكرنا لم لا نحضر إليكم لنسلم عليكم إن كان لديكم متسع من الوقت وأنت موجود في الفندق ثم جاء مصطفى أوغلو أيضاً مبكراً ولم يكن متحمساً لعله لم يستطع العثور على الخبر الذي كان يبشرنا به منذ أيام. وعندما رأيته محبطاً إلى حد ما سألته قائلاً: يبدو أن رهبان جبل قيسون لم ينزلوا بعد في إسطنبول. رد علي: تبقت عدة أيام حتى نبلغ اليوم في الرابع عشر من شهر سبتمبر فاصبر قليلاً. ولكن هذه الليلة أنت مدعو في مجلس للروحانيين. وإن أردت أن تأخذ وليد وساجد معك فهذا مسموح لك والغداء سيكون على السفينة النورانية مع مجلس السماع الذي لا يخلو من المتعة وهو ليس أمراً هينا.

كلما أتيت إلى إسطنبول للاشتراك في المؤتمرات المختلفة والعديدة كان هناك حفل عشاء على الباسفور بأي شكل من الأشكال لكن حفل عشاء اليوم كان مختلفاً تماماً في الطابع والشكل، ففي قاعة السفينة شبه نصف دائرية كانت هناك الكراسي مفروشة في الجهات الأربعة وفي زاوية ما حيث كان منظر المنصة والمستمعون جالسون مخفضي الأعناق مفوضين أنفسهم بكل شوق. هذا ما كان يحس به من ينظر إليهم وكان عدد ملحوظ من الحضور في هذا الحفل يرتدون الجلابيب والعمائم وكانت قلنسواتهم المرتفعة واللحي البيضاء تعطي انطباعاً بأنهم شيوخ أهل الطرق والتصوف. كذلك كان الحضور مزيجاً بين الرجال والسيدات وإن كانت الأكثرية

الغالبة لأهل الغرب من أصل عربي. وفي بعض الأحيان كان يرى هناك ذوي البشرة البيضاء من أوروبا. وتبين الأمر بسرعة أن خاصة أهل السلوك من الجراحي والنقشبندي والمولوي والقادري والطرق الأخرى المختلفة التي توجد لهم مراكز في أمريكا وأوروبا فهم يأتون إلى إسطنبول لزيارة زوايا وتكايا طرقهم المختلفة. وهنا منذ عدة سنوات دخل عنصر الرقص المولوي مع رقص الباليه على أمواج الباسفور. لكن هذا النمط من حفلات العشاء قليل وإقامة مثل هذه الحفلات يتسم بالتنسيق بين زوايا الطرق الصوفية المحلية وذلك عندما يأتي إلى إسطنبول أفواج من السياح الروحانيين.

ودعت السفينة الشاطئ واستمر لفترة قليلة اهتزازها على نحو ما حتى استقرت أقدام الخدم وهم يحملون في الأكواب البلورية المشروبات ذات الألوان مختلفة والحضور كانوا قد أخذوا أماكنهم ثم ظهر شاب تركي كما يبدو من بشرته على المنصة لاستقبال الضيوف العرب باللغة العربية ورفع المغنون أعناقهم **ثم بدأوا بضرب الدفوف ليعزفوا بصوت عال مع الموسيقى لحن هذه الأنشودة:**

عرفت الهوي مذ عرفت هواك   وأغلقت قلبي عمن عداك

نفس اللحن والشجن والجذب والهياج بدا لي كأن هذه الأنشودة قد سمعتها من قبل **والمنشد كان يقول أيضاً:**

وقمت أناجيك يا من ترى   خفايا القلوب ولسنا نراك

أحبك حبين - حب الهوى   وحباً لأنك أهل لذاك

ضرب الدفوف كان يزداد باستمرار وإهتزت أجساد بعض المستمعين طرباً لما سمعوه. **وعندما وصل المغني إلى هذا البيت:**

فأما الذي هو حب الهوي   فشغلني بذكراك عمن سواك

ثم إستطرد حتى وصل إلى هذه الأبيات:

وأمـا الـذي أنـت أهـل لـه　فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي　ولكن الحمد في ذا وذاك

بدا مع هذه الأبيات كأن الصورة خرجت من إطارها المألوف. شيء من اضطراب السفينة المتحركة وشيء من صوت الموسيقى ذات الشجن وفوق هذا وذاك هياج المطربين ثم زد على هذا رقص المطربين وهالة الأضواء الساطعة المتغيرة فهي محصورة حيناً والمتسعة حيناً آخر بدا لي لثوان كأننا لسنا على ساحل إسطنبول بل نحن جالسون في زاوية مراكش أو في بلاد الأندلس في أيام ابن عربي قبل قرون متمنين للرؤيا ومشتاقين للمشاهدة.

إن النغمة الطربية لعرفت الهوي ربما كانت بداية أو محاولة لشحذهمة السامعين لأن البرنامج الحقيقي قد بدأ بعد ذلك.

ظهر على المنصة شيخ كان يبدو شيخاً لطائفة ما أو أميراً للمجلس، صاحب وجه مشرق ومهيب ولحيته البيضاء كانت طويلة. كان يلبس قلنسوة مرتفعة وفي وسطها موضع بارز قليلاً مثل القلنسوات النقشبندية والجلباب أو العباية كانت على الطراز المغربي ولكن الخلعة التي كان يرتديها كانت تقليدية مثل المتصوفين. بمجرد ظهوره على المنصة قرأ الصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) بلحن وبشر الحضور ببشارة على طريقة بعض الساسة رافعاً يديه. أيها الناس: في عالم الإلحاد والمادية هذا حيث مظاهر انتهاك السنة وعدم المعرفة بالله شائعة، ففي هذه الحالة مبارك عليكم صعودكم على سفينة النور. ثم أردف قائلاً: إن السفينة التي أنتم ركابها هي بمثابة سفينة نوح (عليه السلام) الذي كل من ركب عليها فقد نجا وليس هناك ملجأ آخر غير هذه السفينة. تعالوا نرفع اليوم الستار عن هذا السر. رأبين لكم أموراً لا

يمكن أن يتحملها الناس الذين هم خارج السفينة والصلاة والسلام على الرسول (ﷺ) الذي انتخبنا لولايته.

ومرة أخرى قام بشحذ قلوب الحضور بالصلاة والسلام على بطريقة طربية ثم قال: أيها الناس نحن أهل السنة والجماعة نعترف بخلفاء أربعة نحسبهم مؤهلين للاتباع والتقليد. إذن عليكم أن تعرفوا جيداً كما هو متبع أنه في الفقه الظاهري ينبغي اتباع أبي حنيفة والإمام مالك والشافعي وابن حنبل وكذلك الحال في الفقه الباطني يلزمنا أن نبايع السلاسل والطرق النقشبندية والسهروردية والقادرية والجشتية. إن الناس الذين لا يعرفون أهمية الفقه الباطني ويعتقدون أن الفقه الظاهري يكفيهم ليبقوا مسلمين فهؤلاء على خطأ كبير. دينهم ناقص وغير مكتمل. إنه لسر لا يعرفه أحد غير أهل القلوب.

السيدات والسادة إنكم بكل تأكيد تكونوا قد سمعتم اسم السيد عويس القرني. نعم هو نفس العويس القرني الذي تشرف بصحبة الرسول (ﷺ) من غير أن يقابله مباشرة والذي لم يستطع الحضور في خدمة الرسول (ﷺ) بسبب خدمة أمه الضعيفة والذي جعله الله مستجاباً للدعاء. وكان لا يظهر أمام الناس كي لا يطلبوا منه الدعاء لتلبية أمنياتهم المباحة وغير المباحة لأنه حينما يرفع يديه بالدعاء أمام الله سبحانه وتعالى فاستجابة دعائه مؤكدة.

والآن اسمعوا أيها الناس لماذا كل هذه الأهمية لعويس قرني فعندنا الآن أهل الكشف. إن الذين كانوا قد قرأوا شواهد النبوة للجامي وتذكرة الأولياء لعطار فسيكونون على علم بهذه الحقيقة وهي أن رسول الله (ﷺ) بنفسه كان مشتاقاً لمقابلة القرني ووقت لحاقه بالرفيق الأعلى كان قد منح خلعته للسيدين عمر وعلي (رضي الله عنهما) وأوصاهما بأن يوصلا هذه الخلعة إلى خدمة عويس القرني ويطلبا منه دعاء المغفرة للأمة. يقال أنهما قاما

بتوصيل هذه العباية المحمدية إلى السيد عويس قرني وطلباً منه الدعاء لمغفرة الأمة. إستجابة لهذا الطلب رفع عويس قرني يديه أمام الله ثم سجد وطالت السجدة حتى ظن عمر وعلي أنه ربما قد فارق الحياة واقتربا منه محاولة منهما لاستطلاع الأمر فحدث خلل في عبادته ورفع رأسه من السجدة وقال: كنت اليوم مصراً وأنا بين يدي الله على أنه ما لم يتم تلبية وصية محمد المصطفى (ﷺ) وما لم يعد بمغفرة أمة محمد (ﷺ) بأسرها فإنني لن أرفع رأسي من السجدة ولن أرتدي عباية حبيبك. فوعدني الله جل شأنه بأنه سيغفر ذنوب أمة محمدو إن كانت يقدر شعر أغنام قبيلتي بني ربيعة ومضر. وبعدما سمع عمر الفاروق وعلي المرتضي هذا كبراً فرحة بهذه البشارة. في مقابل الولاية هذه التي منحها الله لعويس القرني ولتوثيق هذه الولاية حضر عمر وعلي (رضي الله عنهما) إليه مع عباية الرسول، ففي مقابل هذه الولاية ظن عمر أن الخلافة لا تساوي شيئاً. هناك روايات تقول أنه عندما اتضح لعمر (رضي الله عنه) تفاهة الخلافة أراد أن يتركها لكن بإصرار من عويس القرني ونظراً إلى أن الأمة ستضل في حالة غياب الخلافة استمر في حمل هذا العبء. هذه هي الأمانة العظيمة التي نحن أمناؤها. عباءة هذه الولاية لعويس قرني وصلت إلينا من صدر إلى صدر ومن جيل إلى جيل ومن مختلف الطرق والسلاسل. إنها مكرمة عظيمة تلك التي منحها إيانا الله بسبب عشق الرسول (ﷺ).

أيها الناس الحديث يطول لكن لا بد أن أذكركم بقصة يحكي أن عمر وعلي (رضي الله عنهما) استغربا أن عويس قرني ليس له أسنان بالمرة، وعند السؤال عرفا أنه حينما وصل إليه خبر تكسر أسنان رسول الله (ﷺ) في غزوة أحد فانزعج وزاد قلقه ولم يستطع أن يتحمل أن أسنان رسول الله (ﷺ) قد انكسرت وما زالت له أسنان فاتباعاً لسنة الرسول (ﷺ) قام بكسر سنتين ثم خطر بباله أنه لا يدري أي سن قد انكسرت وأي سن قد قمت بكسرها فلم يطمئن ولم ينشرح صدره حتى قام بكسر جميع أسنانه. يقال إن

عمر وعلي (رضي الله عنهما) بعدما سمعا قصة العشق هذه ذرفت أعينهما الدموع واعتقدا أن إيثارهما واتباعهما للرسول (صلى الله عليه وسلم) أقل بكثير من إيثار واتباع عويس القرني للرسول (صلى الله عليه وسلم).

أيها الناس هذا هو عشق الرسول الذي يبدو في الظاهر جنوناً ونوعاً من المس لكن بدونه لا يمكن الحصول على الخلعة.

هذا الصخب عند الصلاة والسلام التي يحسبها أهل الظاهر تطرفاً وغلواً وبسماعها يفقد الوهابيون رشدهم ويحسبون أن الإسلام في خطر. لكن هذا هو الهيام والعشق لـ«يا رسول الله» و«شيئاً لله» الذي يجعلنا مستحقين لخلعة الولاية. الولاية التي لا يساوي أمامها أي شيء سواء كان الجاه والسلطان والخلافة. الذي يعرف ويدرك قدر الولاية لن يسعى وراء الخلافة. لعلكم تذكرون جيدا أن الناس عندما جاءوا إلى سيدنا علي (رضي الله عنه) بعد استشهاد سيدنا عثمان (رضي الله عنه) وطلبوا منه أن يقبل منصب الخلافة فقال بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض: إنه يحبذ أن يكون وزيراً أو مستشاراً بدلاً من أن يكون خليفة. مبارك لكم أيها السادة أن جاء انتخابكم من الله لقافلة الولاية فكم أنتم سعداء على طريق العشق والهيام. هنا الفناء في الشيخ في واقع الأمر الفناء في الرسول وضمان للبقاء. تعالوا مرة أخرى نصلي ونسلم عليه وعلى آله في عالم الوجد والهيام بكل حب وعشق لآل محمد الذين وضعت في أيديهم أمانة الولاية هذه.

مع هذه الكلمة بدأ شيخ الطائفة أنشودة الصلاة على آل محمد بأسلوب ذكرني بالشيخ حبوش. قبل بضع سنين كان قد جاء الشيخ حبوش إلى لندن مع فرقته في عام ٢٠٠٥م على الأرجح وكانت حادثة تفجيرات القنابل في مترو الأنفاق بلندن حديثة العهد. والإسلام والمسلمون كانوا في دائرة الريب والشك. في مثل هذه الأيام أحيي الشيخ حبوش في ليالي رمضان بقصيدته: «**يا أبا الحسن حياك**» وبدا

الإحساس بأن أتباع أبي الحسن قد استعادوا قدراً من همتهم في ظل أجواء لندن المخيفة لكي تعود الحياة المضطربة والكئيبة إلى سيرتها الأولى. وبدأ سير الحياة من جديد نحو الأمام واجتازت وعبرت جميع العوائق ووصلت إلى بر الأمان خاصة عندما أنشد الشيخ حبوش القصيدة بصوته الساحر قائلاً على ضربات الدفوف: سبحانك يا دائم، سبحانك علام الغيوب، سبحانك يا مفرج القلوب، سبحانك من له في كل شيء آية. ثم رفع صوته وفي نفس الوقت بدأ المطربون بالرقص وغشي على الحضور حالة الوجد ولم يستطيعوا الإدراك متي وصل طلب الشفاعة إلى مرحلة الاستعانة وطلب المدد.

في أجواء الأصوات الساحرة هذه و«**مدد، مدد يا رسول الله**» استمر المطربون في الرقص واستمر كذلك الشيخ حبوش في أنغامه وألحانه، بدا كأن الحضور أووا إلى ملجأ حيث لا وجود للخوف والحذر.

يقول أهل القلوب: إن الوعد الإلهي «**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» ما دام يظهر جلياً المجالس الصوفية بهذا القدر من الحلاوة والصدق فما الذي لا يكون في الآخرة لأولياء الله. إنني كلما أسمع هذه النغمات والألحان أتحير من التأثير الساحر للشعر والموسيقى. وكم من الناس الأصحاء عقائدياً تتعطل حواسهم ويفقدون صوابهم. كم من القوة المثيرة في هذه النغمة الطربية. في ظاهره دين وإظهار لعشق الرسول ولكنه في الباطن وفي الإنشاد الديني دعوة صريحة لنفي الدين بالكامل.

إن شيخ الطائفة الذي بدا بسبب خطبته الدينية الصوفيه شيخاً للطريقة ولكنه الآن وبعد أن فرغ من إلقاء الخطبة ونغم الصلاة والسلام على طريقة المغنين فعرفنا أن هذه الخطبة كانت بمثابة الاستهلال ولكن الأصل هو الألحان والأنغام. **إنه بدلاً من أن ينادي أبا الحسن مثل شيخ حبوش قال موال طويل:**

ناديت للبعض روحي لحيم اطشانه

قاصد حمي بغداد

ليأتو بكأس الحال ارواني

كرمال جدك يا باز حولو علينا النظر

وأنا المحسوب جيلاني

ثم ظل دوى صوت لفظ الجلالة (يا الله يا الله) لفترة في الكورال **ثم بدأت الانشودة على النحو التالي:**

أخذت العهد في أول زماني لقيت العهد غالي يا أخواني

دخلت حمي رضاهم بالآمال ونلت مناي من طيب الوصال

وفي ديوانهم شيخي الرفاعي وشيخي القادري الباز الجيلاني

فقيل يا فقير من هم مشايخك فقال الباز الأشهب والرفاعي

وفجأة بدل المغنون اللحن:

يا شمس الإحسان يا قطب العرفان

يا عبد القادر يا غوثي! يا بشرى جيلان

وبدأوا يغنون على هذا النحو:

شيخي عالي الجاه غوثاه يا غوثاه

أنتم للملهوف غوث أنتم أهل الله

على صوت هذه الأغنية ازداد جذب المطربين كما دخل صوت العود في اللحن. **كان يغشى على المستمعين نوع من الجذب والهيام وكلما يزداد الهيام يزداد الاستنجاد والاستعانة بالشيوخ المتوفين:**

أدركنا يا شيخي يا رفاعي يا شيخ العرجاء

يا أهل الإمداد جودوا يا أسياد

نظرة منكم أهل الهمة	قل عندي الزاد

يا أحباب الله	أنتم أهل الجاه

أهواكم والشوق إليكم	في قلبي والله

وفي الآخر انتهت الأنغام على تكرار يا عبد القادر يا رفاعي يا بشرى جيلان، وتنوعت أساليب ولغة الغناء فتارة باللغة التركية وتارة تذكر المناقب باللغة الفارسية وإن كانت أغلب القصائد باللغة العربية. ربما يرجع هذا إلى أن معظم الضيوف الأمريكان كانوا من أصل عربي. البعض منهم كانوا مرتدين العبايات المغربية والمطربون قدموا أغانيهم وقصائدهم بحماس كبير والمستمعون تقبلوها بحالة من الجذب والهيام وفي النهاية توقف صوت الدفوف فجأة وأنهى المطربون الغناء وخفضوا رؤوسهم تحية للناس مع التصفيق الحاد. تغيرت فجأة هالة الأضواء الملونة إلى شبه ظلام والأجواء المليئة بالأسرار غابت فجأة مع الأضواء الكهربائية التي لا روح فيها.

كان حلماً ما رأيته وكانت قصة ما سمعتها وفي لحظات نهض الحضور من مقاعدهم والمتطوعون غيروا ترتيب الكراسي الموجودة حول الطاولة المستديرة وفي غمضة عين تحول مجلس السماع إلى حلقة تناول الطعام. حتى هذا الوقت وأثناء سماع الحفل كانت تأتي رائحة الكباب من الجزء الخارجي للسفينة والآن بدأت تدخل أطباق الكباب المزينة. أشار مصطفى أوغلو إلى طاولة موجودة ناحية سقفية الباخرة حيث كان الجو طليقاً إلى حد ما وقمنا نحن الأربع باحتلالها. في هذه الأثناء نظر إلى الطاولة زوجان إيرانيان في سن الكهولة بنظرة استفهامية حيث كان هناك كرسيان خاليان، رحبنا بهما وسمحنا لهما بالجلوس ومشاركتنا في نفس الطاولة. في هذا الجو الحماسي سألناهما كيف كان المجلس. بدأ يقول: لم يكن هناك أي تقصير من جانب المطربين

والراقصين ولكن لم يكن هناك نفس التركيز للجذب والهيام الذي يتميزبه مجالس الفاس.

الفاس؟ هل أنت من المغرب العربي. أردت معرفته.

رد عليّ قائلاً: لا، إنني من شيراز واسمي جعفر وهذه زوجتي فاطمة. نحن نقيم في مدينة لوس آنجلوس منذ عشرين عاماً تقريباً ونزور المغرب وسوريا والسودان وغيرها من البلاد بكثرة.

فهل أنت على معرفة جيدة باللغة العربية؟ قال: لو كنت في إيران لوجدتني في زي العلماء ويقال لي آية الله. فقد تخرجت في مدرسة قم وقضيت أيام الدراسة في مصر والمغرب العربي.

إذن أنت آية الله جعفر الشيرازي. مد مصطفى أوغلو يده لمصافحته بأدب جم.

قال: لا تقل آية الله بل جعفر فقط. أما شيرازي فقد أضفته إلى اسمي لأنني أقرض الشعر.

جعفر شيرازي خريج مدرسة قم وهو آية الله وراكب أيضاً على سفينة نوح لأهل السنة والجماعة، فخطر على ذهني فجأة عدد من الأسئلة. سألته إن الطرق الأربعة التي سمعت عنها أثناء المجلس هل أنت مرتبط ارتباطاً أساسياً بإحداها؟ قال: إن تقليد التصوف والعرفان عندنا أهل التشيع تقليد قديم وعريق جداً وإن أردت الصدق فأقول لك: في هذا المجال لا فرق بين الشيعة والسنة ومن وجهة نظري فكل هذا من تجليات علي (رضي الله عنه). لا تذهب إلى التفاصيل الدقيقة فبدون الوفاء لعلي (رضي الله عنه) لا معنى للعرفان.

فالصوفي الطاهر هو من يذكر علياً في نفسه بالاستمرار.

إن الأخوين وليد وساجد الذين كانا ينصتان لحديث جعفر الشيرازي قالا: نعم عندنا في باكستان أيضاً لا يكتمل أي مجلس للمولد أو السماع من غير ذكر وثناء علي (رضي الله عنه).

سواء كان العالم العربي أو شبه القارة الهنديه كلما وجد هنا مجلس من مجالس العرفان فمنشأه فارس القديمة التي كانت تضم جزءاً كبيراً من وسط آسيا بالإضافة إلى إيران. فجميع شعراء أهل القلوب الكبار قدموا من هنا. وتركوا آثارهم وبصماتهم في العرب والعجم والشرق والغرب. وهذا الأمر الآخر أن يصل هذا الفن في زمن معين وأرض معينة إلى درجة الكمال كما استشعرت في المغرب العربي خلال عدد من أسفاري الأخيرة إليها. ولكن اليوم أيضاً عندما تسمع المناقب للشعراء القدامي بلغات وسط آسيا فتنتاب الروح حالة من الوجد والجذب. أبدى جعفر الشيرازي رأيه هذا.

فهل سنحت لك الفرصة للاشتراك في الرقص الصوفي بوكالة الغورية. أردت أن أعرف المزيد نظراً لتجاربه الواسعة.

قال: تتحدث عن القاهرة؟ وكالة الغورية! ضحلة جداً لا روح فيها. هناك أصوات الدفوف وأيضاً أصوات صاخبة لكنها غير قادرة أن توقظ بداخلك كل هذه النشوة. أنها تبدو عملاً روتينياً لا روح فيه. ولكن الفاس لا نظير لها. خذ على سبيل المثال: مجموعة أبي الشعر فالمغني عندما يبدأ الإنشاد والغني فالمستمعون جميعهم يتحولون إلى بكاء وعويل والدموع لا تتوقف. أما وكالة الغورية فهي بعيدة كل البعد عن مثل هذه المظاهر في حب الرسول (ﷺ). على عكس ذلك أسمع كلام ناصر خسرو من مطرب صاحب الضمير المستنير يبدو لك أن روحك بدأت تتجلى وتتطهر مع مرور الوقت.

جعفر الشيرازي هذا إتضح أنه غواص في بحر التصوف العميق .فمن شبه القارة الهندية الباكستانية إلى المغرب العربي ومن ماليزيا إلى المغرب لا تجد متصوفاً منشداً معروفاً إلّا وهو يعرفه جيداً. إستغربت جداً عندما سمعت بعد مقاطع المدائح النبوية لفرقة صابري وإخوانه مثل: املأ جيبي

يا محمد. فلو لم تكن اللهجة الإيرانية غالبة عليه لكان الإقرار بهذا الأمر صعباً أن معرفته باللغة الأردية ضعيفة.

سألته: السفر إلى مختلف البلدان والاشتراك في مجالس السماع والتقرب إلى أهل القلوب، ما هو السر وراء كل هذا الاهتمام؟ هل يفهم حقاً أن القالب الروحاني هذا هو الأصل؟.

تمهل الشيرازي قليلاً قبل الإجابة عليه ثم قال: بعض الناس يدمنون كلام الحب. الكلام وحده بدون توقف يسرهم أما السماع في مقابل الكلام يحتاج لرياضة روحانية فالإكثار من الكلام يعمي القلوب في حين أن الإكثار من السماع يبصر القلوب وعندما تصير عاشقاً للمعرفة فإن بصرك لا يلتفت ولا يهتم بأي شيء أقل منها، ثم إن السماع أساسه الجذب والهيام. لا تنظر إلى الكلمات ولا تفكر في كلام المغني ولا تسأل هنا أي أمر ضد الشرع وأي حديث ضد العقل لأن اهل السماع عندما يصلون إلى مرحلة الارتكاز فلا تنتقل إليهم الكلمات والمعاني بل تنتقل إليهم أحوال الجذب والهيام والسرور السعادة. هذا هو الشيء الذي يجعلني أتجول من بلد إلى بلد للإشتراك في المجالس المختلفة للسماع وهل أخبركم بسر آخر أيضاً ومع هذه الكلمة لمعت عيناه وظهرت على وجهه ابتسامة غامضة: كل هذا في الأصل تجليات علي (رضي الله عنه) هذا سحر على الذي يتحدث عنه اليوم وهو فوق الرأس والعين. أنظروا إلى هؤلاء النقشبنديين الذين رفعوا اسم علي من سلالتهم ووضعوا مكانه أبا بكر الصديق (رضي الله عنه). لكن من غير هل البيت لم يكن ممكنا أن يستمر عملهم ولهذا بدأوا بإقامة علاقة بجعفر الصادق. وهذه القصة الخاصة بأويس القرني التي سمعتموها اليوم قبل قليل إنها قصة خيالية وأسطورة محضة اختلقت لتقليل عظمة سيدنا علي لكن في النهاية ماذا كانت النتيجة. سيدنا علي بقي علياً إلى يومنا هذا والسطوة الروحية للسادة العلويين ما زالت باقية وخطب هل

السنة نفسها لا تكتمل من غير الذكر الحسن للإسماع الخمسة. وإن أردتم الصدق فالإسلام هو علي وعلي هو الإسلام.

إن الأخ ساجد الذي كان صامتاً وتائها في كل هذا المشهد بدأ يقول في طريق العودة: شيء لا أفهمه بل أشياء لا أفهمها. لعل هذا هو السبب إذ كنت في معظم الوقت تائهاً في عالم آخر. أردت إثارته. سر أسرار التصوف هو أن الإنسان كلما يفهم قليلاً يكون بنفس القدر آمناً ومحفوظاً.

قال: لا، ليس الأمر كذلك. في الواقع إنني صدمت صدمة كبيرة جداً. إلى الآن كنت أفهم أن القائلين يا مولي يا مولي أو الذين يستنجدون قائلين: يا غوثنا الأعظم الحقنا أو الذين يطلبون المدد من السخي شهباز هم في الأصل السفهاء والجهلاء وغير متعلمين من الباكستانيين وكل ذلك بسبب جهلهم وبعدهم عن الإسلام. لكن اليوم ذهلت بعد ما عرفت أن القائلين بـ «يا غوثاه ويا رفاعي ويا عبد القادر» نطلب المدد، ليسوا بعدد قليل في العالم العربي. وما دام في العرب والعجم يرتفع في كل مكان صوت (المدد يا رسول الله، يا عبد القادر الجيلاني شيئاً لله) فماذا بقي من الإسلام. اليوم ولأول مرة إنكشف الأمر على أن نداء مولي يا مولي لا يدوي فقط في مدينة لاهور الباكستانية بل في العالم الإسلامي كله بإستثناء بعض المناطق وأصبح الغالبية مشغولون بعمل تافه وهو عبادة ونداء الموتى تاركين عبادة الله الواحد الأحد.

رد فعل ساجد هذا وإن كان طبيعياً لكني لم أكن مقدراً أن الراكب الشاب هذا في هذه السفينة النورانية وفي فوضى الرقص والغني يموج في قلبه طوفان من الأفكار. قلت له مهدئاً ومواسياً كلامك هذا صحيح تماماً فنحن المسلمين أيضاً قمنا عملياً بمنع الله سبحانه وتعالى عن ممارسة أعماله الأساسية (والعياذ بالله) مثل الهندوس الذين أعطوا البرهما أجازة طويلة بعد خلق الكون وعندهم مختلف الرموز للإله الذين ينجدون الناس

ويحلون لهم مشاكلهم، كذلك لدى المسلمين نال الغوث الأعظم مكانة الصنم الأكبر وهو مع مريديه وأوليائهم يؤدي فريضة إغاثتنا ونجدتنا وأعناق جميع الأولياء تحت قدميه المباركتين.

لكن هذه الشبكة كبيرة جداً. أبدى ساجد قلقه واضطرابه.

نعم وأنت ستتعجب أكثر عندما تعرف أن الذين يعرفون بأنهم معارضو التصوف ليسوا خارج هذه الشبكة. طبعاً أنك على معرفة جيدة بابن تيمية الذي تتحدث عنه الحركة السلفية أنه كان ضد التصوف والحقيقة أنه كان داخلاً في هذه السلسلة الصوفية بل هو من حاملي خرقة الولاية. أراد مصطفى أوغلو بتعليقه هذا أن يصب الزيت على النار المشتعلة.

ابن تيمية؟ هل هو كان أيضاً مبايعاً لسلسلة ما؟ ساجد كان مستغرباً. نفس خرقة الولاية التي جاء ذكرها اليوم في السفينة والتي تبدأ من الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى أبي عمر ابن قدامة ومن ابنه ابن عربي عمر ابن قدامي وصلت خرقة الولاية إلى ابن تيمية ثم هو قام بنقلها إلى تلميذه ابن قيم الجوزية المعروف بمؤلف مدارج السالكين (شرح صوفي لتصنيف منازل السائرين) ولهذا الكتاب شرح صوفي باسم منازل السائرين وفي كتاب بداء العلقة بلبس الخرقة (مؤلفه يوسف ابن عبد الهادي) جاء في هذا الكتاب إقرار واعتراف من ابن تيمية على أنه كان منتسباً إلى مختلف السلاسل الصوفية بما فيها السلسلة القادرية.

وبدا كل هذا لساجدو كأنه اكتشاف جديد بدأ يقول: لم أكن مقدراً قبل هذا أليوم لهذا الأمر أن الروحانيين قد نشروا شبكتهم على هذا المستوى الكبير حيث يفقد كل ذباب وجوده مهماً كان كبيراً بعد الوقوع في هذه الشبكة خلال لحظات. والآن حينما أفكر فاستغرب أيما استغراب لكم هؤلاء الملايين من الناس في مختلف أنحاء الدنيا الذين إنشغلوا

بمجاورة وزيارة المقابر التي لا تعد ولا تحصى. وعقد مجالس الابتهالات والمدائح النبوية وكذلك عقد حفلات الموالد وقفز الدراويشة على النار المستعرة وفن السماع والأنغام كل هذا قد بلغ أوجه، ولا أدري لماذا تضيع طاقة المسلمين وأموالهم في مثل هذه الأمور التافهة.

مع بيان ساجد هذا كان قد إزداد اضطرابه وأصبح صعباً عليه في هذه السن الصغيرة من عمره أن يسيطر على نفسه. وعلى هذا كانت رحلة سفينة النور تجربة عجيبة وغريبة بالنسبة له. تجربة فتحت الأعين على أشياء غريبة وعلى قول مصطفى أوغلو كان قد انقطع تيار باطنه بسبب هذه التجربة.

١٦

رسول الله ﷺ ودرس البخاري

مكث هاشم هنا في منطقة الفاتح نفسها وكان يتصل بي تليفونياً إن كان من الممكن مشاركتك في مجالس السلوك فلا تتأخر. كان من رأيه إنها فرصة نادرة إذ الشخصيات الكبيرة من مشايخ الطريقة النقشبندية تقوم بكشف أسرار ورموز السلوك والإرادة للمريدين والطالبين في المجالس السبع المختلفة .هذا البرنامج الخاص الذي من المقرر أن يستمر يومين ونصف اليوم لا بد أن تشترك فيه. تحدث عن هذا البرنامج بأسلوب شيق الأمر الذي جعلني أرغب فيه. قال لي أيضاً ليلة البارحة كانت هناك جلسة افتتاحية. تم خلالها إلقاء الضوء على أهمية الطريقة والسلوك. وقيل لنا نحن المريدين: أن الحياة الإنسانية يمكن أن تبقي على أربعة مستويات كأنها أربعة عوالم منفصلة لكنها في نفس الوقت عالم واحد مترابط .إن دنيا عامة الناس كالأنعام وهي الدنيا التي لا يمكن لها أن تتعدى الحواس الخمسة ولكن المريد والسالك يستطيع الوصول إلى عالم الملكوت عبر مجاهدته ورياضته حيث تخبو همته بعد الوصول إلى التسبيح والتهليل والقيام والسجود. فإن إستمر سفر السالك الروحاني فحينئذ تتفتح له أبواب عالم الجبروت حيث يحصل على رأس ماله الأساسي هو الذوق، الشوق، الوجد، السكر، الصحو والمجد. أما المنزل القادم فهو عالم اللاهوت

وهو في الواقع عالم اللامكاني فلا حديث هناك ولا بحث. بدأ يقول هاشم: يا ليتك اشتركت معنا في هذا البرنامج. إنهم يتحدثون في موضوعات عميقة جداً ويوجد هنا مريدون كبار وكذلك طلاب الحق والعارفون بالله الذين امضوا أربعين عاماً في الذكر والمجاهدة وانطباعات هؤلاء أنهم نالوا في هذه الجلسة الوجيزة وبأسلوب سهل ممتنع ما لم يجدوه في الصحبة التي استمرت لسنوات. والأمر الهام أن البرنامج يشمل تعليم المراقبة والمجاهدة بالإضافة إلى تعليم العلم اللدني لكي لا يبقي في ذهن السالك أي نوع من الغموض والإبهام. إن سألت عن الصدق فالحق: أن الطريق الصحيح للمكاشفة إنفتح لنا الآن. حدث أمس أنه ألقى على كل منا رداء أبيض وظللنا نمارس زهاء ساعة كاملة في الغرفة المظلمة تمارين كشف القبور، وفي عالم الخيال والتصور وصل واحد منا إلى مقبرة الشيخ السرهندي والآخر ركز خياله على مقبرة بهاء الدين النقشبندي والثالث منا جعل مركز توجهه شيخه الذي ما زال حي يرزق. أما أنا فإنني إلى الآن محروم من الشيخ ولذلك اخترت الروضة الشريفة لرسول الله (ﷺ) منزل مجاهدتي.

جيد جداً. خرجت هذه الكلمة من على لساني عفوياً: فماذا كانت النتيجة؟ أردت أن أعرف.

قال: إنني لم أفز بمكسب كبير وظل منظر القبة الخضراء يدور أمام عيني. لكن الذين قد جعلوا مركز توجهم الشيوخ الأحياء قالوا لنا: بدا لهم أكثر من مرة أن شيخ طريقتهم كان قد جاء إلينا مرة في الخيال ومرة أخرى في الواقع. وواحد آخر منهم قال: إن شيخه الذي يعيش في كاليفورنيا كان يقول لي شيئاً باللغة العربية لكنه لم يستطع أن يفهم معناه لأنه لا يعرف اللغة العربية. وهناك أمر آخر الذي سمعناه هو أنه غير مستحب أن يكشف السالك عن تجربته فلا يحسب هذا الأمر جيداً. وعلى هذا نرى قليلاً من

الناس الذين يتحدثون عن تجاربهم. ولكن عندما ذكرت لهم فشل تجربتي فقال لي بعض الأصدقاء: ليس في استطاعة أي شخص عادي أن يتصل برسول الله وللوصول إلى هذه الغاية لا بد من التمسك بأحد الشيوخ الذي يستطيع أن يوصلك إلى ديوان حضرة النبي (ﷺ). على كل حال فمقارنة مع الأصدقاء الآخرين كنت وافداً جديداً. فلو نظرنا من هذه الناحية فالتجربة ليست محبطة.

على لسان هاشم عندما سمعت تجربته الأولى هذه للمجالس الأسبوعية إزداد إشتياقه وفكرت لم لا أخوض هذه الفرصة النادرة وبسبب الإشتراك في سفينة النور لم أستطع اللحاق بالجلسة الافتتاحية لهذا المجلس وعلى وعد من اللقاء مع هاشم في الصباح الباكر وضعت سماعة التليفون. وليد وساجد الذين كانا يسمعان كلامي التليفوني بكل إشتياق قالا بصوت واحد: هل حقاً ستأتي غداً إلى الفاتح؟ إذن سيكون الوقت ممتعاً لكن المشكلة أننا لا نستطيع الإشتراك في هذا البرنامج لأننا وضعنا مع المبتدئين. ثم لا ندري هل تستطيع أنت أيضاً أن تشترك في هذا البرنامج أم لا وإن كان من المتوقع أن تنجح توصية الشيخ حمود لأنه متأثر بك جداً.

ماذا يدرسون لك في مقرر المبتدئين؟ أردت أن أعرف من ساجد المعلومة. قرروا لنا ذكر اسم الذات خمسة آلاف مرة وعلى وليد أن يذكر النفي والإثبات واحداً وعشرين ألف مرة يومياً.

واحد وعشرون ألف مرة! أبديت إستغرابي على هذا العدد الكبير ثم سألت: كم من الوقت يستغرق في ذكر واحد وعشرين ألف مرّة؟

يستغرق الآن نصف اليوم لكن المتمرسين يكملون هذا الذكر في ثلاث ساعات فقط.

ثم أولئك الذين يريدون قطع المدارج العليا للسلوك يتطلب منهم أن ينفقوا وقتاً كبيراً؟

نعم يا سيدي! عليهم أن يجتهدوا كثيراً مع الذكر والمراقبة والكشف والتوجه والرابطة. لكنهم يقولون: لو إنطلقت مرة واحدة على الطريق القويم وحصلت على توجه الشيخ ففي هذه الحالة يصيح الأمر سهلاً أن تتصل بأرواح الشيوخ أحياء وأمواتاً بل يمكنك أن تزور رسول الله (ﷺ). أما الولي الكامل فإنه يكون في إتصال مباشر مع الله سبحانه وتعالى يأخذ منه ويوزع على عباده ولكن لكل هذه الأمور لا بد من وجود اليقين والإيمان الكاملين وهذا ما نشكوا منه قالها وليد مع ابتسامة خفيفة بين الشك واليقين.

كذلك بين الشيخ أن عملية كشف القبور تسهل حال وجود العامل قريباً من قبر الشيخ لأنه يكون وقتئذ بمثابة الحافزو المحرك ولكن إن نجح العامل مرة واحة فلن تتوقف الفيوض والبكات كما وضحها وليد.

إنك تستغرب لو عرفت أن بعض علمائنا الثقات قاموا بقطع مدارج عظيمة عن طريق المكاشفة. يقال: إن الشاه ولي الله الدهلوي قرأ القرآن الكريم على يد الرسول (ﷺ) مباشرة. أما عبد القادر الجيلاني فقد تمت تربيته بشكل كامل على يدي الرسول (ﷺ) وكذلك يقال عن قاسم النانوتوي وهة من المتأخرين أن بعض أصحاب الكشف رأوه وهو يتلقى درس البخاري من الرسول (ﷺ) مباشرة.

ولي الله الدهلوي؟! سأل مصطفى أوغلو متحيراً. هل قال بنفسه مثل هذا الكلام أم معارضوه أدعوا عليه هذا لأن له مكانة كبيرة بين راسخي العقيدة من المسلمين.

نعم يا سيدي! إنه ذكر هذا الكلام بنفسه في كتابيه المشهورين الفوز الكبير وفيوض الحرمين بصريح العبارة بل لم يكتف بهذا فقد نقل في كتابه

الثالث (در ثمين في مبشرات النبي) أربعين حديثاً وذكر أن والده الشيخ عبد الرحيم سمعها مباشرة من الرسول (ﷺ).

أحقاً كل هذه الأمور موجودة في كتب علمائنا الثقات؟ أبدى وليد استغرابه واندهاشه.

إذن فإن باب المكاشفة باب خلفي للسرقة لأنه من خلاله يمكن إدخال آراء واهية في الإسلام. من يريد أن ينسب إلى الإسلام شيئاً جديداً فليفعله بسهولة. وفي هذه الحالة تخرج دائرة السنة من الحدود. إنك تقوم بالطعن والتعديل على روايات الصحاح الستة وأحياناً تأتي ثقة الراوي على المحك وتدخل في دائرة الشك. أما المشكلة بأن الراوي قد سمع من رسول الله (ﷺ) مباشرة فإن كانت المكاشفة وسيلة معتبرة فلا يمكن في هذه الحالة تكذيب ورفض هذه الأحاديث.

إن الأخ ساجد كان يسمع كلامي بكل إنصات وبنفس أسلوب الصمت الغامض كأن هذه الكلمات بالنسبة له بمثابة اكتشافات جديدة. بدأ يقول: إنني سمعت أن رسول الله (ﷺ) يأتي إلى الشيخ محمود بنفسه، فذات مرة كان هناك حفل زفاف فوقف جميع المشاركين في هذا الحفل فجأة وحدث في الحفل شيء من الهرج والمرج. عُلم فيما بعد أن رسول الله (ﷺ) كان قد جاء بنفسه للتبريك والتهنئة وقد رأته أعين السادة الأشراف الموجودين في الحفل.

هل هذا ممكن في الواقع؟ ما رأيك في هذا الشأن؟ أبدى ساجد قلقه واضطرابه. قلت له: ما دام هذا السؤال متصلاً بعدد كبير من الأسئلة فلا بد من اتخاذ موقف حيالها وذلك بعد تفكير عميق وبحث وفحص ودراية. فإن الباب الخلفي للتحريف في الدين يبدأ من هنا ثم إن هذه القضية شائكة وحساسة جداً فيجب عليك أن تحل هذه المشكلة بنفسك عن طريق البحث العلمي كطالب للعلم بدلاً من أن تعتمد على فتواي أو فتوى غيري. زن هذه

الدعاوى لأصحاب الكشف بميزان القرآن الكريم. وفي هذه الحالة سينفصل اللبن عن الماء ويظهر الحق ويزهق الباطل. حاولت تهدئته وتطمينه.

لكن هناك اعتقاد أجمعت عليه الأمة وهوأن رسول الله (ﷺ) حي في القبر، أليس كذلك؟ أصر ساجد على سؤاله هذا.

اسمع، إن الاعتقاد المتفق عليه هو ما جاء بيانه في القرآن الكريم بشكل واضح لا لبس فيه أما ما عداه فهو مبني على تقدير الناس وهو مبني أيضاً على أثر أو رواية. وما زال العمل على تحقيقها ونقدها وفحصها باقياً إلى يومنا هذا. وللعلم أقول لك أن هناك عدداً من علماء ديوبند الذين يعدون العلماء البريلويين من أصحاب القبور، هم أنفسهم يعتقدون كما جاء في كتابهم «المهند على المفند» أن الرسول (ﷺ) حي في قبره وحياته هذه مثل الحياة الدنيوية وليست مثل الحياة البرزخية. فعندما اشتهر هذا الأمرأن رسول الله (ﷺ) على قيد الحياة فبهذا حصل أهل الكشف على دليل مادي لمقابلته. وهناك واقعة شهيرة بهذا الشأن للشيخ أحمد الرفاعي حينما قرأ هذا الشيخ في عام ٥٥٥م **وهو واقف على روضة النبي المطهرة الأبيات التالية**:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها　　تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت　　فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فكما قيل أنه رداً على هذه المدائح النبوية خرجت يده (ﷺ) من الروضة المباركة فقبلها الشيخ الرفاعي. لكن رواية الشيخ الرفاعي هذه تعد خرافة أكثر من كونها حقيقة وذلك لانقضاء فترة زمنية طويلة على حدوثها. إنك في كتب التصوف تجد سجلاً كبيراً لأحداث ووقائع خرق العادة. ففي زماننا هذا وفي تاريخنا المعاصر تجد شيخ جماعة التبليغ

والدعوة المولوي زكريا يدعي أنه قابل رسول الله (ﷺ) في حالة اليقظة. فقد جمع مريدو الشيخ زكريا، محمد إقبال في خلال يومياته أربعين من المكاشفات في كتاب مسمي بـ«**بهجة القلوب**». إنني لا أتذكر جميع المكاشفات لأنني اطلعت على هذا الكتاب منذ فترة طويلة ولكن يحضرني الآن عدة مكاشفات فقط. يكفيك أن تسمعها. مكتوب في هذا الكتاب: أن الرسول (ﷺ) قال لعبد الحي في مكاشفة ما: استمر في خدمة زكريا فخدمته في الواقع خدمتي أنا. وقال أيضاً إنني أزور هذه الحجرة كثيراً.

وهناك بعض المكاشفات الأخرى مكتوبة مع تحديد التاريخ والموعد. على سبيل المثال: اليوم وقت صلاة الظهر جاء سيدنا محمد (ﷺ) إلى مسكني وأشار إليّ قائلاً: جئت لأصلي بك صلاة الظهر.

بمثل هذه اللطائف والقطائف هناك سلسلة كبيرة للمكاشفات التي تنتقل على ألسنة الشيوخ في أدبنا الديني جيلاً بعد جيل. وقد حدث مؤخراً عندكم في باكستان إحدى حينما قال صاحب منهاج القرآن أن رسول الله (ﷺ) يحضر كل عام إلى باكستان للاشتراك في مؤتمره السنوي.

بعد سماع هذه الأحاديث بُهت ساجد وبدأ يقول: لو كانت هذه الأحاديث صحيحة فما السبيل لتصديقها وإن كانت كاذبة فلماذا لا يرفضها علماؤنا؟ لماذا لا يعدون مثل هؤلاء الرواة ممن يستحقون ضرب العنق؟ لماذا يحسبون على الأمة ممن يستحقون الاحترام والتقدير؟ أسئلة ساجد بدأت تزداد حدة ففكرت لم لا أحولها إلى الوجهة الصحيحة قبل أن تجرحني هذه الأسئلة. قلت له: هذا هو السؤال الأكبر ويجب عليك أن تبحث عن الرد على هذا السؤال كطالب صادق.

١٧

كشف القبور

في اليوم التالي وصلت إلى منطقة الفاتح في الموعد المحدد وكان البرنامج قد حان وقته والناس منتشرون هنا وهناك يتجاذبون أطراف الحديث، واتخذ العديد منهم أماكنهم على الأرض. في جانب ما كانت هناك منصة مجهزة على بساط الأرض، وفي مكان مفروش بالسجاجيد الجميلة كما كان هناك أجهزة حديثة للعرض والشرح مثل اللاب توب والبروجيكتور. وبمجرد دخول شيخ الطريقة بدأ الحفل بشكل رسمي وبدأ معه إنشاد الصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ). وخلف المنصة بدأت تظهر القبة الخضراء على الشاشة الكبيرة وعندما وصلت سلسلة الأوراد والأدعية إلى أرواح الخواجات والشيوخ فظهرت على الشاشة مقبرة خواجة بهاء الدين النقشبندي وصور مقابر الشيوخ الآخرين من السلسلة الذهبية الواحدة تلو الأخرى ولبعض الوقت خيم الصمت على المجلس ربما كانت هذه إشارة إلى أن السالكين مشغولون الآن في الذكر الخفي أو الذكر القلبي. وذكر البعض أن وقفة السكوت هذه تكون من أجل الاتصال بالشيخ أو لاستحضار ففي جلسة البارحة كان قد أعيد إلى الأذهان أنه ينبغي على المريد أن يستحضر شيخه وعيناه مغمضتان. والفناء في الشيخ أول منزلة للفناء في الله، فبقدر الانسجام والتواصل

يحصل السالك على الفيض من باطنه؛ لأن ظل الشيخ أفضل من ذكر الحق. إن أويس القرني كان يحصل على الفيوض والنفحات من استحضار رسول الله (ﷺ)، وأصحاب الكشف يحصلون على الفيوض والبركات من مزارات أولياء الله لكن ما دام عامة السالكين والمريدين ليس في وسعهم هذا ففي هذه الحالة عليهم أن يجعلوا شيوخهم أوصياء ووسطاء لهم.

والله أعلم ما الذي كان في تصور الآخرين ولكننى ظللت خلال هذه الدقائق الخمسة عشرة الصامتة أدعو الله سبحانه وتعالى بالتبصر بهذا الدعاء: اللهم أرني الأشياء كما هي: عندئذ رفع شيخ الطريقة صوت اللهم صل على وجرت على ألسنة السالكين والمريدين صيغة الصلاة والسلام على رسول الله. وهنا ظهرت على الشاشة صورة مبدعة لمولانا الرومي وعرضت مناظر طبيعية مختلفة لمدينة قونية. ثم ظهر على الشاشة البيت الأول من المثنوي وتوقف. بعد ذلك قرأ الشيخ الأشعار الأولية للمثنوي بصوت جميل اذ تجدد لي الدرس المثنوي للشيخ علاء الدين. ثم بدأ شيخ الطريقة بالقاء كلمة: أيها الناس نحن عبيد شيوخ نقشبند ولسنا معينين لتعليم وتدريس الناس. للتعليم والتعلم هناك جامعات وكليات ومؤسسات هنا وهناك ومؤسسات دراسية مستمرة في أعمالها ولكن عملنا الوحيد هو تعريفكم وتنبيهكم بأنفسكم وإخباركم بالطريقة التي توقظ قواكم الباطنة غير المرئية في داخلكم وهي العملية التي تسمى في لغة المشايخ إيقاظ اللطائف.

لو استيقظت لطيفة القلب فقط ففي هذه الحالة تصبح مهيئاً لقراءة آراء وأفكار الآخرين ومعرفة أحوال قلوبهم. وهذا جزء من الكشف لا يمكن وصف ما يحظي به الشخص الذي تستيقظ هذه اللطائف السبع من مكانة عظيمة ورفعة شأن. ولكن قبل أن نخطو خطوة واحدة على هذا

الطريق علينا أن نعرف جيداً من نحن؛ لأننا لو حاولنا أن نرفع جميع الحجب وننظر من الفرش إلى العرش ونفهم أن قطع المسافات الطويلة في لحظات والطيران في الفضاء الواسع والسير على سطح الماء وفعل كل ما هو مستحيل يتقبله عقل الإنسان العادي فما هو الأساس لاجتياز هذه الأمور؟ يقول الرومي: اسمع الحكاية من الناي. ماذا يقول هذا الناي؟ يقول: لقد قطعني الإنسان من الغابة وفصلني منها، ويبكي على شكواي كل رجل وامرأة، فالذي يبتعد عن أصله يبحث عن أيام وصله من جديد. يا أيها الناس إن حالنا مثل هذا الناي أيضاً. روح الإنسان في الواقع مخلوق نوراني وعندما أرسلنا إلى هذه الدنيا بعد قطع صلتنا بالأصل فأصبح باطننا مهزوماً بسبب الهجر والفراق. فنحن غير مستقرين ومضطربون ومتشوقون للوصل بالمحبوب ونريد أن نلحق بأصلنا. إن الأرواح المكلومة عندما تقيم علاقة المبايعة مع ولي كامل وتتوجه إلى الله فتهطل عليها أمطار الوصل والفيض الإلهي حتى أنها تستشعر أحوال عالم الأرواح جميعها.

مثل هؤلاء الناس سواء كانوا أحياء أم أمواتاً وسواء كانوا أرواحاً أم أجساداً يحق لهم التصرف في الزمان والمكان. هؤلاء يقطعون المسافات الطويلة في غمضة عين وهي ما تسمي بطي الأرض، فأول منزل لهذا السفر هو استحضار الشيخ ولا احتمال لحدوثه من غير وساطة أهل الطريق. مع هذه الكلمة رفع الشيخ صوته بنعرة مجذوبة: صلوا على النبي. وأصبحت ألسنة المريدين والسالكين تلهج معه بالصلاة والسلام على رسول الله مرة أخرى.

ثم بدأ الشيخ كلمته قائلاً: أعزائي الكرام! إنكم سعداء لأنكم تتعرفون الآن على أقرب وأوجز طريقة للوصول إلى الهدف. إن مجددنا للألف الثاني قال في إحدى رسائله: إن الطريقة النقشبندية أقرب طريق للوصول إلى الهدف مقارنة بالطرق الأخرى. لأن الوسيلة هنا شخصية أبي

بكر الصديق (رضي الله عنه) وهو يعد بعد الأنبياء من أفضل البشر. إن شيوخنا من النقشبندية كانوا قد طلبوا من الله أن يعلمهم أقرب طريقة للوصول إليه، فاستجاب الله لطلبهم هذا وألهمهم أن يبدوا العاطفة على السلوك وأن يرفعوا العاطفة فوق السلوك.

ثم أردف الشيخ قائلاً: الطرق الأخرى للتصوف تدخل المريدين والسالكين في مشاق ورياضات كبيرة مثل السهر ليلاً لأربعين يوماً وبقاءهم نهاراً بدون أكل وشرب أيضاً. وفي الطرق الأخرى لا بد من صفاء النفس أولاً لكن عندنا المريد من أول يوم يتصف بصفة الفناء والبقاء وذلك بسبب ورد الذات الإلهي وتوجه الشيخ إليه. يقول المجدد للألف الثاني في كتابه «**حضيرة القدس**» أنه عرف عن طريق الكشف أن اسم الذات الإلهي يتناسب أكثر مع العاطفة ولهذا عندنا النقشبنديين يتم التوجيه والتعليم لتكرار اسم الذات من اليوم الأول، ويأتي ذكر النفي والإثبات فيما بعد.

وسبب قطع منزل السلوك بشكل سريع هو أن استحضار الشيخ يكون مدعاة لأن ينال المريد نصيباً من رياضة شيخه، وأخبرنا المجدد أيضاً أنه في بعض الأحيان تجتمع أرواح الشخصيات الفياضة عند المريد وتعينه. وكمال تربية هذا المنهج أن بعض المريدين والسالكين تتم تربيتهم عن طريق الأرواح التي فاضت إلى بارئها منذ قرون مضت.

يقال عن السيد أحمد البريلوي الشهيد كما جاء في كتاب «**الصراط المستقيم**» الذي ألفه إسماعيل الشهيد الدهلوي ما نصه: في شأن تربية سيد أحمد الشهيد استمر النزاع بين روحي غوث الثقلين وخواجة بهاء الدين نقشبند زهاء شهر كامل حول أمر من هو الأولى بتربيته الروحانية ومن يحق له كفالته، وفي آخر الأمر تمت المصالحة بينهما على أن يقدما خدماتهما بصورة مشتركة، فذات يوم تجلت له روح الغوث وكذلك

روح خواجة بهاء الدين وعلى هذا فاز السيد الشهيد بالانتساب إلى هاتين الطريقتين في وقت واحد.

ثم قال شيخ الطريقة: إن هذا الذي تسمعونه أن الشخص الفلاني له انتساب فاروقي وأن الشخص العلاني له انتساب صديقي أو أن الشخص الثالث لديه انتساب إلى السلسلتين فمعناه أن أرواح القدماء قد منحتهم العناية والاهتمام. والآن فكروا أنتم عن انتسابكم إلى الطريقة النقشبندية كي تصبحوا مستحقين للمدد الفوري من عظام الشيوخ والأرواح.

واحد من أكابر النقشبنديين وهو إمداد الله مهاجر مكي قد كتب في الرسالة المكية بشكل واضح أن على المريد أن يعرف أن روح الشيخ ليست مقيدة بمكان معين لأن القرب والبعد لا معنى لهما في عالم الأرواح. إن المريد سواء كان حاصلاً على الشهود أو لم يكن فالمهم هو أن يحصل شيخه أو مشايخه الأكابر على الشهود، ثم إنه من الممكن جداً أن يحضر الشيخ لمناصرة ومؤازرة مريده على الفور.

والشيخ إمداد الله قد أعطي هذا التوجيه أيضاً: أن يتذكر المريد شيخه كل عام إلى أن تتولد لديه رابطة قلبية. في هذه الحالة سيستفيد المريد في كل آن وحين من ذاته. وكل مشكلة يواجهها في حياته يسأله بلسان الحال لأن الشيخ حاضر في قلبه. وهكذا روح الشيخ بمشيئة الله تلقي في قلبه حلّاً لمشكلته لكن الشرط الوحيد لهذا هو مداومة إقامة الرابطة معه.

وكذلك أيها الأعزاء: عليكم أن تعرفوا أيضاً أن المجدد للألف الثاني قد أخبرنا أنه كلما يطلب المريد المدد والأخذ بيده من أرواح الشيوخ تصل المساعدة إليه على الفور.

في عالم التصوف الحصول على الفيوض والبركات من الأرواح ليس أمراً جديداً لكن له مراحل، أولاً وقبل كل شيء عليك أيها المريد

أن تكون على ثقة كاملة بشيخك وأعلم أنك سلمته نفسك بصورة كاملة. في هذه الحالة سيبدأ فهم إشارات العين والحاجب للشيخ وتجد في داخلك حباً جارفاً له ورغبة شديدة لطاعة أوامره ويكون شيخك حاضراً في عينيك قياماً وقعوداً. وإن لم تجد لهذه الدرجة من التجاوب فاعلم أنك لم تخطو بعد في هذا الطريق ولا خطوة واحدة.

والمرحلة الثانية هي نيل الفيوض والبركات من أرواح كبار الشيوخ. والطريقة السهلة لكشف القبور أن تصلي ركعتين ثم يجب عليك أن تهب ثواب هذه الصلاة إلى روح صاحب القبر وأنت جالس مراقباً في مواجهة رأسه. كذلك بعد أداء صلاة النوافل عليك أن تجلس ووجهك صوب الروضة المباركة للرسول (ﷺ). وبعدما تغمض عينيك تجلس في المراقبة وتسعى للاتصال بالرسول (ﷺ). فلو كان استحضارك محكماً وراسخاً فعن طريق الكشف تحصل على زيارة الرسول (ﷺ)، ومن ثم تستطيع أن تطلب منه الدعاء لك وأنت تعلم جيداً أن دعاء سيد الكونين في حضرة الله لا يرد بل يُجاب على الفور.

إن زيارتك للرسول (ﷺ) وتحدثك معه مباشرة وطلبك منه الدعاء لك، كل هذا ليس شرفاً عادياً ولهذا لا بد من المجاهدة لكن لا تقلق ولا تفقد الأمل أيها المريد لأن أرواح شيوخ النقشبنديين في أتم الاستعداد لمساعدتك في السير على هذا الطريق. ستأتي حتماً المرحلة التي تتشرف فيها بزيارة رسول الله (ﷺ) في عالم اليقظة الحقيقية.

كتب الشيخ عبد الوهاب الشعراني ما نصه: كان هناك بعض الشيوخ من السلف الصالح يزورون النبي (ﷺ) كلما أرادوا في عالم الشهود وذلك بسبب كثرة قراءة الصلاة والسلام على الرسول (ﷺ).

ومكتوب في «**تربية العشاق**» أن بعض أولياء الله الذين وصلوا إلى درجة الكمال كان في استطاعتهم أن يشاهدوا الكون كله مثلما يرى الواحد

منكم الحبة السوداء الموجودة على راحة يده وأيضاً لمن أرادوا له أن يرى ذلك.

آمل أن يصل كل المريدين والسالكين الذين خرجوا في هذا الطريق وأن يطلبوا من شيخ الشيوخ أن يعينهم ويساعدهم كي يصلوا إلى هدفهم المنشود.

بهذه الخطبة الحماسية والمشجعة وصل المجلس الثاني لنهايته وتم إطفاء المصابيح الكهربائية وانشغل السالكون مرة أخرى في استحضار الشيخ في قاعة شبه مظلمة.

١٨

العلب المغلقة واللطائف السبعة

ظهر أحد شيوخ الطريقة لمتابعة المجلس الثالث وبدا وكأنه طلع مدرس حاملاً في يده عدداً من الكتب القديمة المجلدة والمذكرات، وكان بداخل الكتب قصاصات ملونة لعلها وضعت كعلامات للمصادر والمراجع. أما هيئة الشيخ فهي نفس هيئة شيوخ النقشبندبة، صاحب لحية طويلة بيضاء وعلى القميص التركي جبة خضراء، وفي اليد الأخرى العصا النفيسة الجميلة والتي إن تأملتها تبدو كأنها لتنبيه الغافلين أكثر من أن تكون عصا الشيخوخة. بعد قراءة الصلاة والسلام حرك عصاه وهي في يده وخاطب الحضور قائلاً: أعزائي الكرام! على القبضة الذهبية لعصاي هذه منقوش شعر أريد أن أبدأ حديثي به، **وهذا الشعر هو باللغة الفارسية**:

ان نقشبند عالم نقش مرا به بند   نقش چنان بند كه گوئند نقشبند

أيها الأصدقاء: ذات مرة ذهب خواجة بهاء الدين نقشبند إلى مقبرة عبد القادر الجيلاني ووضع يده على قبره وقال: يا شيخ عبد القادر الجيلاني: لله خذ بيدي وساعدني وأجعل لفظ الجلالة منقوشاً على قلبي. رد على هذا الطلب السيد الجيلاني وألقى في قلبه ما نصه: عليك أن تقوم بنقش لفظ الجلالة على قلوب الآخرين أولاً كي يمحي كل نقش على قلوبهم ما عدا الله وبذلك تعرف بين أهل اليقين بنقشبند.

أيها الأحبة إنها لنفحات وفيوض أرواح الشيوخ، إذ السلسلة النقشبندية متفوقة ومكتسحة جميع الطرق والسلاسل. إننا بإستحضار الشيخ وعملية كشف القبور ننجز خلال شهور وسنوات ما لا يستطيع الآخرون أن يصلوا إلى كيفية وتهيئة الحضور وإن قضوا حياتهم كلها في ذلك.

والحق أن الإنسان بمثابة علبة وفي زاوية منها ثقب دقيق وعليها زر ظاهري للحواس الخمسة. فهؤلاء الذين يتجولون حولكم وتحسبونهم من جنس البشر ما هم إلّا علب مغلقة أو ظروف مغلقة ومختومة لا يدرون شيئاً عن حقيقة الأشياء. ومسؤولية فض الختم وفتح مكبس زر القوى الخفية ملقى على أكتاف أولياء الله وهو الذي كلفهم بهذا العمل. إنه العلم اللدني الذي لا هو مكتوب في أي كتاب ولا يقوى أي ورق تحمل عبء كتابته ولا يستطيع أحد الاطلاع عليه إلّا من تكون لطائفه واعية بل أن تكون القوى الخفية لديه قد بلغت درجة الكمال في حالة الوعي وأن تكون فعالة.

فكروا معي قليلاً لو استيقظت لأحد هذه الخاصية القلبية فقط فإنه يستطيع من خلالها قراءة أفكار الآخرين والإطلاع على نواياهم. عليكم أنتم مسافرو طريق السلوك أن تعرفوا أن هذه العلبة المغلقة التي يقول عنها بعض الناس أنها إنسان فهي في الواقع شيء روحاني لطيف ذو أبعاد سبعة. **وتنفتح أبوابه السبعة على جهات سبعة.**

★ **اللطيفة الأولى**: هي القالب أي الجسد.

★ **اللطيفة الثانية**: هي النفسية أي النفس.

★ **اللطيفة الثالثة**: هي اللطيفة القلبية التي ذكرتها آنفاً.

★ **اللطيفة الرابعة**: هي الروحية.

★ **اللطيفة الخامسة**: هي اللطيفة السرية للخواص.

★ **اللطيفة السادسة**: هي الخفية.

★ **اللطيفة السابعة**: تسمى بالإخفاء.

هذه أبعاد الوجود وفي نفس الوقت الجهات أيضاً. وإن أردت الصدق فإنه شيء نوراني انفصل عن الخالق فصار مضطرباً ويود الآن اللحاق به، ولا يمكن بيان حالته وسريته في كلمات. ولهذا يقال إن منازل السلوك للتعامل وليست للبيان. وأنتم أيها السادة عندما تدخلون في مراقبة استحضار الشيخ فتكون تجربة كل منكم مختلفة عن الآخر ولا يمكن وضعها تحت أي نظام للسلوك. وقد عُرضت على شيوخ نقشبند من المريدين حيناً بعد حين المسائل المختلفة واقترح كبار شيوخنا حلولاً مختلفة في حالات مختلفة فعامة المسلمين الذين لا يرون إلّا الظاهر فتبدو لهم هذه الأمور عجيبة وغريبة لأن علبهم مغلقة ولطائفهم نائمة فمن أني لهم أن يدركوا هذه الحقائق.

والآن أوضح لكم هذه المسألة بمثال: إن المجدد للألف الثاني كتب له شخص يدعى خواجة محمد أشرف رسالة وذكر فيها أمراً عجز عن فهمه وهو أن استحضاره للشيخ يغلب عليه إلى حد أنه عندما يقوم للصلاة فصورة شيخه تكون مسيطرة عليه ويراه كأنه يسجد له ويشاهده حتى وإن أراد النفي فلا يحدث له هذا النفي. فرد على هذه الرسالة الشيخ المجدد كالآتي وهو مسجل برسالة رقم (٣٠) من السجل الثاني للجزء الأول ونصها: لا حاجة لنفي تصور الشيخ البتة لأنها ثروة يتمناها كل طالب للحق ولا ينالها إلّا واحد من المليون، لا حاجة للشعور بالضيق فإن الشيخ مسجود إليه وليس مسجوداً له أي أنه بمثابة الشخص الذي يسجد في اتجاهه لا الشخص الذي يسجد له فإن لم يحدث أي نقص في الصلاة والمصلي متوجه إلى المحراب وإلى المساجد، فكيف يمكن أن يحدث

نقص وهو يسجد صوب المرشد الكامل. في الظاهر هناك فرق دقيق لكن أصحاب العلب المغلقة أنى لهم أن يطلعوا على هذا.

مع هذه الكلمة غير شيخ الطريقة ترتيب أوراقه وقال: كل من يريد من السادة الحضور تسجيل أسماء الكتب والمصادر والمراجع لكي يرجع إليها فها هي الكتب التي تعتمد عليها شريعة طريقتنا. ثم أردف قائلاً: محبة الشيخ وإعمارها في القلب هو نفسه سبب نيل الفيوض والبركات فبمجرد توجهك إليه فاعلم أن باب النجاة انفتح لك كما قال مجدد الألف الثاني في الرسالة رقم (٣٦٠) الجزء الرابع من السجل الأول: لو أن هناك مريداً وليس بكامل التوجه إلى الشيخ وقلبه لا يميل إلى ذكر الله أيضاً فعلى الرغم من هذا يصل إليه النور باستمرار. وبدون المحاولة والسعي أو بدون الشيخ لا يمكن أن تأتي بأي نتيجة ولو كان عندنا تقدير صحيح لأهمية هذه السلسلة فلا يستطيع أحد سليم العقل أن يفكر مجرد تفكير أنه يستطيع الحصول على الفيوض الروحية بدون الشيخ. البعض يقول: تصبح أويسيا، لكن عليهم أن يعرفوا أن هذه المكانة التي يمنحها الحق تعالى أو الرسول (ﷺ) أو تمنحها أرواح كبار الشيوخ عن طريق عنايتهم. فهذه الثروة لا تأتي عن طريق المجاهدة. إنه لأمر معقد وقليل من أهل القلوب لتسني لهم أن يطلعوا على حقيقته. إنني أحاول أن أشرح هذا الأمر ببعض الأمثلة للتيسير عليكم. انظروا إن هذا أمر معروف لدى أهل السلوك أن بايزيد البسطامي له انتساب روحي مع جعفر الصادق على الرغم من أنه وُلد بعد وفاة جعفر الصادق. كذلك ربما أنكم قد سمعتم أيضاً أن أبا الحسن الخرقاني كان منتسباً لبايزيد بسطامي روحياً. كذلك تمت تربية بهاء الدين نقشبند على أيدي السيد خليل وخواجة أمير كلال لكن شيخه الروحي كان عبد الخالق غجدواني وإن كان قد توفي قبل قدومه إلى الدنيا لكن روحه حلقت في باطن خواجة بهاء الدين وهكذا رباه بصورة مباشرة وبفضل أرواح الكبار اعتلى السيد بهاء الدين هذا المقام العالي في التصوف

ولا يمكن مطلقاً الحصول على كل هذه النفحات والكرامات بمجرد المجاهدة والرياضة.

إن السيد باقي بالله أوصى المريد إن كان يريد الحصول على فيض صاحب المقبرة فعليه أن يجعل الشيخ واسطة ووسيلة. فقد كتب لخليفته تاج الدين ما نصه: وإن كان المنشود هو الحق وإن لم يكن حجابي في الوسط فنور على نور لكن عدم وساطة الشيخ تعيق تقدمك للأمام.

أعزائي الأحباء لو كان من الممكن السير على الطريق بدون إمساك يد شخص ما احتاج رجل مثل معين الدين جشتي (رحمه الله) أن يقضي أربعين يوماً على مزار على هجويري. فكل من تتخذه شيخاً عليك واجباً بدون قيد أو شرط. إن معنى الفناء في الشيخ هو أن يطمس شخصيته في ذات الشيخ ولا يبقى له وجود منفصل كما يفقد كل شيء ظله أمام الشمس وعندما يتوارى خلف الحجاب يستقيم ظله والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان فانياً في الله ولهذا جاء على ألسنة الرواة أنه لم يكن للرسول (صلى الله عليه وسلم) ظل في الأصل. كذلك يجب على المريد أن يصبح فانياً في الشيخ. وعندما تصل إلى هذا المقام فسترى أنك جالس في مكانك وبدون أي مجاهدة تحصل على الفيض من شيخك وشيخ شيخك بل من جميع أرواح السلسلة الذهبية وفي وقت واحد تنال فيوضاً لا نهاية لها.

حكى لي شيخي ذات مرة عن تجربة من تجاربه وهي أنه في يوم من الأيام كان مشغولاً في المراقبة إذ رأى في هذه الأثناء أن روح شخص ما كانت على مسافة آلاف الأميال تتلقى منه الفيض باستمرار وبدا له كأنه يصبح خالياً فلما التفت إليها رأى أنها روح مريده وهو من هذه المسافة الكبيرة يجعله خالياً لكن الفيض الإلهي على أنه يكون لا متناهياً ولهذا لا يخلو حجر الشيخ أبداً. وعليك أن تعرف أيضاً أن سلسلة الفيض تستمر على السواء من الحي إلى الميت ومن الميت إلى الحي لأن دنيا أهل القلوب لا

تكترث لأي شيء مثل كلمتي الحياة والموت لأنها مصطلحات أصحاب العلب المغلقة. تعالوا نسعى بكل تركيز إلى المكاشفة.

بدأ يتردد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم في حلقة الذكر هذه ثم إنقطع النور الكهربائي الساطع وفي جو شبه مظلم ومع حبس الأنفاس ازدادت محاولة الاتصال مع الشيخ.

ومع رفع آذان الظهر وصلت تمرينات المكاشفة إلى نهايتها. ومن خلال هاتين الجلستين كان قد عُرف إلى حد ما ما الذي ينتظره السالكون فيما بعد في هذا البرنامج. طرأت على فكرة وهي أن الجلسة الرابعة ستعقد بعد صلاة المغرب فلم لا نستغل هذه الاستراحة للذهاب إلى زاوية الجراحي. إن الأخ مصطفى أوغلو كان قد ذهب إلى أنقرة وكان مصراً على أن يذهب بي إلى خانقاه الجراحي. وكان قد تحدث في هذا الشأن مع الشيخ برهان الدين لكنني فكرت لم لا نشاهد الأشياء بنظرة رجل فقير ومجهول بدلاً من الذهاب إلى هذه الأماكن كضيف مميز لأن المشاهدة العامة والمشاهدة الخاصة بينهما فرق كبير في معظم الأحيان ويكون هذا الفرق مثل الفرق الظاهري والباطني لشيء ما. بل التجارب تعلمنا أن المشاهدة لشيء ما تكون من الناحيتين الظاهرية والباطنية. ففي هذه الحالة فقط تنكشف الحقيقة إلى حد ما وإلّا فإن الخواص يرون مستوى واحد من الحقيقة ولا يكون متيسراً للعامة الوصول إليها والذي يصيبه العامة من المشاهدة يحرم من مشاهدته ورؤيته الخواص.

١٩

الشبكة النقشبندية

ذات مرة كنت ماراً من أمام مكتبة هيئة تنمية اللغة الأردية بمنطقة المسجد الجامع بدهلي وفي تلك الأيام كان قد طبع أول إصدار لكتابى «غلبة الإسلام» وأثناء المرور بهذه المنطقة طرأت لي فكرة وهي أن أتوقف قليلاً هنا وأسأل هل كتابي المطبوع حديثاً متوفر لديهم أم لا؟ عند السؤال عن الكتاب عرفت أنه وصل إليهم وهو موجود الآن في المكتبة.

قلت لأمين المكتبة هذا ما أردت السؤال عنه لأنه لو لم يكن قد وصل بعد فإننى سأقوم بإرساله إليكم.

أمين المكتبة فهم من أسلوب كلامي أنني مؤلف هذا الكتاب فسألني لمزيد من التأكيد هل سيادتكم مؤلف هذا الكتاب؟ في البداية أردت إرجاء الرد على سؤاله لكن بإصرار منه خرجت من لساني كلمة بالحظ. كلامي هذا كان يسمعه شيخ كبير بكل إنصات فقام وجاء إليّ بخطوات سريعة وبادرني بالمصافحة وقال: لا تقل بالحظ فقط بل عليك أن تقول لحسن الحظ. منذ أن رأيت هذا الكتاب وأنا أدعو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لي سبيلاً لمقابلة مؤلف هذا الكتاب. فأنا رجل مسن لا قدرة لي على السفر، فاستجاب الله دعائي وأرسلكم إليّ. مع هذه الكلمة أمسك يدي مرة أخرى بكل حب واحترام وأغلق المكتبة جزئياً كما قام بالإبلاغ الفوري لبعض

أحبابه وأخبرهم عن قدومي إلى مكتبته واهتم بالضيافة الخفيفة في لحظات ثم ودعني بالدعوات الصالحة والتمنيات العطرة قائلاً: إنني قمت بإرسال كتابكم هذا إلى حضرة السيد رئيس جماعة التبليغ والدعوة أيضاً وهو يتمنى مقابلتكم في هذه الأيام وهو موجود الآن في مدينة عليكره، فعندما تأتي مرة أخرى إلى مدينة دلهي عليك أن تخبرني عن قدومك كي آخذك إليه.

بعد بضعة شهور عندما قدمت إلى دلهي مرة أخرى نزلت إلى قرية حضرة نظام الدين لمقابلة حضرة السيد رئيس جماعة التبليغ والدعوة. كان هناك جو من البهجة في مسجد الفيللا وللسؤال عن حضرة السيد ذهبت إلى شخص مسؤول لأستفسر عنه. بدأ يقول: اسمع يا أخي لو أنك جئت اليوم هنا لمصافحة حضرة السيد فليست هناك فرصة لهذا اليوم. وبعد السؤال بطريقة الإستجواب قلت له إن حضرة السيد هو الذي يريد مقابلتي فبدأ يقول: يا هذا ماذا تقول إن حضرة السيد مترفع عن كل الأمنيات فهو لا يريد شيئاً من أحد. فقلت له على سبيل إحراجه أليست لديه أمنية التقرب إلى الله؟ بعد سماع هذا الكلام الجريء على لسان طالب العلم تريث قليلاً وقال: حسناً، اجلس هنا الآن وبعد قليل ستقام الصلاة. ففي هذه الأثناء لو سنحت الفرصة فسيتم إبلاغ رسالتك إلى حضرة السيد.

بعد صلاة الجمعة مباشرة جاء إلى نفس الشخص وذهب بي إلى حجرة صغيرة جداً. رأيت هناك شيخاً مشغولاً بمطالعة كتاب عربي قديم وفي يده قلم رصاص يضع به علامات في حاشية الكتاب أحياناً. سلمت عليه بكل أدب وعرفته بنفسي ووضحت له هدف قدومي. رفع الشيخ بصره للحظات ورآني ثم انشغل مرة أخرى في الإطلاع على الكتاب وظللت واقفاً واضعاً يدي على اليد الأخرى، منتظراً ماذا سيجني العشاق من الفيوض والتبرك بالأصنام. لمدة (٥) أو (٧) دقائق توقف الكون كله

بالنسبة لي هكذا ثم نادى الشيخ علي خادمه وأعطاه بعض التوجيهات. جاء شخص ما بجردل خال وإبريق مليء بالماء، وقتئذ قال حضرة السيد: تفضل اغسل يدك. فلم أفهم شيئاً ما هذا الذي يحدث وأي نوع من الحفلات هذه ولكن في طريق السلوك كما هو معلوم ممنوع كثرة الأسئلة وعلى ذلك قلت لنفسي أن غسل اليدين بدون ضرورة عمل مباح فغسلت يدي بكل خشوع وتواضع. حضرة السيد أيضاً غسل يديه وقام بتجفيفهما بالفوطة ونهض من السرير وقال لي تفضل فسرت وراء حضرة السيد وخمسة أو ستة أفراد التفوا حول حضرة السيد محاصرين له. وواحد منهم نبهني أن أكون مع حضرة السيد خطوة بخطوة لأنني لو تخلفت لفقدت شرف المقابلة. من الدور الأرضي وصلنا إلى الدور الأول حيث كان كثير من الناس مشغولين في تناول الغداء، وفي الدور العلوي كان هناك باب حديدي ولم يكن مسموحاً لأحد كائناً من كان أن يدخل منه سواء كان من عامة الناس أو من الخواص. بعض الناس رمقوني بنظرة الشك متسائلين فلعله تسلل خلسة إلى هذا المكان لكن بعدما شاهدوا أن الرجل يسير مع الشيخ خطوة بخطوة وحضرة السيد هو نفسه يلتفت إليه فلم يستطع أحد أن يجرؤ على منعي وأيضاً نجحت في أن أدخل من هذا الباب الحديدي مع حضرة السيد.

في الدور العلوي كان هناك حوالي (١٠) أو (١٢) شخصاً وهم في الغالب كانوا في انتظار حضرة السيد والسفرة كانت جاهزة للفرش وفي وسطها كانت هناك مرتبة صغيرة جلس عليها حضرة السيد وأجلسني أمامه. والآن فقط عرفت ما سر حفل غسل الأيدي فلم يكن هذا الحفل لأخذ المبايعة ولكنه في الواقع كان من أجل تناول الغداء. على السفرة كانت هناك عدة أنواع من الخضار وطبق من اللحم، وفي أماكن عدة وفي أطباق صغيرة كانت أجنحة وافخاذ الفرخة المشوية. ومن مكان قريب من السفرة

كان يحضر شخص ما الخبز الساخن. التفت إلى حضرة السيد وقال: تفضل وابدأ بتناول الطعام، ولكن تركيزي على الطعام كان أقل من تركيزي على حركات وسكنات أهل المجلس فواحد منهم كان مشغولاً بشراهة في أكل الخبز الساخن والثاني كانت نظرته منصبة على الفرخة المشوية والبعض الآخر كانوا ذوي أجسام ضخمة بسبب السمنة كذلك كان هناك شخص الجزء الخلفي من رقبته كان بارزاً بشكل غير عادي كأنه يشيير إلى أن هذا الشخص لديه جسم غير سوي بسبب تناول غذاء غير متوازن. أما حضرة السيد فكان غذاؤه متوازناً وأسلوب تناوله للطعام كان في غاية التحضر.

مرة أو مرتين قال لي حضرة السيد مشفقاً عليَ عندما رآني غير منهمك في الأكل: تفضل كل، لم لا تأكل. ثم قال: حضرتك تعمل لغلبة وإظهار الإسلام ورأسك بدون قلنسوة، يجب عليك أن تهتم بهذا الأمر وتلبس الطاقية.

قلت له بكل تواضع كطالب علم: ومن أجل هذا قدمت إلى مجلس الصفاء لأمثالكم كي أعرف نقائصي أمام المرآة ومن ثم تنشأ دواعي الإصلاح.

ثم قال: اسمع، لماذا وضعت صورة إنسان على غلاف الكتاب؟ إنني قمت بالأعتراف بخطأي هذا أيضاً على الفور والآن تفاءلت بأن حضرة السيد تعرف عليّ باعتباري مصنف كتاب غلبة الإسلام والآن سيبدي رأيه في موضوعات الكتاب لكن بعد أن أنتهي من تناول الطعام لم يتحدث في أي موضوع ولم يحدد لي أي موعد آخر بل أكتفي بكلمة واحدة وهي أن هذا الوقت هو وقت قيلولتي. فكرت ربما يكون هناك حفل رسمي بعد القيلولة، لكن المصاحبين والمجاورين قالوا لي: إن مقابلتك مع حضرة السيد انتهت، وهل تكون هناك مقابلة أكثر تفصيلاً من هذه المقابلة.

عدت وكان قد انطفأ قلبي ولم أكن أعرف من قبل أن هذه الحركة العالمية التي تبدو في ظاهرها حركة مقبولة عامة لإيقاظ عوام الناس هي في الواقع جزء من الحركة الصوفية لمشاهدة الحق حيث عامة الناس الذين هم في نظرهم كالأنعام مرتبطين بهذه السلسلة بدون أن يتحملوا مشاق وصعوبات البيعة والمجاهدة والمكاشفة. إنها حركة صوفية محضة. إذ كانت أعناق أكابرها مربوطة بمبايعات النقشبندية وكانت نتيجة تشكيلها بهيئة جديدة وهي أن قالباً صوفياً نقشبندياً منحرفاً أصبح دين السواد الأعظم ونفس القصص والوقائع لخرق العادة ونفس الكرامات لكشف القبور ونفس الحكايات المحيرة للعقول تشكل أذهان أهل التبليغ والتي ترفضها الطبائع السليمة بعدما تراها في صحائف أهل التصوف.

لم تكن تحصل سلسلة التصوف النقشبندية في شبه القارة الهندية الباكستانية على هذا القدر من النجاح غير العادي ولم يكن يجد دين التصور النقشبندي كل هذا القبول على مستوى العالم بين جمهور المسلمين لو كانت قد تمت نهضتها على استراتيجية البيعة وتصورات الشيخ البالية. إن الشيخ إلياس وأعضاؤه كانوا مبايعين على السلسلة النقشبندية وكذلك كانوا مقربين من التصور النقشبندي. هؤلاء لم يضموا عامة الناس الذين هم كالأنعام في نظرهم إلى طريق المكاشفة والمراقبة لكن أقاموا في قلوبهم الرفعة والعلو لأهل الكشف وقدموا القصص التي لا سند لها للمتصوفين كدين إلهي فكانت النتيجة أن دين غجدواني النقشبندي انتشر في أنحاء العالم لكن بقي دين محمد رسول الله (ﷺ) أجنبياً بين المسلمين.

لو وضعت في الذهن المعرفة النقشبندية لمؤسسي جماعة التبليغ ففي هذه الحالة تسهل عليك قراءة فضائل الأعمال وأمثال هذه الكتب

والصحائف. ثم لو وجدت في كتاب لشيخ نقشبندي هذه الحكاية التي جاء ذكرها في الفضائل: أن السيد ممشاد الدنوري عندما دعا الناس له بالجنة وقت احتضاره فضحك وقال: منذ ثلاثين عاماً تظهر الجنة أمامي لكنني لم ألتفت إليها ولو لمرة واحدة.

كذلك جاء في كتاب فضائل الصلاة أن شخصاً معروفاً باسم ثابت كان يدعو الله ويتضرع إليه ليجيز له أيضاً إقامة الصلاة في القبرإن كان ممكناً فليسمح لي أيضاً. يقال أن وقت دفنه سقط طوب لبني من لحده فماذا يرى الرائي أنه يصلي في القبر واقفاً وفي نفس الكتاب عن فضائل الصلاة ذكر عن أهل الكشف أنهم يحسون أن الذنوب تتساقط مع ماء الوضوء. وعلى هذا ورد عن أبي حنيفة (رضي الله عنه) أنه حينما يرى سقوط ماء الوضوء كانت تراوده نفسه أي ذنب يتم غسله بهذا الماء.

وفي فضائل الذكر أيضاً جاء الحديث عن الروشتة السهلة للنجاة من النار وهي أن أي شخص يقول لا إله إلّا الله سبعين ألف مرة فهو ينجو من نار جهنم، بل هناك احتمال أن تقول هذه الصيغة وهي لا إله إلّا الله سبعين ألف مرة ثم تهبها لأي شخص وجبت عليه النار فهذه الهدية تنقذه من النار. والشيخ القرطبي قد جرب بنفسه صدق هذا العدد من الذكر على يد شاب، صاحب الكشف. والشيخ زكريا أخبر القراء بهذا.

وفي فضائل الحج قدمت شواهد ودلائل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حي يرزق في قبره. فبينما كان المحدث عبد الرزاق يقرأ الأحاديث في المسجد النبوي وهذا الشاب كان جالساً في زاوية ودون أدنى اهتمام بالدرس الذي كان يلقيه المحدث عبد الرزاق. عجب الناس من سلوك هذا الشاب فسألوه لم لا تشترك في المجلس وتسمع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم). رد هذا الشاب بدون أن يرفع رأسه ودون أي التفات: في هذا المجلس أناس يسمعون الأحاديث من عبد من عباد الرزاق وهنا يوجد من يسمع من الرزاق نفسه

لا من عبده. كذلك جاء في كتاب فضائل الحج أيضاً: أن الناس يذهبون لطواف الكعبة إلى مكة وهناك أناس تأتي الكعبة نفسها لتطوف بهم.

وفي نفس الكتاب المسمي بالفضائل تجد حكاية طي الأرض على يد شخص اسمه مالك ابن قاسم الجبلي الذي لم يكن قد أكل شيئاً منذ أسبوع وكانت تفوح من يده رائحة اللحم، فما سبب هذه الرائحة. قيل أنه بعدما أطعم والده الطعام في وطنه جاء بسرعة شديدة من مسافة ألفين وسبعمائة ميل ليصلي صلاة الفجر في الحرم.

لعموم الناس من الممكن أن تبدو هذه الحكايات المحيرة للعقول ضد ميزان الشرع والعقل، لكن الناس الذين يركزون أنظارهم على الأدب السمعي وأصول ومبادئ الإسلام النقشبندي، فلمثل هؤلاء حكايات طي الأرض وكشف القبور ومشاهدة الحق ليست محيرة مطلقا.

لكن الحيرة والدهشة تكون بكل تأكيد عندما نعرف أن تصور الدين المنحرف للمتصوفين النقشبنديين الغلاة كيف يقدم اليوم بأسلوب جميل وفي قالب مستند للإسلام بدون أن يحس أحد. ومن الغريب والعجيب أن البسطاء من المسلمين يعتقدون أن نشره وتبليغه ضمان لهم في الآخرة.

كنت قد ذهبت إلى مركز التبليغ كطالب علم بدون واسطة أو توصية ثم بعد جهد جهيد وسعي كبير سُمح لي بالحضور في حلقة الخواص، وبلطف خاص وكرم من حضرة السيد وكمصنف شاب أصبحت أيضاً مستحقاً للقائه وهكذا سنحت لي الفرصة أن ألقي نظرة على المركز على المستويين العام والخاص. إن التحول من العام إلى الخاص ليس عملاً صعباً. لكن لو تم اعتبارك مرة من الخواص ففي هذه الحالة لا يمكن الوصول إلى حقائق الأشياء كما هي على المستوى العام.

في ضوء هذا التفكير قررت أن أزور خانقاه الجراحي بدون عون ومساندة مصطفى أوغلو. في مركز نظام الدين حيث كانا مستويان

للمعيشة وكان هذا واضحاً من السفرتين المختلفتين وكان عليهما غطاء من عقائد الحركة. إن النظرة المعرفية لمؤسس حركة التبليغ والدعوة والخلفية التاريخية والصوفية لهم وتحقيق وتحليل كتبهم في ضوء هذه الخلفية لم يكن قد طرأ على ذهني وقتئذ أنه على الرغم من السير على المستويين لم أستطع التقدير الصحيح لماهية الحركة الأصلية وغايتها وأهدافها. والأصل أنه ما لم تكن تنظر إلى الأشياء في ضوء خلفيتها الأصلية فالحلقات لا تتصل ببعضها والحقيقة لا تنكشف.

أتذكر جيداً حينما توقفت الباخرة على ساحل سين ماركو في أول سفر لي إلى فينيسيا وجئت مع مضيفي ومروراً بـ(داجز بالاس) و(بيازاسين ماركو) و(ريوادكيلي شيواني) وصلت إلى (جسرريالتو). فبالنظر إلى المباني التي كانت على الطراز الشرقي الخالص كنت قد بُهت لثوان لأن الأمر كان بدا لي صعباً أن أتصور أن أي مدينة أوروبية يمكن أن تكون على هذا الطراز الشرقي بل على الطراز المعماري الإسلامي. ثم عندما رأيت الفاتورة الخاصة بالفندق والتي كانت مكتوبة باللغة المحلية فاستغربت مرة أخرى أن هؤلاء أيضاً يقولون فاتورة لكشف الحساب مثل العرب. وعندما توسعت في سفرياتي فازدادت حيرتي أن نصاري ألبانيا والبرتغال يقولون عشرات الكلمات العربية المحرفة، حتى البرتغاليين عند أخذ أو إعطاء الوعد يقولون بصفة عامة (أو مشاء الله) أي (إن شاء الله) ولكن عندما سنحت لي الفرصة أن أقوم بدراسة متأنية وعميقة للتاريخ الإسلامي بأوروبا والتعاملات الحضارية في القرون الوسطي فأصبحت المباني الشرقية لفينيسيا مع تاريخها وحضارتها المرتبتة بالخلفية التاريخية واضحة تماماً وزال الغموض وبدا كأن جميع الحلقات تتصل ببعضها.

إن أول زيارة لي لمركز الدعوة والتبليغ كانت قبل ربع قرن من الزمان، والآن وبعد مرور هذه المدة بدأت أعرف جوهر الحقيقته

وغايتها وأهدافها. ولا يمكن معرفة جوهر الحقيقته ما لم تكن تعرف العلاقات الحميمة لأكابر التبليغ مع التصوف النقشبندي وأكابر ديوبند. وفي نفس الوقت وإن لم يكن لديك علم واف بجوهر الحقيقة للنقشبندية فتكون بقراءة الأحداث والوقائع لخرق العادة في كتب الفضائل وسماع بيانات وخطب الشيوخ للكشف والكرامات مثل الشاب الذي أصبح مبهوتاً مثلي عندما ذهب إلى فينيسيا دون أن تكون لديه الخلفية التاريخية والحضارية.

٢٠

من آذى جاره ورثه الله دياره

كنت قد جمعت معلومات وفيرة قبل أن أذهب إلى زيارة خانقاه الجراحي بكار جمرك. هذه الزاوية في الواقع فرع لسلسلة الطريقة السهروردية نسبة إلى شهاب الدين السهروردي الذي استشهد على يد النظام الحاكم آنذاك بسبب أنشطته السياسية السرية، لكن عامة الناس لا تعلم شيئاً عن أنشطته السياسية الحقيقية. وقت غروب الشمس حينما دخلت إلى خانقاه الجراحي رأيت شخصاً مجذوباً يلعب بقطتين الواحدة باللون الأبيض والأخرى باللون الأسود وكان يظهر من عيني القطة السوداء الناريتين توحش مليء بالأسرار وكان يتحكم فيه وجود القطة البيضاء إلى حد ما. وعندما وقع نظري على القطط وأنا على الباب الرئيسي للزاوية شعرت لأول وهلة أنها زاوية لبابا القطط. لكن في الداخل كان الجو مألوفاً إلى حد كبير. في أماكن عديدة كانت هناك طغراءات معلقة على الجدران وعلى برواز كبير كانت مكتوبة هذه العبارة: يا حضرة المرشد يا سلطان سيد محمد نور الدين الجراحي. وفوق هذا البرواز كان هناك برواز آخر معلق بالجدار ومكتوب عليه: يا ملك الشهداء. وفي أرض المجلس كان هناك كرسي ملقي في الجانب لشيخ الطريقة وفوقه كانت ثلاثة براويز الواحدة تلو الأخرى. الواحدة منها كانت تحمل صورة الشيخ أوزك، هذا

هو نفس الشيخ المظفر الذي قام بتعريف السلسلة الجراحية في العقد السابع من القرن الماضي وذلك في المغرب العربي. كذلك فتح فروعا لها في كندا وأمريكا والدول الأخرى. لم تكن هناك أية مظاهر احتفالية في الخانقاه ولذا فكرت لم لا أقوم بتفقد المبني من الجهات المختلفة. أولا، **واستوقفتني لوحة كانت تحمل هذه العبارة: من آذى جاره ورثه الله دياره.**

عند تفحصي لهذه اللوحة جاء شخص إليّ وسألني: هل أنت على معرفة باللغة العربية؟ قلت: نعم، أنا على معرفة بالعربية لكن معنى هذه العبارة غير مفهوم.

قال: هذا حديث، ألا تعرف؟

قلت: لم يقع نظري على مثل هذا الحديث من قبل أبداً.

من أين أتيت؟ ربما أراد بهذا السؤال أن يعرف عن مدي علمي. ثم أردف قائلاً: إنني منذ ثلاثة عشر عاماً مرتبط بخانقاه الجراحي الموجود في مدينة نيويورك، وآتي هنا للزيارة مرة أو مرتين كل عام. وهذا الحديث الذي تراه مكتوباً في اللوحة وراءه تاريخ طويل. قبل قدوم نور الدين الجراحي حينما إلى مدينة إسطنبول فقبل كان قد أمر رسول الله (ﷺ) مؤذن مسجد خانفدا في الرؤيا أن يبني للسيد الشيخ نور الدين حجرة منفصلة في المسجد وكان هذا أخبره الرسول (ﷺ) أن الشيخ سيأتي إلى إسطنبول يوم الإثنين فحدث بالتمام والكمال كما جاء في الرؤيا ولكن عندما بدات تنعقد مجالس الدرس والإرشاد ومحافل السماع والذكر بدأ الناس يأتون إلى هذا المكان بعدد كبير وبدأت تحدث ضوضاء كبيرة بسبب الرقص والسماع، فالسيد بكر أفندي الذي كان قصره يقع في جوار المسجد وهو المكان الذي تقف فيه الآن وقد تحول إلى جزء من المسجد، اعترض بشدة بكر أفندي وبدأ يعارض السيد الشيخ بدون أن يدري ماذا ستكون عاقبة معارضته لأهل الله. وبناء على هذا لم يكن قد

مر على هذه المعارضة سوي عدة أيام حتى أصيب بالشلل ومات وأصبح ورثته مجبرين على بيع هذا القصر في المزاد العلني.

في تلك الأيام رأي السلطان أحمد الثالث رؤيا يقول فيها الرسول (ﷺ) له: عليك أن تشتري قصر بكر أفندي وأوقفه لصالح زاوية نور الدين الجراحي. خلاصة القصة أن رؤية الرجل المؤمن غيَرت قدر قصر بكر أفندي وتحول إلى خانقاه الجراحي. هذه الواقعة تدل على صدق الحديث الذي جاء فيه ما معناه: الذي يؤذي جاره فالله يجعل بيته ملكاً لمن أوذي. بعد أن سمعت خلفية الحديث لم أفهم الحديث بالكامل فحسب بل عرفت أيضاً لماذا لا يوجد هذا الحديث الموضوع في الأسانيد المعروفة والمتون المشهورة للحديث.

إنها كرامة ومعجزة السيد المرشد. وما هي الكرامات والمعجزات الأخرى المنسوبة إلى الشيخ؟ أردت أن أعرف منه. قال: أحدها أن الدعوات تستجاب بسرعة عند قبره، ولم لا إذ إن الله تعالى وعد زائري قبره بهذا.

حقاً؟ سألني بعدما أحس باستغرابي. ألم تقرأ الجزء الخاص بالنبوءة القديمة التي ذكرها الإمام الشرنوبي في كتابه طبقات الأولياء عن قدوم الشيخ. قبل ثلاثة قرون ونسخة مخطوطة لهذا الكتاب موجودة في مكتبة الفاتح أيضاً.

فهل هناك نسخة أخرى لطبقات الأولياء موجودة هنا في الزاوية أيضاً؟ حاولت أن أعرف. قال: بشأن الكتاب لا أستطيع أن أقول شيئاً ولكن الصفحة المصورة من نسخة المخطوطة موجودة هنا للزوار. مع هذه الكلمة أمسك يدي وذهب بي إلى الممر الداخلي ووقف عند برواز قديم جداً حاولت قراءة المكتوب عليه بصعوبة شديدة، **وهذا البرواز كان يحمل النص التالي:**

ومنهم سيد نور الدين الجراحي ساكن الإسطنبول العليا، يأتي في عام خمسة عشرة ومائة بعد الألف، يعيش من العمر أربعة وأربعين سنة. من كرامته أن الله تعالى يتكرم عليه يوم موته ويدخل الجنة ومنها أنه سأل الله تعالى ما هو في عالم الغيب – إن الله يكرم زواره فتستجاب لدعواتهم.

سألته: قل لي ما هو السبيل للتأكد من الكتاب الذي ينسب إلى الشرنوبي وجاء في مخطوطته ذكر هذه النبوءة، فهل هذا الجزء كان قد تم تصنيفه قبل ميلاد الجراحي لأن هذا الأمر معروف أن مثل هذه الإضافات تحدث حسب الضرورة في المخطوطات. ولسلسلة هذه الإضافات وأمثالها قصة طويلة وشيقة. انزعج قليلاً على اعتراضي هذا ثم قال: لو كانت هناك كرامة أو كرامتان لكان من الممكن الرفض لكن له كرامات كثيرة. خذ على سبيل المثال هذه الكرامة وهي أن الشيخ نور الدين مدفون تحت قدمي أمه وهذا في الواقع إشارة إلى الحديث الذي جاء فيه «**الجنة تحت أقدام الأمهات**». بقي أمر استجابة الدعاء فقد حدث لي مراراً وتكراراً أن الهدوء والطمأنينة التي أحصل عليهما هنا والدعوات التي تستجاب بسهولة لا مثيل لها ولا يمكن مشاهدتها في مكان آخر. فلو لم يكن هناك تأثير في الدعوات لما كان يأتي مريدوه من مدن أمريكا وأوروبا باستمرار هنا.

لم أكن أريد التجريح في معتقداته لكن في نفس الوقت لم أكن أريد أن أحرمه من فيض الدعاء الذي جعلته لنفسي حرزاً وملاذاً وهو: اللهم أرني الأشياء كما هي. وبسبب هذا الدعاء أستطيع أن أرى الأشياء أحياناً على هيئتها الأصلية، وعلى هذا قلت له ناظراً إليه: هل لي أن أقول لكم شيئاً إن لم يكن فيه تجريح لمعتقداتك؟

رد عليّ مبتسماً: أبداً، قل ما شئت وبكل حرية.

قلت له باعتباري طالب علم في الحضارة والتصوف هل يتسنى لي

معرفة خلفية هذه الكرامات والتنبؤات. لا تقبل كلامي بصورة حتمية لكن لو سنح لك الوقت فلتبحث عن حقيقة هذه الأسئلة بنفسك وهي أن مقبرة الجراحي حينما أقيمت هنا فسببها هل كان بشارة الرسول (ﷺ) لحاكم الوقت في الرؤيا أم كان وراءها محرك سياسي لشخص يقدم إلى إسطنبول فجأة مع خدمه وحاشيته وفي أول الأمر يتم تدبير مقر لإقامته في مسجد جانفدا ثم يمنح بيتاً شبه القصر بعد شرائه. هذا هو أمر نور الدين الجراحي.

أما الطريقة الخلوتية عندما جعلت مركزاً لأنشطتها في عهد سلطان بايزيد (١٤٨١-١٥١١م) فلم يكن وراء هذا التحرك الهام أية بشارة بل كان الهدف من ورائها تولي بايزيد الحكم والجلوس على العرش. إن أهل الطريقة الخلوتية نالوا شهرة واسعة جداً ونفوذاً كبيراً خلال الثلاثين عاماً لحكم السلطان بايزيد وقد تم خلال هذه المدة تحويل كنيسة بيزنطية كبيرة إلى خانقاه للطريقة الخلوتية.

ويرجع كل ذلك لأن المتصوفين الخلوتيين كانوا قد قدموا للسلطان دعماً كبيراً أيام إمارته حينما كان أميراً من الأمراء وكانوا قد تعرضوا لأخطار كبيرة من أجله. إنها حقيقة أن مختلف الطرق الصوفية كانت لها علاقات قريبة ووطيدة مع السلاطين الأتراك بل كان يتم تعيين الموظفين الكبار بإماءتهم وإشارتهم.

لعلك تذكر أن متصوفي الفرقة المولوية أيام سقوط الخلافة العثمانية كانوا قد ساهموا في الأعمال المسلحة لإنقاذ الحكومة، وبعد سقوط الخلافة اختار الشيخ سعيد ومؤيديه طريق السلاح لإلحاق الهزيمة لمخططات مصطفى كمال العلمانية. وبناء على هذا إن كان قد حصل الشيخ نور الدين على التعاون الكامل من الحكومة لأنشطته فلم يحدث هذا بسبب الكرامة بل حدث لحاجة نظام الحكم القائم السياسية.

بسبب كلامي هذا ظهرت على وجهه علامات الحيرة ثم بدا لي كأنه يريد أن يقول شيئاً دفاعاً عن شيوخه لكن انطلقت من لسانه فقط هذه الكلمة «**تشيبي سلطان**». ثم أردف قائلاً: إن بعض الناس حاولوا كثيراً الإساءة لأصحاب الصفاء. والسلاطين دائماً كانوا يحضرون على عتبات أولياء الله ويطلبون منهم الدعوات والتوسلات. أما اتهامهم بالخوض في السياسة فمن رأيي أنها إهانة كبيرة لأهل الله.

لكن التاريخ هو التاريخ ولا يمكن إخفاء الحقائق المريرة بدعوي الستر وحسن الظن.

قبل أن أقول له كلمة وأتسبب في إزدياد غيظه حان وقت رفع أذان المغرب وهكذا انهت المناقشة نفسها.

إن هذه الزاوية الخلوتية للجراحي تعتبر مركزاً عالمياً للسلسلة، ففكرت لم لا أذهب إلى المقر الرئيسي وأستمتع في مجلس الذكر والسماع حيث يعقد نوع خاص من الذكر وهذا التقليد مستمر منذ قرون. انعقد مجلس الذكر بعد صلاة العشاء بقليل. جلس السادة الرجال في شكل دائري وفي الدور العلوي وراء النوافذ الخشبية أخذ السيدات أماكنهن. بدأ مجلس الذكر وقُرئت البسملة في ثلاثة مقاطع هكذا (بسم الله/ الرحما/ ن الرحيم). ثم استمر البعض في ذكر النفي والإثبات لفترة وجيزة. وبعد قراءة الصلاة والسلام وقف الناس ولكن الدائرة بقيت على حالها، ثم بدأ ت الرياضة الروحية هكذا: (**الله حي، الله حي**) ووضع الناس أيديهم على أكتاف الآخرين والآن بدأت الدائرة في التحليق وبدأت وتيرة أصوات (**الله حي، الله حق**) في ازدياد السرعة بالتدريج. وفي هذه الأثناء بدأ إثنان من المنشدين الرقص وصوت (**حي، حي**) بدأ يعلو كل لحظة. ومع هذا الصوت بدأ يزداد هز الأعناق وبعد قليل مع صوت منسجم لـ(**حي، حي**) بدأت تنخفض وتيرة الصوت. وفي الخلفية بدأت كلمات الأدعية واستمرت سلسلة هذا الذكر لمنتصف الليل تقريباً.

مقارنة بسفينة النور كان الإحساس الروحي أقل من ذكر الجراحي. ربما كان هذا بسبب تكرار نفس المناسك والطقوس والحركات؛ لأن التكرار في الغالب يُذهب المتعة ولكن ليس من السهل للمتصوفين أن يخترعوا كل يوم رياضة روحية جديدة وأذكار حديثة ولكن الذي يحدث هو أن كلما يأتي مؤسس جديد لطريقة ما يبدأ إقامة فرع جديد باسمه ويضيف إلى التقاليد السائدة طقوسا جديدة وأورادا ووظائف مختلفة. كما يقال بشأن نور الدين الجراحي أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه من أسمائه الحسني الخاصة وعلمه بعض الأدعية المخصوصة وأوصاه أن يقوم بذكر الأوراد الكبيرة الصباحية والأوراد الصغيرة المسائية. إنني لم أستطع معرفة هذه الأسماء الحسني بعد قدومي هنا لكن عرفت بكل تأكيد أن جميع الطرق الصوفية أظهرت قساوة القلب على مستوى كبير في البحث بكل شوق عن العبادات الجديدة، وكل هذه الطرق للذكر والمكاشفة والمجاهدة والمراقبة ومثل هذه الرياضات الأخرى ما هي إلّا اختراعات بشرية. لكن حينما تبدأ مثل هذه البدع والخرافات في الانطلاق فبعد ذلك كل من يأتي لتأسيس طريقة جديدة يضيف إليها مزيدا من البدع وذلك لإظهار شخصيته وهويته الجديدة.

على سبيل المثال في البوسنا وكوسوفا حيث تعقد السيدات لهن مجالس خاصة في الزوايا النقشبندية يسرن وهن في حلقة مستديرة مع ترديد الأذكار وهكذا تتكون دائرة من ثلاثين أو أربعين سيدة وهن يطفن بشكل دائري في حالة الذكر. كذلك عندنا في الهند المتصوفون الشطاريون الذين كان لهم تعامل خاص مع الكهنة والزهاد الهندوسيين، فهؤلاء قد أدخلوا في طريقتهم عدداً من الصلوات الخاصة. لو اطلعت على كتاب الشيخ محمد غوث المسمى بالجواهر الخمسة فهو يكفي لرفع الستار عن الحقيقة وتعرف كيف حاول الروحانيون الاستهزاء بالدين الإسلامي

من وراء أستار العبادة والرياضة الروحية. إن الصلوات التي أحدثها الشطاريون هي صلاة الأحزاب وصلاة تنوير الفجر وصلاة العاشقين. وكذلك قام هؤلاء بإحياء الأوهام اليهودية القديمة بالأسماء الأكبرية ودعاء بمسخ. يظهر ويتبين من خلال هذه البدع والخرافات كيف استمر شن الغارات والحملات ضد الإسلام من وراء أستار التصوف. عندما يبدأ مرة إدخال الأمور المحدثة في الدين ويصبح مسموحاً للشيخ المتصوف أن يحدد لمريده حسب أحواله الأوراد والأذكار كما يحدد له قدراً معيناً من العبادة والأذكار فكأنه قد أبيح له أن يأتي بمحدثات أخرى.

في سفري هذا لمدينة إسطنبول عندما أخبرتني مريدة الشيخ هارون يحيى أن تقواه وصلت إلى درجة أنه يغتسل لكل صلاة بدلاً من أن يكتفي بالوضوء وأثناء تلاوة القرآن يكون واقفاً طوال وقت التلاوة، فإنني لم أتعجب ولم أستغرب من هذا الكلام بالمرة.

٢١

الدرس الصامت

في صباح اليوم التالي وصلت إلى إسماعيل آغا متأخراً بعض الوقت. في الممر شاهدت البهجة والضوضاء وعلمت أن هناك استراحة الآن لشرب الشاي والمجلس الأول قد انتهي قبل قليل. لم أجد في الممر الأخ هاشم وعند السؤال عنه علمت أن بعض الحضور ما زالوا داخل القاعة مشغولين في المكاشفة بالتوجه الكامل، ثم بدأ المجلس الثاني بعد نصف ساعة. ظهرت على الشاشة أولاً عدة صور للنظام الشمسي، وبدأت المناظر تتغير حيناً بعد حين وبدا لنا كأننا في مرصد فلكي حيث سيرفع الستار عن أسرار ورموز الكون الواسع ثم ظهرت على الشاشة صورة لعدد من الكواكب وتوقف العرض على هذه الصورة. وفي جانب من الشاشة وعلى دائرة مضيئة كان مكتوباً بالخط العربي «**الرابطة**» وكان قد تم رسم طريق نوراني لأشعتها وهذا الطريق متجه إلى الآفاق. هكذا كان يبدو للمشاهد.

بدأ شيخ الطريقة تلاوة آية ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثم أردف قائلاً: أيها الناس إن آية النور لها أهمية خاصة لدينا نحن أهل التصوف. فما هو النور؟ الله نور وهذا الكون خلق من نور ويتحكم النور بأنفس الناس أما أهل الظاهر فليسوا على معرفة بهذه الحقيقة وهي أن بدايتنا ونهايتنا من النور. نحن خرجنا من النور ونرجع إلى النور نفسه أيضاً، وقد أبي إبليس أن يسجد لآدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بسبب هذا النور الذي كان قد وضعه الله في جبين

آدم (عليه السلام). هذا هو النور الذي جاء من نور الله وبسببه يرى أهل الكشف من عين الباطن. أما الذين أعينهم مغمضة أو هم أنفسهم عميان فليس في مقدرتهم فهم هذه الأمور. وأنتم تعلمون جيدا أن الإمام الكفيف مهما يكون ماهراً في قراءة القرآن الكريم وعالما للفقه لا يمكن تقديمه للإمامة مع وجود المبصرين. هذا الشيء ينطبق على فاقد البصر أما الذين هم في الأصل فاقدي البصيرة فتستطيعون أنتم تقدير قباحتهم بأنفسكم.

أعزائي الكرام، إن عين الباطن لا تفتح بسهولة وكما يسير الكفيف وهو ممسك أصبع الشخص المبصر، هكذا يجب عليك أن تختار التتلمذ على يد شيخ كامل والتلمذة هي من النوع الذي نسميه نحن أهل التصوف الفناء في الشيخ على قول حافظ شيرازي إذ يقول أن المرشد الكامل لو طلب منك أن تجعل سجادة الصلاة مبتلة بالخمر فافعل؛ لأن السالك ليس بجاهل عن مراحل الرموز.

فإن لم لم تسلم نفسك بشكل كامل إلى ذمة الشيخ تكون محروماً من فيوضه وبركاته. يقال: ذات مرة جاء عالم في خدمة شيخنا النقشبندي المجدد للألف الثاني وجلس لبعض الوقت لكن الشيخ لم يكلمه وبعد أن ذهب قال للناس: إنني حضرت هنا على أمل الحصول على بعض الفيوض والبركات لكن الشيخ المجدد لم يتفوه ولو بكلمة واحدة. عندما علم السيد المجدد بهذا الأمر قال: من لم يستطع أن ينال الفيض من صمتي فأني له أن ينال الفيض من كلامي.

أيها الأعزاء أهل الظاهر أو الذين يهتمون بالظاهر هؤلاء حينما يرون حالة الأدب والسكوت في مجالس الشيوخ فهم لا يدركون أبدا كيف يتم عن طريق الدرس الصامت هذا التغيير القلبي للطالبين والسالكين بشكل مؤثر جداً.

إن بعض المريدين والطالبين في الأيام الأولى وهم في قمة السلوك يصابون بسوء الفهم وذلك لأنهم بسبب طريقة الشيخ الخاصة يستطيعون قطع مراحل السلوك والتصوف في غمضة عين. فيا ليتهم يعرفوا أن بين الله وعبده سبعمائة حجاب. وكلما يزداد الولي علواً يقل عدد الأحجبة. ولهذا السبب يكون نور الولي الكبير أعظم وأكبر. ولا يستطيع الولي الصغير أن يتحمل هذا النور. ولذلك لو صرفت النظر عن الشيخ وحاولت قطع المراحل والمنازل كلها في قفزة واحدة فالخوف كل الخوف أن تقضي على نفسك. الناس يفنون حياتهم في هذا الطريق إلى أن يتأهلوا لتحمل النور الإلهي. ثم يأتي المقام الذي يرفع كل الحجب الموجودة بين الله وعبده على قول مولانا الرومي ما معناه أن الدرويش هو من يكون بلا واسطة والشعلات لها علاقة خاصة بوجوده.

هذه هي المرحلة التي يأخذ فيها الأولياء الجوائز من الله مباشرة ويوزعونها بين العباد وهذا ما يقوله المتصوفة أننا نؤمن بالمشاهدة ولا نؤمن بالسمع، فهذا هو السبب. لكن منزل السلوك والتصوف هذا لا يصل إليه إلّا القليل والشخص الذي يحصل على مقام الفناء في الله هذا، فهو لا يعرف عن نفسه شيئاً. يقال أن شخصاً استمر في خدمة بايزيد البسطامي لمدة ثلاث سنين لكن كلما كان يأتي هذا الشخص أمامه كان الشيخ يسأله ما اسمك. هذا الشخص كان يظن أن الشيخ يمزح بكلامه هذا وبعد الاستفسار علم أنه لم يكن يمزح بل كان في قلبه اسم الله جارياً بشكل لم يكن يذكر أي اسم غيره (ﷻ). يقال كذلك أن مريداً لذي النون المصري حضر في خدمة بايزيد البسطامي وقرع الباب فجاء صوت من الداخل من بالباب وعم يبحث؟ قال المريد: إنني جئت هنا بحثاً عن بايزيد البسطامي. رد عليه: من هو؟ وأين هو؟ فإنني أيضاً أبحث عنه منذ مدة طويلة لكنني إلى الآن لم أنجح في العثور عليه.

أيها الأعزاء! عندما يصبح الإنسان متصلاً بالله سبحانه وتعالى ويتخلص من كل ما هو غير الله تماماً فلا تصبح لديه أي أهمية لوجوده وأمانيه ويصبح رضا الله رضاه. يقال أن السيدة رابعة البصرية كانت ذات مرة على سفينة في نهر دجلة وتعرضت السفينة في وسط النهر لعاصفة شديدة فقلق الركاب وارتفع الصراخ والعويل لكن شخصاً ما ظل نائماً في السفينة. حينما رأت السيدة رابعة البصرية هذا الشخص تعجبت كثيراً من طمأنينته وقالت: الساعة الآن هي ساعة الدعاء والتضرع إلى الله فلماذا أنت نائم هكذا كأن الأمر لا يعنيك. رد عليها هذا الشخص: لو كانت إرادة الله في غرق السفينة فلا مجال لي أن أفكر ضد إرادته تعالى. حينما أصرت السيدة رابعة أن يدعو لكشف هذه الغمة فرفع هذا الرجل رداءه عاليا ووجهه ناحية الطوفان فبمجرد ما رفع الرجل رداءه هدأت الرياح العاتية. اكتشفت السيدة رابعة البصرية أن هذا الرجل بكل تأكيد عبد مقرب إلى الله، وعند السؤال قال لها هذا الرجل أنها ليست كرامة خارقة وإنك أيضاً تستطيعين فعلها بشرط واحد فقط هو أن تترك نفسك لمرضاة الله فلقد حصلت على هذه الدرجة بهذه الطريقة «**تركنا ما نريد لما يريد فيترك ما يريد لما نريد**».

أيها الأعزاء مقام الرضا الثنائي هذا لا يأتي إلّا بعد تحمل مشاق كبيرة. إن بايزيد البسطامي يقول أنه تحمل في هذا الطريق مصائب شتى استمرت لمدة ثلاثين عاماً ثم أعطاه الله سبحانه وتعالى هذا المقام الذي يستطيع من خلاله أن يرى الكون كله بين أصابعه. فمن أقواله المأثورة: في محبة معرفة الله توجد لذة تفوق نعمة الجنة. وكون الإنسان أن يصبح فانياً في الله يجعله خالداً مخلداً. في مجلس اليوم يجب عليكم أن تدركوا جيداً أمراً أخيراً أن عملية الاتصال بالله والاقتراب منه هي في الواقع معراج السالك والمريد. وقبل ذلك لا بد للمريد أن يمر بثلاثة درجات: المرحلة الأولى أو الدرجة الأولى مرحلة تجليات الأثر كما حدث لنبي

الله موسى (عليه السلام) الذي رأى النار وسمع نداء الله، والدرجة الثانية هي تجليات عملية وهي المرحلة التي يجد السالك في كل عمل حكمة الله متجلية وواضحة والمرحلة الثالة هي مرحلة تجلي الصفات. وفي هذه المرحلة يتجلي الله في السمع والبصر والفؤاد، والمرحلة الرابعة والأخيرة هي التي تسمى في مصطلح التصوف تجلي الذات. وهي في الواقع مرحلة الفناء في الحق حينما ينسى السالك نفسه ويفقدها وبسبب عدم وجوده تنطلق على لسانه هذه الكلمات: «**أنا الحق، يا سبحاني، ما أعظم شأني**» وكذلك «**ما في جبتي إلّا الله**». هذه هي المرحلة التي يطغى فيها لون النور الحقيقي على النور العادي. ويتحول العبد إلى لون الخالق «**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**».

وصل المجلس لنهايته وبدأ الناس في الخروج واستلقى البعض هناك على الفرش لإراحة ظهورهم، وأنا أيضاً أسندت ظهري على الحائط. جاء هاشم مع أصدقائه وجلسوا قريباً مني والبروجيكتور كان مفتوحاً وعلى الشاشة كان يظهر عكس طريق النور وكان واضحاً للعميان. سألت هاشم: ما رأيك؟ وكم من المسافة قد قطعنا على هذا الطريق؟ بل قل لي أين تجد نفسك في سفر السلوك هذا؟ بدأ يقول: حالي مثل أناس كثر لم يخرجوا بعد للسفر. أعتزم السفر لكن لا أجد في داخلي الهمة الكافية للخروج.

وما السبب في الآخر؟ تدخل صديق آخر جالس على مقربة مني.

إن السبب هو أن قلوبنا مليئة بالنجاسات المادية واليقين الناقص، وهجوم الشبهات علينا مستمر ولهذا تتشتت أفكارنا في بداية مرحلة التوجه والتركيز. إن المرحلة الأولى هي أن نتخلص من كل شيء غير الله، وحينئذ سيكون هناك مكان لحب الله لأن الضدين لا يجتمعان.

لكن ألا يبدو لك أننا لو نجحنا في هذا العمل فإن جميع الحجب

ترفع بيننا وبين الله فيتولد فينا نوع من القدرة الإلهية مثل أولياء الله الكبار هؤلاء الذين يتصرفون ويغيرون القضاء والقدر، وفي النهاية سيأتي حتماً وقت من الأوقات نصل نحن فيه أيضاً إلى هذا المقام.

قال: كل هذا يعتمد على قدرتك التي تملكها وهي كم من التجليات الإلهية التي تستطيع أن تستشعرها وكم من النور الشديد الذي تستطيع أن تتحمله. انظر خرج كثير من الناس إلى هذا الطريق لكن الدرجة التي نالها عويس قرني والمنح التي أعطيت للغوث الأعظم والمشايخ النقشبندية، لم يصل إلى هذه المكانة إلّا قليل من الناس.

إن طريق السلوك هذا طريق صعب جداً، ففي هذا الطريق أخطار على النفس كما أن هناك من ينسى الهدف المنشود بعد نيل نذر يسير من الكرامات. علينا أن نكون على حذر من هذا. نبهني الأخ هاشم إلى هذه النقطة الهامة.

الجلسة التالية كانت بعد الظهر فظللت أفكر أن هذا الإنسان كم هو مخلوق ساذج على أمل الحصول على الألوهية فهو يخلق بنفسة الآلهة الصغار ويسميهم بالشيخ والغوث ثم للفت انتباههم إليه ينفق كل ما يملك بل حياته كلها. هذا الإنسان مع كل هذه التصرفات لا ينال الألوهية بالطبع لكن في مقابل حب وطمع أن يقول: «**أنا الحق**» تذهب عزة النفس وتخرج جنازة كرامة الإنسان.

٢٢

البشارة

إن الجلسة الأخيرة كانت معدة ومرتبة بعنوان البشارة. كنت أرى أن المريدين والسالكين الذين اشتركوا في جلسات الأسبوع بالكامل وتحملوا صعوبات المجاهدة والمراقبة فلربما عدد منهم يُمنح شهادات القبول والرضا عن طريق المكاشفة ويتم إخبارهم أن سفرهم الروحاني هذا قد حاز على النجاح وعلى هذا سيبشرون ببشارات تحدث لهم في المستقبل لكن لم يحدث شيء من هذا. وعرفنا عبر خطبة شيخ الطريقة أن هذا العنوان تم انتخابه لغرض خاص وهو التأكيد على السالكين المخلصين المطهرين أن الطلب لو ثبت صدقه ففي كل مرحلة سينالون إعانة ومدد من أولياء الله الكبار.

أعزائي، إن الإمام البخاري نقل حديثاً قدسياً عن أبي هريرة (رضي الله عنه) وهذا هو الحديث الذي يتم تداوله في مجالس السلوك بكثرة. إن الله سبحانه وتعالى يقول لأعداء أوليائه محذراً: إن عبدي يتقرب إليّ بالصلوات المكتوبة والنوافل أيضاً حتى أصبح سمعه الذي يسمع به وعينه التي يبصر بها ويده التي يبطش بها ورجله التي يسير بها ومن طلب مني شيئاً لأعطينه وإن استعاذ بي من شيء لأعيذنه. إن الإمام فخر الدين الرازي الذي يحتل مكانة كبيرة بين المفسرين كتب في تفسيره الكبير ما

يلي: عندما أصبحت عين الولي فإن عين الله تريني القريب والبعيد وعندما أصبحت يد الولي فإن يد الله تجعلني قادراً على التصرف في القريب والبعيد ولهذا يقال: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**». فهذا أيضاً بسبب أن المؤمن لا يرى بعينيه بل يرى بعين الله وهذه هي الدرجة التي تخص الأولياء الكاملين. بكل تأكيد كنتم قد سمعتم عن الحادثة المشهورة التي وقعت لسيدنا عمر (رضي الله عنه) عندما توقف فجأة عن الاستمرار في إلقاء الخطبة وهو على المنبر ونادى بأعلى صوته: «**يا سارية الجبل يا سارية الجبل**». وصل هذا النداء إلى سمع سيدنا سارية وهو على بعد ألف وخمسمائة كيلومتر من سيدنا عمر (رضي الله عنه) وانتبه على الفور أن أعداءه يخططون لشن الهجوم عليه من ناحية الجبل فتوجب عليه الانتباه إلى هذا الأمر. أصبح هذا ممكناً لأن الخليفة سيدنا عمر (رضي الله عنه) كان يرى بنور الله. والحق أن من يحصل على نور الله فيصبح البعد الزماني والمكاني عنده بلا معنى. إن سيدنا عمر (رضي الله عنه) كان من الكاملين وبذلك أصبحت يده يد الله، وعلى هذا حينما جف نهر النيل فكتب الخليفة سيدنا عمر (رضي الله عنه) ورقة باسم نهر النيل وكان مكتوباً عليها «**يا نيل عليك أن تجري بأمر الله**» والدنيا تعرف تماماً كيف جرى النيل فيما بعد.

أيها الأصدقاء الأعزاء من نال هذا المقام الذي هو في الأصل مقام الكاملين الصديقين فليعلم أنه قد حصل على مفاتيح الأرض والسماوات. إن المجدد للألف الثاني حرر في رسالة مرقمة بـ(٢١٧) في السجل الأول من الجزء الثالث بكل وضوح **أن القدر ينقسم إلى قسمين وهما قدر مبرم وقدر غير مبرم**. المبرم هو الذي لا يمكن تأجيله لكن انظر إلى المتصوفين الكاملين إذ قال الغوث الأعظم: إن الله فوضني لتغيير القدر المبرم وبناء على هذا أنقذ زفة عرس كانت قد غرقت في نهر من الأنهار بعد مرور اثنتي عشرة سنة، وبهذا أيضاً كان يحيي الموتى. إن الله سبحانه وتعالى قد منح

أولياءه قوة التصرف ولهذا عندما نستعين بهم في الساعات الصعبة فأهل الظاهر يحسبون أننا نشرك بالله. فلعلهم عرفوا الآن أننا نطلب من أولياء الله لأننا ندرك أنهم مظاهر قدرة الله ولطفه وعلى هذا نطلب المدد في الواقع من الله سبحانه وتعالى.

إن الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي كتب في تفسير «**إياك نعبد وإياك نستعين**» أن طلب المدد والاستعانة بمخلوق الله مع عدم معرفة الإنسان أنه من مظهر من مظاهرمدد الله فهذا حرام ولكن لو كان متوجهاً إلى الله ويطلب الاستعانة من المخلوق عارفاً أنه ما هو إلّا مظهر من مظاهر عون الله ويطلب من المخلوق في الظاهر فقط ففي هذه الحالة القلب متعلق بالله وهذا مباح في الشرع.

وعبد الخالق المحدث الدهلوي نقل في كتابه المسمى بأشعة اللمعات قول الإمام الغزالي ما نصه: إن الشيخ الذي يُطلب منه المدد في حياته يطلب منه العون أيضاً حال وفاته. يقول الغزالي: إنني رأيت بنفسي معروف الكرخي الحنفي وعبد القادر الجيلاني يتصرفان في قبريهما كما كانا يتصرفان حال حياتهما.

أعزائي، إن مرحلة مشاهدة الحق مرحلة صعبة جداً. لكن لا يصح أن تصرفوا الأنظارعن هذا الأمر وهو أن باب الاستعانة بأولياء الله وبصفة خاصة حصول الفيض باستمرار من مشايخ نقشبند مفتوح على مصراعيه ما دمتم في رحلتكم للتصوف والسلوك. حيثما تكونوا تشرفوا بنيل المدد من شيوخكم وأيضاً من كبار الشيوخ وصولاً إلى رسول الله (ﷺ) وهذا بفضل واسطتهم.

إن السيد المجدد للألف الثاني يقول: الولي الكامل يستطيع أن يتواجد في آن واحد في أماكن مختلفة وذلك لأن لطائفه تستطيع أن تتمثل في أجسام وأشكال مختلفة.

إن الناس كانوا يقولون في شأن المجدد للألف الثاني أنه شوهد في أيام الحج وهو يؤدي مناسك الحج وكان يقول شخص آخر عنه أنه وُجد في بغداد وشخص ثالث يدعي أنه شوهد في الروم، والشيخ المجدد نفسه كان يقول: إنني لم أخرج من البيت ولم أذهب إلى الروم ولا بغداد. في الواقع إنه مثال يظهر مقدرة الشيخ في التمثل في أماكن عدة لحل مشاكل المريدين. وفي رسالة مرقمة بـ(٢٨٢)، السجل الأول من الجزء الخامس، ذكر السيد المجدد في مجلس من مجالسه بشأن الذكر: ذات يوم حضر في مجلسه سيدنا إلياس وسيدنا خضر وقالا: نحن من عالم الأرواح وإن الله منحنا القدرة لنتمثل في شكل الأجسام. فهذا هو الحال لأولياء الله أيضاً، تتمثل أرواحهم في أجسام وتصل لإمداد العباد في الأوقات الحرجة.

وفي تذكرة المشايخ النقشبندية كتب نور بخش التوكلي ما نصه: إن خرقة عويس القرني كانت قد وصلت إلى سيكندر كيتهلي عن طريق الشيخ عبد القادر الجيلاني وحسب توصية الشيخ وصلت هذه الخرقة إلى المجدد للألف الثاني. فحينما ارتدى الشيخ المجدد هذه الخرقة وذهب إلى حرم الروضة فرأى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني وصل هناك ومعه جميع خلفائه وبعد قليل وصل مشايخ النقشبندية وكبرويه وجشتية أيضاً. الكل كان يدعي أن لطريقته حق على السيد المجدد وفي النهاية تم الصلح بين المشايخ والكل تشرف بالانتساب إليه.

يقال أن الولي أحيانا لا يستطيع تقدير أمر الأشكال التمثيلية إذ كيف تظهر أشكاله المختلفة في أماكن عديدة وتحل مشاكل مريديه. لقد كتب صاحب تربية العشاق عن علي حمداني الكشميري أنه تناول الطعام في وقت واحد في أربعين بيت وفي كل بيت قرض الغزليات المختلفة. فهذه الوقائع تدل على أن الله قد منح أرواح الصديقين والكاملين قوة غير عادية. والشيخ المجدد للألف الثاني كتب في رسالة من رسائله والتي تحمل رقم

(٢٨) من السجل الثاني الجزء الأول عن بابا آبريز يقول: حينما كان طين آدم (عليه السلام) يتشكل عند الله فإنني كنت أصب عليه الماء. يقول المجدد تعليقاً على هذه الرواية: من المحتمل أن تكون هذه الدعوى صحيحة لأنه ما دام الملائكة قد سمح لهم بالاشتراك في هذا العمل فاشتراك روح شيخ من الشيوخ أولى منهم.

أيها الأعزاء، للوصول إلى الحق طريقان لا ثالث لهما. الأول طريق الولاية، وقد وضح الشيخ المجدد هذا الأمر في رسالته المرقمة بـ(١٢٣) من السجل الثالث من الجزء الثاني: أن سيدنا علي (رضي الله عنه) إمام الولاية والسيدة فاطمة (رضي الله عنها) والحسن والحسين (رضي الله عنهما) شركاء في هذا المنصب. وعلم هذا الطريق للولاية وصل إلينا عن المشايخ النقشبندية من صدر إلى صدر. وعلى السالك أن يحافظ على هذه الثروة وإن شاء الله ستجدون في هذا الطريق الأرواح المباركة لمشايخ النقشبندية وهي على أتم الاستعداد لإمدادكم على الدوام.

وقبل أن أختم كلامي هذا عليكم أن تعرفوا جيداً أن طريق الحصول على الولاية هذا يحتاج إلى مجاهدة كبيرة. إن أمثال الشيوخ علي هجويري وبايزيد البسطامي والشيخ أبو سعيد ومعين الدين الجشتي أقاموا على قبور المشايخ أربعين يوما وحصلوا على فيوضهم وبركاتهم. وعلى هذا فهم إلى الآن مرجع الخلائق. وتعالوا في النهاية نقدم هدية الدعاء لأرواح النقشبندية. مع انتهاء الخطبة بدأت تلاوة الصلاة والسلام على رسول الله وأوراد الشيوخ وعند قراءة الفاتحة وصلت الجلسة إلى نهايتها.



٢٣

القبة الخضراء والطيور الخضراء وأشبال المدينة المنورة

أديت صلاة العصر في مسجد إسماعيل آغا وحينما فرغت من الصلاة إذ رأيت الأخ هاشم قادماً إلى بصحبة درويشين نقشبنديين. هذان الشخصان كانا يرتديان الجلباب الأبيض وكل منهما كان قد لف العمامة الخضراء حول القلنسوة النقشبندية بحيث يظهر جزء منها في وسط العمامة، وعندما رأيتهما عن قرب فعرفت أن واحداً منهما هو الله يار، صاحب كاكا آدم خيل الذي كنت أقابله بين الحين والآخر خلال الجلسات التي استمرت أسبوعاً والذي كان يجلس معنا حينما كان يدور الحوار بيني وبين هاشم لكنه وقتئذ كان يبدو سالكاً عادياً في الجبة والطاقية ولكنه اليوم ارتدى زياً رسمياً للمتصوفين النقشبنديين كما ارتدى عمامة على طراز أهل السنة بباكستان ولهذا لم يكن التعرف عليه سهلاً ثم قال لي: **هناك برنامج لتناول الشاي في حجرة الشيخ حمود.**

إن الشيخ حمود لم يكن موجوداً في الحجرة ولكن حفلة الشاي كانت مستمرة. جلسنا نحن في زاوية من الحجرة وبدأنا نتحدث عن الشاي والخبز الذي يشبه الدونتس. إن السيد الله يار خان كنت أتعامل معه قبل ذلك كطالب ومريد، لكن عندما رأيته اليوم في الزي النقشبندي أضفى عليه جلال وجمال التصوف الكامل ثم بدأ يجول في ذهني السؤال

الذي سأله مرّة الأخ ساجد وهو كيف يصبح الشخص سلطان الأولياء عاشقاً للإله وزبة السالكين؟ خطر ببالي هذا عندما شاهدت ما حدث اليوم لـ الله يار خان الذي جعل نفسه في ملابس أهل الصفاء التقليدية وقام بالتجلي بكل فخامة وعظمة.

قبل ربع قرن من الزمان كنت في سفر لمدينة كراتشي الباكستانية إذ سمعت هناك عن طائفة دينية تقوم بإحياء السنة عن طريق العمامة الخضراء والسيد الله يار خان واحد من الشباب الذين تربوا تحت لواء هذه الحركة. وكان يقول: لمواجهة علماء ديوبند قام أكابرنا بإحياء العمامات الخضراء. إن أهل السنة والجماعة كانوا تحت حصار وسيطرة الديوبنديين. والآن بحمد الله سبحانه وتعالى لنا هويتنا المنفصلة. فأهل العمائم الخضراء يُعرفون في باكستان من بعيد ولنا قناة تليفزيونية تقوم بنشر الدعوة والإرشاد وتبث أيضاً برامج للأشبال المدنيين (نسبة إلى المدينة المنورة) بانتظام.

الأشبال المدنيون؟ ماذا قلت؟ عندما بدت عليّ علامات الحيرة قال: في الواقع هذا مصطلح خاص وصفة القناعة المدنية لأطفال أهل السنة. قالها لمزيد من التوضيح.

لكن الديوبنديون يقولون أيضاً عن أنفسهم أنهم أهل السنة. حاولت إثارته فاشمئز من هذا الكلام. قال: ديوبنديون؟ كيف يمكن أن يكونوا من أهل السنة؟ هم جميعاً منافقون، فهؤلاء يتحولون مع السلفيين (أهل الحديث) إلى سلفيين وبين عامة المسلمين يصبحون من أهل السنة. ماذا أقول لك فإن هؤلاء الديوبنديين ذوي وجهين، أحدهما لعامة الناس والثاني للخواص. أمام عامة الناس يعارضون إقامة حفل المولد (العرس)، وكذلك يستحون من وضع الأردية على القبور ويستحون كذلك من أن يقولوا «**يا رسول الله**» لكن في مجالسهم الخاصة يعترفون

بكرامات الشيوخ والإستعانة بأرواحهم. هم أيضاً نقشبنديون وقادريون مثلنا لكنهم يخفون هذه الصلة تحت غطاء القاسمية. والآن أقام هؤلاء واجهة جديدة باسم جماعة التبليغ والدعوة وحذفوا منها شرط المبايعة. ومن أين لعامة الناس أن يعرفوا أن المتصوفين النقشبنديين وراء هذه الحركة وقد دخل ملايين من الناس في هذه الحركة.

فهل في نظرك أن جماعة التبليغ وجه آخر للسلسلة النقشبندية؟ أردت منه الإيضاح.

نعم، بكل صراحة ووضوح.

فإن كانت أعمال السلسلة النقشبندية تزدهر وترتقي فليس من حقكم يا أهل السلسلة القادرية أن تعترضوا عليها؟

لم يحدث اعتراض مطلقاً؛ لأننا منتسبون إلى الطريقتين النقشبندية والقادرية. وهذا ما نقوله، فنحن جميعاً وحدة واحدة سلسلتنا واحدة وفقهنا واحد لكن النزاع بسبب منافقتهم. عندما يسيئون هؤلاء إلى حضرتنا الأعلي (يقصد أحمد رضا خان) ويتهموننا أننا أصحاب القبور. غير أنه بين عقيدتنا وعقيدتهم لا يوجد حتى هذا القدر من الخلاف. وأشار إلى إصبعيه لإظهار قلة الفرق بينهما.

فكيف تواجهون الخطر الديوبندي؟ سألته.

إننا مستمرون في المواجهة يا أخي وقمنا برد قوي جداً. فقد أنشأنا مؤخراً جماعة الدعوة الإسلامية وقمنا بترويج ونشر العمامة الخضراء. والآن نحن الممثلون الحقيقيون لأهل السنة في نظر عامة الناس. أما الديوبنديون فيعدون من المتملقين لأهل الحديث، والناس عندما يرون عمائمنا الخضراء من بعيد يدركون أن خادماً من خدام محمد (ﷺ) أو عاشقاً من عشاقه (ﷺ) قادم إليهم.

فهل اختيار اللون الأخضر بالذات للعمامة، له سبب خاص؟ حاولت المعرفة.

قال: نعم يا سيدي، مثلما تكون علاقة النور بالنور وارتباط مجموعة معينة من الناس ببعضهم في أمور الحياة كذلك اللون الأخضرنميز به أهل الإسلام.

لكنكم تقولون عن صاحب القبة الخضراء على صاحبها الصلاة أنه كان صاحب الجبة السوداء أليس كذلك؟ على اعتراضي هذا انزعج قليلاً ثم بدأ يقول: إن أهل الإيمان لهم علاقة خاصة باللون الأخضر. لعلك لا تعلم أن أرواح المؤمنين الصالحين بعد الموت تتحول إلى طيور خضراء وأن الأنبياء، والأولياء يعيشون في قبورهم أحياء ولكن أرواح الصالحين بعد الموت تتحول إلى طيور خضراء ولإعانة المؤمنين تتجول في أنحاء العالم.

بعدما سمعت كلام يارخان هذا بدا لي كأن الحلقات بدأت تتصل ببعضها. سألته: إن السادة السالكين حينما يذهبون إلى شاطئ البحر قبل طلوع الفجر باحثين عن الطيور الخضراء فهل هي أرواح الصالحين؟

قال: ليس لدي علم عن هذا لكن من المحتمل أن يكون تقديرك هذا صحيحاً لأن اللون يرتبط باللون وبكل تأكيد أن أرواح الصالحين ترتبط بأصحاب العمائم الخضراء ارتباطاً خاصاً وقس على هذا ساكن القبة الخضراء عليه أفضل الصلاة والسلام ثم إن اللون الأخضر هو لون إسلامي أيضاً. دلل السيد الله يارخان لدعم موقفه.

لكن هل تعلم أن لون قبة الرسول (ﷺ) في يوم من الأيام كانت باللون الأبيض وقبل ذلك كانت القبة الخشبية لا لون لها.

حسناً، فمعنى هذا أنها ليست من الأول كما هي الآن. حاول السيد

يارخان أن يتماسك قليلاً. لا يا سيدي! لمدة سبعة قرون تقريباً ظلت روضة الرسول (ﷺ) خالية من أي قبة. وفي القرن السابع الهجري بنيت عليها قبة خشبية ثم أقيمت بشكل منظم قبة بيضاء أما القبة الخضراء فهي من ذكريات الخلافة التركية. بقي الأمر عن أن اللون الأخضر لون إسلامي فلا سند له أبداً. في بادئ الأمر كان عَلم اللون الإسلامي أبيضا واختار العباسيون العلم الأسود وبالمقابل اختار الفاطميون العلم الأخضر وفي العهد الفاطمي حينما كانت الولاية الفاطمية في مدينة الملتان (الآن هي مدينة باكستانية) ورد في المصادر التاريخية أن أعلاما خضراء أرسلت إليها من القاهرة ومن الصدف العجيبة أن الدولة التي ظهرت إلى حيز الوجود في شبه القارة بعد قرون من الزمان باسم دولة باكستان الإسلامية تم اختيار علم أخضر لها. بعد سماع كلامي هذا بدا لي أن السيد الله يارخان بُهت وبدأ يقول: معذرة، لم يكن لدي علم بكل هذا التاريخ عن اللون الأخضر. عمامتي الخضراء هذه فقط لنيل الفيض والبركة من القبة الخضراء ولو سُمح لي بالحضور إلى ديوان سيدي (ﷺ) فيكفيني هذا فخراً وهذا هو حلم حياتي. لكن الحضور يتحقق عندما يكون هناك ديوان حقيقي.

فهل هناك شبهة في هذه القضية أيضاً، والذي جاء في مشاهدات الشيوخ وجرى على ألسنة عدد من الأولياء وما وصلنا من تفاصيل عن ديوان سيدنا محمد (ﷺ). فكل يوم جمعة بعد الصلاة يتجمع الأولياء عند النبي (ﷺ) ويذكرون أحوال الأمة. ألا يوجد لديك علم بهذا؟

سأعلم هذا عندما أحضر أنا أيضاً في هذا الديوان النبوي. وأنت تعلم جيداً أنني سمعت في صحبة أهل الصفاء: **نؤمن بالرؤية والمشاهدة ولا نؤمن بالسمع والكلام.**

لكن الأمة كلها متفقة على أن رسول الله (ﷺ) حي في قبره مع وجوده الجسدي ويقابل باستمرار أولياء الله الكبار والمشايخ. وبعض

الناس سمعوا منه (ﷺ) الأحاديث وجهاً لوجه. وبعض أهل القلوب يزورونه (ﷺ) كلما أرادوا بل أن الرسول نفسه يتشرف بالحضور في المجالس بشحمه ولحمه مثلنا تماماً كما تتحدث حضرتك الآن. اترك هذا، إنها خزعبلات الصوفية ودعاوى أهل القلوب الجوفاء لكن لو كان لديك دليل قوي في ضوء العقل والوحي أن الرسول (ﷺ) حي بعد الوفاة فعليك أن تخرجه وتوضحه.

بعدما سمع الصديق النقشبندي ليارخان كلامي هذا وكان يتحمله بصبر وأناة لم يستطع السيطرة على عصبيته وقال: يا سيدي ما ضرورة العقل هنا؟ إن كل هذا يتصف به أهل العشق أما أهل العقل فلا نصيب لهم من هذه الثروة. ومع هذا ستجد دلائل وشواهد في القرآن والحديث على أن رسول الله (ﷺ) حي في قبره. إن هديتنا من الصلاة والسلام عليه تعرض عليه كل يوم خميس. نعم، وفي القرآن أيضاً هناك آيات في هذا الشأن. سألت صديقه النقشبندي هل هذا صحيح؟ قال نعم الآية موجودة. ألم يأت في القرآن ألا تقولوا عن الشهداء أنهم أموات؟

لكن هذا بشأن الشهداء ظل اعتراضى كما هو.

قال: ما دام هذا مقام الشهداء أنهم يقتلون ويرزقون من عند الله فمعنى ذلك أن درجة الأنبياء أرفع وأعلى من هذا. فقد جاء في البخاري: أن الرسول (ﷺ) حينما كان في رحلة المعراج فمر بقبر سيدنا موسى (عليه السلام) فرآه يصلي في قبره. إن هذا الحديث معروف ومشهور. معنى ذلك أن الأنبياء أحياء في قبورهم ويصلون بل هناك حديث آخر جاء فيه: أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. وهناك تخصيص في رواية أبي الدرداء أن الرسول (ﷺ) حي يرزق وفي رواية أخرى للبيهقي عن ابن عمر (رضي الله عنه) يقول الرسول (ﷺ) فيها: من زار قبري بعد موتي كمن زارني في حياتي. وعن سعيد بن المسيب هناك رواية في سنن الضارمي: أنه في

الأيام «**الحر الشديد**» عندما كان المسجد النبوي مغلقاً ولم يرفع الآذان فيه لمدة ثلاثة أيام فسعيد بن المسيب الذي كان محبوساً داخل المسجد كان يتعرف على مواعيد الصلوات من الهمهمة التي كانت تأتي من قبر الرسول (ﷺ) وقت كل صلاة. وبناء على هذا الحديث آمن مثل ابن تيمية الوهابي أن الرسول (ﷺ) حي وابن حجر العسقلاني أبدى إيمانه واعترافه بهذه العقيدة وقال أن حياة الرسول (ﷺ) لم تنته بموته بل حياته مستمرة والأنبياء أحياء في قبورهم. وابن القيم وابن الجوزي وجلال الدين السيوطي والإمام السبكي والإمام الشوكاني كل هؤلاء يؤمنون بأن النبي (ﷺ) حي في قبره. والآن بعد كل هذا التوثيق لا مجال للرفض والاستنكار يا سيدي. بهذا الكلام التفت إليّ مبتسماً.

سألته: فإني لك أن تتفق وتؤمن بهذه العقيدة السائدة بعد إلقاء النظر على الآيات التالية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ والآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ والآية الثالثة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ ثم هناك أمر آخر لا بد من التوقف عليه وهو أن العديد من السابقين أدعوا أنهم قابلوا الرسول (ﷺ) مشافهة في عالم الشهود بل هناك من وصلت درجة مشيخته إلى أنه يذهب إلى مجلس الرسول (ﷺ) كلما أراد غير أننا لا نجد أي مثال لهذا في عهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولا نجد أي مثال أن كبار الصحابة حضروا في أي وقت من الأوقات إلى ديوانه للاستشارة والبعض الآخر جعلوا أنفسهم أوصياء وموظفين لهذا الديوان. غير أنه وقت وفاة النبي نفسه حدث نزاع كبير في مسألة الخلافة ثم فيما بعد حدثت موقعة الصفين وموقعة الجمل وأستل المسلمون سيوفهم لكن حتى في مثل هذه الأوقات الصعبة الدقيقة لم يطرأ على ذهن أحد أن يتوجه إلى قبر النبي (ﷺ) في مثل هذه المحن ويطلب منه التدخل. لو كان الرسول (ﷺ) حياً في قبره في الواقع

وتعقد عنده جلسات عن أمور الدنيا ويمد الرسول (ﷺ) يده من قبره لمصافحة الرفاعي بعد قرون من وفاته فكيف لم يذهب أصحابه الكبار وامتنعوا عن الحضور إلى ديوانه لحل نزاعاتهم الكبيرة.

على اعتراضي هذا أصيب الله يارخان وصديقه النقشبندي بشيء من اليأس ثم قال: لكن انظر إلى الذين قابلوا الرسول (ﷺ) في عالم اليقظة والشهود وهم كانوا من الكبار ولا يمكن تكذيبهم.

إن الأخ هاشم الذي كان يسمع كلامي بصمت كامل قال: هذا الأمر قابل للتفكير. لم يطرأ على ذهني هذا الأمر بالمرة أن الرسول (ﷺ) الذي يأتي في مجالس الأولياء السابقين في عالم اليقظة (الشهود) وبهذه الكثرة فلم لم يحدث هذا في عهد الصحابة (رضي الله عنهم) أجمعين.

عن قضية حياة الرسول (ﷺ) بعد وفاته التي أقيمت عليها الدلائل والبراهين فهي في الواقع من صنع المتأخرين وجميع الروايات وضعت فيما بعد لأن مسلمي العهد الأول كانوا أولى أن يأتي الرسول (ﷺ) بجسده إلى مجلس الصحابة ويحل مشكلة الخلافة أو على الأقل أن يطلبهم إلى ديوانه الأسبوعي. والحق هو أنه لو لم يتم افتراء عقيدة حياة النبي بعد وفاته لفقدت أحاديث حياة الروحانيين في قبورهم ونيل الفيوض والبركات والنفحات جوازها. على كلامي هذا آثر الله يار خان الصمت. أما صديقه فقد وقف بقلب مكسور ويائس وقال: الأمر كله يتوقف على اليقين والاعتقاد ولا شيء غير الإيمان والاعتقاد. لا يكفي الإدراك لهذه الأمور عن طريق الدلائل والتحقيق والبحث.

إن الأخ هاشم كان صامتاً. وكان لون وجهه يتغير بين الحين والآخر. وعلى الرغم من ذلك كان مصراً أن يستمر هذا الحديث لمزيد من الوقت لكنني استأذنت إلى لقاء آخر.

٢٤

شب جاي كه من بودم

على الرغم من توسع السلسلة النقشبندية وأعدادها الكبيرة وزيادة أنشطتها الروحية الخفية، فإن اللون الروحاني الحقيقي لمدينة إسطنبول مولوي وليس نقشبنديا. وبالنسبة للسياحة فإن هذه المدينة مدينة السماع والإنشاد ويأتي من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الناس بأعداد كبيرة إلى مدينة إسطنبول. أولاً يأتون هؤلاء إلى خانقاه المولوي ومن ثم يسافرون في شكل مجموعات إلى مدينة قونية.

اليوم هو الثاني عشر من سبتمبر وتنظيم مؤتمر الروحانيين بأولوداغ ما زال مستمراً. فكرت لم لا أستمتع اليوم بزيارة خانقاه مولانا الروم وأذهب إلى محفل السماع لأن محافل السماع التي تعقد في الحدائق والأماكن الثقافية وقت حلول المساء من جانب وزارة السياحة لترفيه الناس محافل ممتعة جداً. بناء على هذه التفكير وضعت لنفسي برنامجاً للذهاب إلى زاوية رومي الكائنة بالقرب من برج جلاطا.

كان هناك ازدحام شديد للسائحين وبصفة خاصة كان الزحام أكثر في محلات الأطعمة من السائحين الذواقين للأطعمة الشرقية. من مكان ما كانت تأتي رائحة القهوة التركية ومن مكان آخر كانت تأتي الرائحة الذكية لأكلة (**بالك اكمك**) وكانت تزيد بالشعور بالجوع ففكرت لا أدري متي

سنحصل على العشاء لأنني لا أعلم متى ينتهي محفل السماع. بناء على هذا استمتعت بتذوق (**بالك اكمك**) وأطفأت عطشي بعصير البرتقال ثم انطلقت نحو الخانقاه مع هيام الدروشة.

زوار بلاد الغرب كانوا أكثر بكثير في خانقاه رومي مقارنة بخانقاه إسماعيل آغا أو خانقاه الجراحي. ربما كان انطباعي هذا بسبب وصول اثنين من الأوتوبيسات للسائحين من المطار مباشرة حينما وصلت هناك. هؤلاء السائحون كانوا قد جاءوا لقضاء تسعة أيام في تركيا وكانت وكالات السفريات قد وضعت لهم تفاصيل هذا البرنامج من إسطنبول إلى قونية. اشتراكهم في محفل السماع كان جديراً بالمشاهدة فقد كانوا تائهين في عالم الحيرة والدهشة. وفي الضوء الخافت للشمع حينما بدأ المنشدون تقديم المدائح النبوية كان هؤلاء السياح في حالة الهيام وفي الختام جاءت الألحان الجميلة للمزامير التي جعلت السياح الغربيين مبهوتين. وعندما قام المنشدون بانحناء أعناقهم وقدموا السلامات الأربعة بدأ الرقص الأساسي فالبعض منهم لم يستطع أن يمسك نفسه فبدأ بالرقص مثلهم لكن بعد قليل أحسوا بقلة تجربتهم في هذا المجال ثم لزموا أماكنهم. واستمر هذا البرنامج لمدة ساعتين تقريباً بكل فقاراته وإبهاره الفنى وأجواءه المؤثرة. بعد ذلك ارتفع صوت الصلاة والسلام من الخلف والذي كان في الغالب إشارة إلى أن المجلس وصل لنهايته. والمنشدون والمغنون قاموا بتحريك رؤوسهم بطريقة مميزة جداً ودوى التصفيق كأنه قد أعلن الختام الرسمي للحفل.

الحضور بهذه الكثافة وبهذا الشغف في محفل السماع من جانب الغرب جعلني في حيرة شديدة وبدأت أسأل نفسي أي شيء يجذبهم ويأتي بهم إلى هذه الأماكن فهؤلاء لا يفهمون كلمات المدائح والأناشيد ولا يعي واحد منهم معاني الصلاة والسلام من الناحية الدينية فهل الرقص المولوي وكذلك التأثير البيئي يكفي لطمأنينتهم وسكينتهم.

لحل هذه المعضلة سألت السيد واتسون الجالس إلى جانبي: ما انطباعاتك عن هذا المجلس؟

قال: رائع، ولكن مقارنة بالقونية أشعر أنه أقل منه فهناك في مدينة قونية يكون محفل السماع أكثر قوة وكأن روحك تكاد تخرج من جسدك.

معنى ذلك أنك قادم من قونية؟

قال لي: نعم، أنا وزوجتي نانسي - والتي كانت جالسة إلى جانبه - كنا في الأسبوع الماضي في مدينة قونية. ثم أردف قائلاً: ربما يرجع هذا التأثير إلى وجود روح مولانا الرومي نفسها هناك لأن رئيس المتصوفين موجود هناك بذاته ولعل هذا هو السبب إذ تبدو مجالس السماع كأن روح مولانا تظللها.

فهل كانت هذه أول تجربة لك لزيارة مولانا الرومي؟

أجاب قائلاً: نعم، كانت هذه الأولى لكنها لن تكون الأخيرة. أنا مندهش جداً بعد قدومي هنا. ظهرت لي دنيا جديدة، دنيا الحب والأخوة. إنني عرفت لأول مرة هنا أن الحياة ليست إلّا للاستمتاع وهي ليست للأحزان وجمع المال. هنا توجد سكينة لا توصف في محافل السماع. ماذا أقول لك أكثرمن هذا؟

السيد واتسون كان يريد أن يذكر المزيد عن نفحات وبركات شيخه مثل أي مريد جديد لكنني قطعت كلامه بسؤالي هذا: كيف كانت الرحلة ومتى العودة؟

قال: ماذا أقول عن الرحلة! إنها ليست رحلة عادية بل هي تجربة روحية مثيرة. عندما توجهنا من محطة حيدر باشا إلى مدينة قونية فهذه الرحلة استغرقت زهاء ثلاث عشرة ساعة استشعرنا خلالها بألفة عجيبة وأنس كبير. بدا لنا كأن مولانا رومي نفسه قد أخذنا في حماه وكنفه.

ماذا أقول لك أكثر من أنها كانت رحلة روحية ذاتية ولا أستطيع أن أعبر عنها أكثر من هذا.

كان قد مر جزء كبير من الليل ولم يستمر الحديث مع السيد واتسون أكثر من هذا لكن انطباعات مريد جديد قادم من الغرب قد جعل هذا السؤال يطرح نفسه بشدة وهو ما سبب هذا القبول غير العادي للشيخ رومي هل هو الفراغ الروحي في الغرب أم هناك شيء آخر؟

إن الشيخ الرومي من بناة ومؤسسي التصوف وهو الذي ابتدع محفل السماع. والرقص الروحي من ابتداعه أيضاً. وهو بنفسه قد أبكي العالم بصوت مزماره العذب وأكثر من كل هذا وذاك أنه هو الذي كتب إنجيل التصوف الذي يحتل مكاناً كبيراً في جميع الأوساط الصوفية باسم المثنوي المعنوي.

وفي مجالس أهل القلوب يدرس هذا الكتاب بشكل منتظم. وفي نظر الكثيرين يعتبر هذا المثنوي «هست قرآن در زبان بهلوي» قرآناً في اللغة الفارسية. وابن العربي الذي يقال له الشيخ الأكبر للتصوف يحتل مكانة بعده مباشرة لأنه أثر تأثيراً كبيراً على قلوب وأبصار أهل السلوك. فهذه هي شخصية مولانا الرومي التي انتسب إليها أيضاً نابغة العصر العلامة محمد إقبال فصار شيخاً رومياً. في هذا الجو الساحر للشعر والنغم إذ فُتن السيد واتسون فليس لنا أن نتعجب، والحق أن الشعر والنغم لهما قوة عظيمة فإن وجد لديك تذوق لهذا الفن فهناك احتمال كبير أن تقع في يوم من الأيام فريسة لهذا الفن. لو كنت قد سمعت أشعار الرومي من منشدي ومغني طائفة الشمس لأدركت ما هو سحر وفتنة الشعر واللحن في الواقع.

قبل بضع سنين تسني لي أن أسمع في مدينة نيويورك الأمريكية هذه الطائفة **وكان هذا المجلس يضم عدداً كبيراً من المنشدين الايرانيين وبدأ الإنشاد والغناء على الموسيقى بهذه الأبيات:**

دلتنگم وديدار تو درمان منست   بيرنگ رخت زمان زندان منست

فبعدما سمع أهل المحفل هذا الشعر على الموسيقى الساحرة فكانت حالتهم تستحق المشاهدة. ثم بعدها أخذ المغني ينشد الأبيات الأخرى بلحن مثير صاخب، ففي هذه اللحظات انهارت جميع حدود ضبط النفس وتحول أهل القلوب إلى حالة الوجد ولكن السائحين الأمريكيين والمواطنين المشاركين في الحفل قد أحدثوا ضجة كبيرة. ففي مثل هذه الظروف لا يدري أحد ماذا قال القائل وماذا سمع السامع والأصل هو الحظ السيئ الذي حالفك وأخذ منك كل ما كنت تملكه ولم تستطع أن تظل ساكناً بلا حراك.

كلما اشتركت في المجالس الصوفية للشعر والموسيقى بدت لي لغة الموسيقى قاتلة إلى حد الجريمة. ففي الأيام التي كنت فيها طالب في مرحلة الليسانس في كلية الآداب عُقد ذات مساء ندوة عن الشاعر الهندي ميرزا أسد الله خان غالب وكانت تقدم غزليات الأساتذة المعروفين على ألسنة المغنين المعروفين، وتربيت منذ الطفولة في جو لم يكن مسموحاً لي أن أسمع الغزليات من المطربين والمغنين حتى ولو كانت لأساتذة وشعراء كبار. فكنت متردداً في الحضور من عدمه إذ وقع نظري على مولانا سعيد أحمد أكبر أبادي الذي كان قد أخذ مكانه في الصف الأول لهذه الأمسية. ومن حسن الحظ كان قد أقيم قبل أيام في قاعة اتحاد الطلبة حفل وتشرفت أن ألقي أبياتي فيه فمولانا سعيد أحمد أكبر أبادي كان مشفقاً على وعندما مررت بالقرب منه أجلسني إلى جانبه كنوع من الشفقة والمحبة. ثم قدم عدد من المنشدين والمطربين غزليات عديدة ولكن الشعور بالجوع لم يكن قد بلغ مبلغه منى بعد، ولكن المغنية عندما بدأت تغني إحدى غزليات خسرو «**نميدانم كجا دانم**» بدا لي كأن المجلس قد استيقظ وهنا على لحن المزمار كانت المطربة مستمرة في

تقديم الغزل، والناس في الأمسية كانوا مندهشين ومبهوتين كأنهم قد ذهبوا إلى المجلس المشار إليه في الأبيات. **ثم عندما قال القائل وبشر الناس بهذا البيت:**

خدا خود مير مجلس بود اندر لا مكان خسرو

محمد شمع محفل بود شب جان كه من بودم

فلم يستطع المستمعون المجذوبون بالشعر والموسيقى أن يقدروا ويحسوا بما قاله الشاعر من مضمون.

يقال أن نظام الدين أولياء أمر خسرو ذات مرة بأن يذهب من حين لآخر لكسب الفيض إلى مجلس «**بوعلي قلندر**» وأن بوعلي كان على علم أن خسرو مريد نظام الدين أولياء. ذات يوم قال لخسرو علي الملأ: يا خسرو إنني أذهب إلى مجالس رسول الله (ﷺ) باستمرار وأجد هناك كثيراً من أولياء الله لكن إلى يومنا هذا لم أشاهد شيخك نظام الدين أولياء. يحكي أن خسرو عندما سمع هذا الكلام بشأن شيخه بدا حزيناً وعندما علم نظام الدين أولياء سبب حزنه قال لخسرو: قل لبوعلي أوصلني إلى ديوان الرسول (ﷺ) وأنا سأبحث بنفسي عن شيخي وحينما سمع بوعلي هذا الطلب على لسان خسرو وضع يده على صدره وبمجرد وضع اليد وجد خسرو نفسه في ديوان رسول الله (ﷺ) وبدأ ينظر إلى كل من في المجلس وحينما رآه الرسول (ﷺ) قلقا سأله: يا خسرو عمن تبحث؟ قال: أبحث عن شيخي. رد عليه: هو ليس هنا إنك ستجده في الديوان العلوي. وفي الدور العلوي رأي خسرو مجلساً آخر والرسول موجود بنفسه هناك أيضاً ولكن حلقة الأولياء كانت مختلفة هنا ولم يجد خسرو هنا أيضاً شيخه نظام الدين أولياء. قال الرسول بعدما رآه مضطرباً: يا خسرو اذهب إلى الدور الذي يليه وهكذا عبر خسرو عدداً من الأدوار العليا ووصل إلى الدور السابع وهنا أيضاً كان الرسول موجوداً ويحيطه

كبار الأولياء في شكل حلقة، لكن هنا أيضاً أصيب خسرو باليأس وعندما رأى الرسول (ﷺ) خسرو في حالة اضطراب أشار إلى شخص جالس إلى جانبه مرتدياً نقاب وقال له: انظر إليه بعد رفع النقاب. والآن بعدما رُفع النقاب نظر إليه فوجده نظام الدين أولياء. ولم يستطع خسرو أن يسيطر على عواطفه بعدما رأي مكانة شيخه هذه فتقدم لتقبيل قدميه بحب جارف لكن حينها رفع بوعلي يده من على صدر خسرو وفي غمضة عين غابت هذه المناظر من عيني خسرو.

هذه هي القصة التي تحكي في حلقات المتصوفين على خلفية هذه الأبيات، ففي الظاهر هذه الأبيات جزء من المدائح النبوية لكن هدفها الأساسي هو بسط نفوذ الشيخ وعظمته على قلب المريد حيث قيل في البيت الأخير الذي ذكر آنفاً أن المجلس المنعقد الله رئيسه ومحمد (ﷺ) هو شمع هذا المحفل، واجتماع الروحانيين هذا يكون لأوليائنا على مختلف مستوياتهم فهم مدعوون للسير والتنزه في هذا الحفل ومشاركتهم فيه دائمة.

لمثل هذا المجلس من الممكن تقديم الأدلة على توثيقه لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال تقديم أدلة حقيقية له في ميزان الشرع والعقل.

٢٥

المريد لا يريد

لم أنم في وقت متأخر ليلة أمس لكن لا أدري لماذا كنت أشعر بالتعب اليوم أكثر. غير أنه لم يكن هناك موعد خاص اليوم وعلى هذا اطمأن قلبي لأنني سأقضي معظم أوقاتي اليوم في الفندق وأستريح قليلاً. كان اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر ولم يكن قد بقي إلّا يوم واحد في اجتماع الروحانيين على قمة جبل أولوداغ. إن السيد مصطفى أوغلو كان قد أكد لي اليوم أنه سيأتي خبر تأكيد الحجز في أي وقت للاشتراك في هذا الاجتماع. إن المجلس الروحي بأولوداغ حيث يجتمع أقطاب سبعة أقاليم مع أبداله الأربعين وعشرات الأوتاد والأخيار. فبمجرد التفكير في المشاركة في مثل هذا المؤتمر يطرب القلب فرحاً تارة ويرتجف تارة أخرى نظراً للأخطار والاحتمالات غير المتوقعة ويغشى على نوع من الهيبة والخوف. ربما كان هذا من تأثير الرحلة المليئة بالأسرار والرموز التي لم تكن قد بدأت بعد لكن القوي بدأت تخور من الآن. بينما كنت أخطط لهذه الرحلة في عالم الخيال إذ رنّ جرس التليفون وكان على الجانب الآخر هاشم وأصدقاؤه الذين كانوا يريدون الحضور إلى الفندق ليودعوني لأن بعد غد هو يوم مغادرتي لتركيا ويوم الغد مخصص لأولوداغ. أما نهار اليوم فعلى أن أقضيه في الانتظار لكنني ما

زلت أشعر بالتعب فقلت لهاشم إذا أردتم الحضور فأهلاً وسهلاً بكم بعد الظهر.

بعد وضع سماعة التليفون خطر ببالي لم لا ألقي نظرة على تقرير المؤتمر السنوي للروحانيين الخاص بالعام الماضي الذي كان قد أرسله لي السيد هوجا عثمان قبل أيام. أخرجت ذاك التقرير من بين ركام من الأوراق ومع رشفة الشاي بدأت أقلب صفحاته. كان يبدو لي أن الأجزاء المختلفة لهذا التقرير أعده عدد من أُناس مختلفين. ففي مكان ما كان النص مكتوباً باليد وبالخط العربي وفي مكان آخر كانت أسماء الأماكن والأشخاص مكتوبة باللغة التركية وكانت قد أحيطت هذه الأسماء بالخرائط والرمل (للمنجمين). وفي مكان ثالث كانت الأسماء مزخرفة بزخارف هندسية مختلفة وبترتيب خاص. ليس هذا فحسب بل كانت هناك أسماء الأماكن والمدن الكبيرة مكتوبة بالإنجليزية وكانت قد أحيطت بدوائر خطية ومكتوب فيها أسماء أشخاص. بعد تصفح وتقليب هذه المسودة كل ما فهمت هو أن المؤتمر المنصرم كان قد حضر فيه بالإضافة إلى أقطاب الأقاليم السبعة الأبدال الأربعون واثني عشر من الأولياء المؤهلين للرشد واثني عشر ولياً من أهل التكوين وعدد كبير من الأبدال وأيضاً عدد من الأشخاص القادمين من بلاد الشام والذين قدموا تقريرهم السنوي عن سبعمائة من أخيارهم. وعلمت أيضاً أن هناك خمسة أقطاب آخرين حاصلون على ولاية القطب ويقيمون بشكل دائم في بلاد الشام بالإضافة إلى أقطاب الأقاليم السبعة الذين يعيشون في أقاليمهم. أما أقطاب الأقاليم السبعة، فيعتبر كل واحد منهم في زمنه نائباً عن أحد الأنبياء السبعة وهم إبراهيم وموسى وهارون وإدريس وعيسى وآدم ويوسف (عليهم السلام) وكذلك هناك أربعة أوتاد وهم معينون في الجهات الأربعة من العالم. هؤلاء الأربعة يركزون أنظارهم على أمور الدنيا من الأماكن المختلفة وأسماؤهم موحدة وهي محمد. أما الغوث أو قطب

الأقطاب فهما جانبان لشخصية واحدة ولكن قطب الأقطاب هذا عندما يتحول إلى قطب واحد فيكون له تصرف كامل على الكون كله.

وهناك سبعون من النجباء كلهم باسم حسن وهؤلاء يقيمون في صحارى مصر. أما النقباء فلم يعرف عددهم لكنني عرفت أن أسماءهم أيضاً واحدة وهي علي وهؤلاء عامة يقيمون في المغرب العربي.

إنجازات العام الماضي تم تقديمها على شكل نقش ليلقي عليها نظرة عابرة لكن فهمه لم يكن سهلا فوسط أوقاف ونقوش كانت هناك دائرة مكتوب فيها لفظ الجلالة بخط رديء وفوق الدائرة كانت علامة عين واحدة لعلها كانت لحماية هذا المجلس من العين والحسد.

وضعت التقرير في الحقيبة بعدما أغلقته وبدأت أشعر بالفرحة الشديدة بأنه سيتسني لي اليوم المشاركة في مجلس الروحانيين. ومرة أخرى يبدأ القلب يرتجف خوفاً من التعرض للأخطار والعواقب غير المحمودة.

بعد صلاة الظهر جاء هاشم ووليد وساجد. كان هاشم كالعادة مهموماً وفي نفس الوقت كان جاداً. أما ساجد فكان بادياً على وجهه نوع من اللامبالاة، أما وليد فكان يحمل في يديه طبقاً من البورسلين منقوش عليه البسملة وكان قد جاء به كهدية لى. إن هاشم كان متألماً من مغادرتي للبلاد وبدأ يقول: في طريق السلوك هذا، بينما نحن محاطون بالأخطار والوساوس والشبهات تتركنا في مفترق الطرق. كم سيكون جميلاً لو مكثت معنا لمزيد من الوقت ونحن نستعين بك في حل عقد طريق السلوك والتصوف.

تدخل ساجد مبتسماً وبدأ يقول: ليلة أمس ظللنا نتحدث مع بعضنا البعض لوقت طويل. لقد جئنا إلى إسطنبول باحثين عن شيخ كامل يثقلنا بصحبته ونضع أيدينا في يديه ونصبح مطمئنين بشأن الخلاص والنجاة.

لكن بعد القدوم هنا تعرضنا لتشكك في إدارة المشيخة نفسها وتبادلنا الإساءة بسبب النزاعات البينية بين الشيخ هشام والشيخ عبد الكريم ثم أسرتنا الهالة المقدسة التي تحيط بالشيخ محمود أفندي لكن حينما شاهدنا وجهين لشخصيته ازدادت شكوكنا. فمن ناحية هو مستجاب الدعوات للعامة والناس يقبلون يديه ومشاهدته العابرة سبب للنجاح للمريد، ومن ناحية أخرى عندما يكون الشيخ نفسه مع الخواص أو من هم على مستواه فهو أيضاً يكون محتاجاً لدعوات الآخرين مثل عامة الناس. في الأسبوع الماضي كنا قد ذهبنا لمقابلته فرأيناه في مجلسين مختلفين. الوفد الباكستاني للنقشبنديين الذي كان قد حصل بصعوبة كبيرة على إذن للمقابلة. كنت قد انضممت إلى هذا الوفد أيضاً. الشيخ كان جالساً على الكرسي والحضور بعد المصافحة جلسوا تحت قدميه طالبين منه الدعاء لأنفسهم. وظل الناس يرفعون طلباتهم للدعاء والشيخ مرة يقول آمين ومرة أخرى يقول إن شاء الله ولم تخرج من لسانه كلمة أخرى غير هاتين الكلمتين. هذه طلعة لمقابلته مع عامة الناس ولمثل هذه الطلعة البهية الناس كانوا قد جاءوا من بلاد بعيدة. وبعد قليل جاءت طائفة لكبار المتصوفين من أفغانستان وأنا أيضاً انضممت إلى هذه الطائفة بشكل من الأشكال لأسعد بمقابلة الشيخ مرة أخرى واستغربت وتحيرت عندما شاهدت صورة هذا المجلس مختلفة تماماً. الشيخ محمود كان جالساً على كرسيه والناس قد جاءوا بحوالي أربعة أو خمسة كراسي أخرى ليجلس عليها كبار الوفد الأفغاني. أما الطلاب وصغار السن فأخذوا أماكنهم على الأرض ولكن الشيء الذي أدهشني هو أن رئيس هذا الوفد قد وضع يده على كتف الشيخ وبدأ يدعو له لاسترداد صحته بصوت عال. فهذا الشيخ المتصوف ظل يقرأ مختلف الآيات القرآنية لمدة ربع أو ثلث الساعة من أجل الرقية. إنني لم أفهم أن الشيخ الذي حصل على قدرة

المكاشفة وقادر على طلب الدعوة من أرواح كبار نقشبند والغوث الأعظم وحتى أنه يطلب من رسول الله (ﷺ) كيف احتاج لرقية شيخ معاصر له. لقد جئنا هنا على اعتبار أن الشيخ له رابطة مباشرة مع الله وهو من مرتادي مجالس رسول الله (ﷺ) لكن بعدما رأيته وهو نفسه محتاج لدعوات الآخرين ولرقياتهم فذهبت ثقتنا منه ومن القصص والحكايات التي تروج له على أنه حقاً من مرتادي مجلس رسول الله (ﷺ).

كم يكون سن الشيخ أفندي؟ حاولت أن أقرأ انطباعات ساجد.

أرى أن عمره يتراوح ما بين الثمانين والخمسة والثمانين عاماً.

ثمانون عاماً؟ هذا هو العمر الذي يرفع الملائكة أقلامهم عمن يبلغه حسب قول الشيخ ناظم حقاني.

فهل شطحات المتصوفين تصدر في هذه السن؟ تدخل هاشم.

للشطحات ليس هناك شرط للسن بل يحتاج إلى رفع مستوى السيروتوتين في المخ. قالها وليد مع ابتسامة خفيفة.

انظروا إلى هذا الكلام الذي قاله ناظم حقاني عن سن الثمانين ومثل هذا الكلام جاء على لسان مولانا أشرف على تهانوي قبل سن رفع القلم. أراد وليد أن يوضح الأمر أكثر.

فهل كان قد رفع عنه القلم قبل حلول هذه السن؟ قالها ساجد بأسلوب ساخر.

يبدو هكذا، فانظر يقول الشيخ ناظم حقاني أن ملك الموت لن يأتي لقبض أرواح مريديه لأن انتظار الروح مرحلة مؤلمة ولهذا كما يقول ناظم حقاني هو نفسه يخرج أرواح مريديه ويسلمها لملك الموت، ويقال مثل هذا الكلام عن الشيخ أشرف على التهانوي كما جاء في كتاب «**أشرف السوانح**». قال: إن مريدة له قالت في عالم النزع منادية اسمي أنه جاء على ناقة ويقول اركبي عليها وبعد ذلك توفيت.

حقاً؟ أبدي ساجد حيرته ودهشته. وهاشم الذي كان إلى الآن صامتاً وتائهاً في مكان ما، جلس متمالكاً نفسه وبدأ يقول: مثل هذه الدعاوى قد أحدثت مسائل كثيرة لو قبلناها فيذهب الدين من قلوبنا ولو لم نقبلها فيثار التساؤل كيف لا نقبلها وقد جاءت هذه الأحاديث على ألسنة شخصيات مقدسة وعظيمة الشأن. ثم التفت إليّ وقال: ما رأيك في هذا الشأن؟

أنت تعلم موقفي جيداً وهو أن الله سبحانه وتعالى قد منحنا قوة التفكير والتدبر فيجل علينا أن نضع كل قضية على ميزان الشرع والعقل لأن الله يحاسبنا حسب فهمنا وبصيرتنا.

كلامك صحيح تماما لكن الذي لا أفهمه هو أن دعوى رؤية الله على ألسنة الشخصيات المقدسة والمعتبرة ووقائع زيارة رسول الله (ﷺ) بل مقابلته في عالم الشهود (اليقظة)، كل هذه الأمور التي نقلت إلينا بالتواتر كيف يمكن وضعها وتنسيقها في ميزان الشرع والعقل. بكل تأكيد إنك على معرفة بالإمام النصفي وشرح عقيدته متداول بين أهل السنة. يقول هذا الإمام: يجوز أن يذهب بيت الله (الكعبة) لزيارة بعض أولياء الله. كذلك الإمام الغزالي الذي يعتبر حجة للإسلام بين جمهور المسلمين إنه ذكر في كتابه «**المنقذ من الضلال**» أن المتصوفين يشاهدون أرواح الملائكة والأنبياء في عالم الشهود بأعينهم ويسمعون حديثهم ويستفيدون منه.

والآن تعالوا لتسمعوا عن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني. مع هذه الكلمة أخرج هاشم من حقيبته اليدوية ملفاً لتصوير المستندات. فتح الصفحة المطلوبة منها ثم قام بالالتفات إليّ قائلاً: انظر إلى روح المعاني أليس هذا تفسير معتبر ومستند لأهل السنة؟ ففي هذا التفسير جاء تحت الآية رقم ٣٥ والسورة رقم ٢٢ ما نصه: «يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: إنني رأيت رسول الله (ﷺ) ذات يوم قبل الظهر وقال لي يا بني لم لا تتكلم ولماذا لا تقوم بالتبليغ والدعوة. قلت له: يا أبتاه أنا

أعجمي أني لي أن أفتح لساني أمام فصحاء وبلغاء بغداد؟ فقال لي رسول الله (ﷺ): افتح لي فمك، ففتحت فمي فقام (ﷺ) بإلقاء لعابه سبع مرات في فمي ثم قال والآن اذهب وتحدث مع الناس وأدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة». وورد بعد ذلك أن الشيخ عبد القادر الجيلاني جلس في المسجد بعد الظهر للتبليغ لكنه كان مرعوباً ووقتئذ رأى علياً (رضي الله عنه) واقفاً أمامه ويقول: يا ولدي أخطب، فقال له: إنني أصبت بالرعب. فقال افتح لي فمك. ففتحته، فأدخل لعابه في فمه ست مرات ثم غاب عن النظر.

وفي نفس التفسير للآلوسي (روح المعاني) جاء عن الشيخ أبي العباس مرسي: أن شخصاً أراد أن يصافحه باعتبار أنه قد قابل كبار أهل الله فقال الشيخ له: إنني لم أصافح أحداً بهذه اليد بعدما صافحت بها رسول الله (ﷺ) **وأضاف الشيخ أيضاً: لو غاب رسول الله من أمامي لحظة واحدة فإنني لا أعد نفسي مسلماً.**

يستنتج العلّامة الآلوسي من هذه الأحداث أن رسول الله (ﷺ) حي في قبره بالجسم والروح وحينما يريد الله أن يرفع حجاب عن أحد فيسعده بزيارة رسول الله (ﷺ).

والآن اسمعوا بعض ما جاء في مصادر ومراجع علماء الهند وباكستان والتي قمت بتسجيلها في مذكرتي. فقد كتب مؤلف تذكرة الرشيد عن الشيخ رشيد أحمد جنجوهي أنه كثيراً ما شوهد وهو يؤدي صلاة الفجر في الحرم المكي غير أنه كان متواجداً في هذه الأوقات في قريته غنجوه نفسها. وكتب الشيخ حسين أحمد مدني في نقش الحياة عن شيخ النقشبنديين ما نصه: إنه جاء إلى مقبرة السيد نانوتوي وجلس هناك في المراقبة، وفيما بعد كشف أنه اشتكى لنانوتوي أن أعضاء حركة الخلافة يتعرضون للوم من جانب الحكومة الاستعمارية الإنجليزية،

فأشار إلى مولانا محمود الحسن قائلاً: إن الشيخ محمود الحسن يمسك الآن العرش الإلهي ومصر على إخراج الإنجليز بسرعة من أرض الهند.

وتعالوا اسمعوا حكاية مذكورة في رسائل السيد المجدد للألف الثاني، يقول: إن الصور المتمثلة لأولياء الله تظهر في أماكن متعددة، غير أن أصحاب الصور أنفسهم لا يعلمون عنها شيئاً. كما قال السيد المخدومي أن شخصاً ما يراه في مكة ويقول الآخر إنه رآه في بغداد غير أنه لم يخرج من بيته أصلاً.

إنها لبضعة أمثلة وإلّا فإن هناك سلسلة طويلة لمثل هذه الدعاوى. والأمر يتوقف على ما سبق لي من القول لو قبلنا وآمنا بمثل هذه الإدعاءات فيتعرض الإيمان للخطر وإن رفضناها فتذهب مكانة الشيوخ أدراج الرياح. نحن نعاني كثيراً من هذا الواقع المؤلم ففكرنا أن نعرض عليكم هذا الموضوع مع المصادر والمراجع ربما تقوم بإرشادنا. أغلق هاشم مذكرته وساد الصمت للحظات على المجلس.

وأخبره أيضاً عن موضوع الفتح الرباني، أراد وليد أن يذكر هاشم بموضوع كان قد نسيه ففتح المذكرة مرة أخرى وبدأ يقول: اسمح لي أن أسمعك جملة أو جملتين للشيخ عبد القادر الجيلاني من كتاب الفتح الرباني. يقول: أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم، إنني بالنسبة لكم كمقياس وميزان، إنني أعرف عن خيركم وشركم، ثم يقول: أيها الفقهاء أيها الزهاد أيها العباد لدي أخبار حياتكم ومماتكم وعندما تشتبه على بدايات أمركم فينكشف لي مصيركم عند موتكم. أغلق هاشم مذكرته بعد أن قرأ هذه الجمل وبدأ ينظر إليّ مستفسراً.

قلت لهم: إن مشاهدة الحق وزيارة الرسول أو مكاشفة القبور والأرواح، كل هذه الأمور تجارب لدى الروحانيين. هم يقولون: هذه الأمور ليست أعمالاً تؤدي بعد الفهم بل العكس هو الصحيح يتم

إنجازها أولاً ثم يأتي دور الإفهام والإدراك. إنكم أيها الشباب قضيتم وقتاً كبيراً في المراقبة والأربعينية ولأن تركتم أحياناً ملازمة الشيخ فكثيراً ما لازمتم صحبة الشيوخ. فماذا ظهر لكم من خلال هذه المجاهدات، هل تحول تصور الشيخ إلى حقيقة مطلقة ولو لمرة واحدة؟ وهل حاولتم جس نبض السالكين والمريدين الذين كانوا معكم في إسماعيل آغا في الرياضات الروحية؟ هل أي منهم نال شرف زيارة رسول الله (ﷺ) وهو في المراقبة والمكاشفة؟

لم يفتح أحد فمه بهذا الحديث من الذين تحدثت معهم ووجدت الكثيرين منهم في حالة يأس، لكنهم يريدون الحفاظ على ماء الوجه.

لكن عندما قلت ذات مرة لـ الله يارخان: إنني رأيتك بالأمس وأنت تصلي صلاة المغرب في مسجد السلطان أحمد، فبدلاً من أن ينكر هذا الأمر ابتسم وسكت، وساجد لم يستطع السيطرة على ضحكته إلّا بصعوبة.

نعم، هذا ما أشعر به أنا أيضاً، فمن بعض السالكين الذين لم ينالوا شيئاً بعد يريدون أن يضخموا العادات الخارقة وبعض الناس يعطون الانطباع عن كونهم شيوخاً بذكر الأحلام. قام هاشم بتأييد ساجد في هذا الأمر.

لكنك أيضاً تحلم وترى الرؤيا بكل تأكيد حتى وإن لم تكن تبلغ أحلامك ورؤياك إلى مرتبة الشيخ. حاولت إثارة هاشم بكلامي هذا.

ليست رؤيا بل هي أضغاث أحلام. إنني دائماً أكون قلقاً وأقول: ربما أنا الذي لا أصلح لأخذ الروحانية. منذ ست أو سبع سنوات وأنا سالك هذا الطريق. قدمت إلى الشيوخ المعروفين بمختلف الطرق لكن إلى الآن لم أحظى بمراقبة مثمرة. لا يزيد تصور الشيخ عن مقاس صورة فوتوغرافية لجواز السفر فآنى لي زيارة رسول الله (ﷺ). وكلما شكوت حالي أمام

الشيوخ ردوا على أن تصور الشيخ نفسه لا يناله إلّا واحد في المليون. فما دام تصور الشيخ نفسه شيء نادر الوجود لهذا الحد فكم من الناس يكونون قد حصلوا على إقامة روابط مع أرواح النقشبندية وقس على هذا زيارة رسول الله (ﷺ). ربما هاشم كان يريد أن يواصل كلامه لو لم يتدخل وليد ويعطي السؤال صيغة أخرى. لا يدخل هذا الأمر في العقل وهو أنه ما لم يحدث هنا أي مكاشفة ولم ينل أي روشتة للتصرف في أمور الدنيا والحياة تنقضي في خدمة الشيخ حتى يصل الأمر إلى أن المريد بسبب كبر سنه أو بفطانته وشطارته يتحول إلى شيخ، فمن أين لهذه السلسلة الاستمرارية وما هو السر وراء هذه المبايعة والإرشاد على هذا المستوى الكبير؟

قلت لهم في سؤالكم هذا يكمن الرد في اضطرابكم وقلقكم. وكل ما تحتاجون إليه هو أن تخرجوه. حقاً؟ قال ساجد ووليد معاً مبدين حيرتهما.

قلت لهم: نعم، بكل تأكيد كلما يتم وضع الأسئلة بأشكال وأنماط مختلفة ثم يستمر التفكير بها، تظهر الأجابات من داخلها. والآن تعالوا لتسمعوا كيف يحدث هذا. إن شخصاً عادياً كيف يتحول إلى شيخ وينال ثروة المكاشفة متى وكيف تأتي إليه؟ أهل القلوب يعلمون هذه المسألة جيداً وهي: (پيران نمى پرند مريدان مى پرانند) أن الشيخ والمرشد لا يطير بل المريد هو الذي يجعله يطير كلما تكون الدعاية للشيخ من جانب المريدين تزداد قامة المرشد بنفس القدر. أما المريد المسكين فعرفه أهل الظاهر «**أن المريد لا يريد**». إنه لمخلوق عاجز ومسكين يضحي من أجل شيخه بكل ما يملك من عزة النفس والمال والدين والإيمان، ومع كل هذه التضحيات فأنه لا يُعتد بها، فلا شيء يتأنى بدون لطف وكرم الشيخ.

والآن تسألون كيف تكون هذه القناعات عند الإنسان الصالح

والطيب. كيف يقدم كل شيء يخصه طواعية إلى الشيخ حتى قضية نجاته الحساسة والدقيقة نفسها يسلمها إلى يد إنسان مثله ويصبح مطمئناً بعد التسليم والتسلم؟ لو عرفتم هذا السر فلعلكم تهتمون بجمع المريدين لأنفسكم بدلاً من أن تكونوا مريدين للآخرين. والأمر الصحيح هو أن الله وضع في كل إنسان موهبة فطرية للتأمل والتدبر وعرفه الخير والشر. هذه الموهبة تزداد ثقلاً وجلاء عن طريق الوحي. أما طريق الأوهام والخرافات فيجعل هذه الموهبة غباء في غباء.

إن الشيخ لا يعمل أكثر من أن يطفئ مفتاح عقل شخصيتك عن طريق الحيل المختلفة باسم المجاهدة والتربية. إن بعض المريدين تنطفئ مفاتيحهم بسرعة عجيبة والبعض الآخر يتطلب شيئاً من الوقت لأنها قضية عزة نفس وتعامل البيع والشراء معها ليس أمراً سهلاً. وعلى هذا ترى أن بعض المقربين للشيخ يقطعون مراحل السلوك الكثيرة في قفزة واحدة؛ لأن هؤلاء هم الذين يسهل إطفاء مفاتيحهم بسرعة أما الذين يريدون أن يروا في هذا الطريق شخصياتهم ويفهموا أن التفاتاً بسيطا من الشيخ سيؤهلهم للخلعة والعز. أناس طيبون مخدوعون حينما يقعون فريسة للروحانيين، ففي أول الأمر لا يقدرون تقديراً جيداً له وهو أن جل اهتمام الشيخ يتركز على إطفاء مفاتيح شخصياتهم ولهذا الغرض تستعمل الأسلحة النفسية المختلفة. مرة يقال أن الأنا والأنانية للسالك زائدة عن اللزوم ويحتاج الأمر مزيداً من الجهد للسيطرة عليه. ومرة يقال أن السالك واقع في زعم العلم وهو يزعم أنه يفهم أمور الدين وحجاب العلم هذا أصبح حاجزاً في طريق السلوك له كأن الشيخ يريد أن يطمئن من أن المريد وضع نفسه بالكامل تحت قدميه والآن مقياس الخير والشر له هو ذات الشيخ.

وفي معظم الأحيان يجبر الشيخ مريده على أن ينطق كلمات هي ضد الإيمان وعندما يرى أن المريد لا يتردد في نطق كلمات ضد الدين إرضاء

للشيخ فوقتئذ يطمئن الشيخ أن المريد قد تم إطفاء مفتاحه العقلي بصورة مطلقة وهذا ما تلاحظونه عند الشيخ معين الدين جشتي الذي طلب من مريده أن يقول لا إله إلّا الله جشتي رسول الله على سبيل الإمتحان فوراء هذا الطلب في الواقع كان يكمن هذا السر نفسه. وعندما يكتب مريد إلى شيخه أشرف على التهانوي أنه عندما يريد أن يقول لا إله إلّا الله محمد رسول الله فيخرج من على لسانه من غير إرادة «**أشرف رسول الله**». فعليك أن تعرف جيداً أن هذا المريد يريد التقرب إلى الشيخ عن طريق التملق والزلفي ويسعى هذا الشخص على الحصول على الخلافة. وأحياناً يقوم للإطمئنان على أن مفتاحه انطفأ تماماً بتقديم جزء من لقمته أو الأجزاء المتبقية من سفرته ويريد أن يعرف هل ما زال موجوداً لدى المريد أي نوع من الكراهية. وبعض المريدين الذين تم إطفاء مفاتيحهم بالكامل يكونون منتظرين للقمة المتبقية للشيخ أو الطعام المتبقي على سفرة الشيخ كي يتناولوه على سبيل التبرك والتيمن بل وصل الأمر إلى بعض مريديه أنهم شربوا بصاق شيخهم على سبيل البركة في غيبة نظر الشيخ كما جاء في بعض الكتب. إن الأمور التي ترفضها الطبائع السليمة تحسب في عالم التصوف مادة الإمتحان للسالك والمريد.

وبصفة عامة لهذه الدرجة من الإعتقاد بالشيخ يقدم لإباحته دليل حب أصحاب الرسول (ﷺ) له. يقول المتصوفون أن أصحاب النبي (ﷺ) لم يكونوا يسمحون لماء وضوئه (ﷺ) أن يسقط على الأرض وكانوا يدهنون أجسامهم بلعابه. ماذا تقول في هذا الشأن؟ أراد وليد التدخل أثناء الكلام.

انظروا، أولاً لا مقارنة بتاتاً لهؤلاء المتصوفين برسول الله (ﷺ) فهذا أمر منكر لا يعتد به، والأمر الثاني أن هذا الذي له شهرة في الخلق أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكونوا يسمحون لماء وضوء النبي أن يسقط على الأرض أو أنهم كانوا ينتظرون للعاب النبي (ﷺ) متى ينالوه كي يدهنوا

به وجوههم أو أجسامهم ومتي يحلق الرسول (ﷺ) شعره كي يأخذوه ويحتفظوا به. كل هذه الروايات مغايرة ومتنافرة مع طبيعة رسول الإسلام النفيسة وعن رسالة الإسلام السامية.

هذه الروايات تم وضعها ونحتها كي يبحث مشايخ المتأخرين عن حيلة لإجازة أعمالهم بعدما يركبون على أعناق الناس العاديين. إن الرسول (ﷺ) لم يكن قد جاء إلى هذه الدنيا لتوزيع شعره لكن ماذا نفعل مع أولئك الذين أدخلوا شعر الرسول (ﷺ) مع شعائر الدين، وقد تم تصنيف كتب بكل اهتمام عن شعر رسول الله (ﷺ).

كنت أقول لكم أن الشيخ يجعل مريده يمر بمختلف المراحل للتأكد من إغلاق عقله تماما، فتارة يأمره بأن يقضي أربعين يوماً على مقابر الشيوخ وهذا المسكين في عالم المراقبة يتعرض للهلوسة إذ يقول أنه يتلقى الفيوض والبركات من صاحب القبر غير أن القرآن ينكر بشدة أن الميت يسمع لكن هؤلاء الروحانيون مصرون على أن كبار المتصوفين أحياء في قبورهم أياً كان موقف القرآن في هذه المسألة لكن أرواح شيوخهم مستعدة في قبورهم لإستغاثة أهل الحاجة والطلب. والمريد عندما يكتمل إيمانه بهذه الخرافات فاعلم أن هذا الشخص أصبح شخصاً مفيداً وعملياً للشيخ والآن يتم منحه الخلعة الفاخرة ويعين على أمر هام.

معذرة! اعترض هاشم قائلاً أن الآية الكريمة للقرآن الكريم: ..﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.. في مكانها لكن ماذا تقول عن الرواية التي جاءت في البخارى ومسلم والتي تقول: إن الرسول (ﷺ) أشار إلى مقتولي بدر فردا فردا بالإسم يا فلان ويا فلان وقال ألم يكن من الأفضل لكم أن تؤمنوا برسول الله، فنحن وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فماذا حدث لكم عن الوعود التي وعدها لكم آلهتكم؟ كتب الرواة أن سيدنا عمر (رضي الله عنه) كان موجوداً في هذا الموقع فقال: يا رسول الله ماذا تقول لهذه الجثث الميتة

هل يقدرون على السماع لأن القرآن يقول: ..﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.. يقول الراوي قال رسول الله رداً على هذا: فوالله الذي بيده نفس محمد حديثي هذا لا تستطيع أن تسمعه أفضل من هؤلاء.

في هذا الشأن موقفي واضح وصريح. أردت إفهام هاشم وقلت: كل الروايات التي تتصادم مع آيات القرآن الكريم الواضحة والصريحة مهما كانت الكتب الكبيرة التي وردت فيها لا اعتبار لها في مقابل القرآن ولا تحتاج الدراية حول ثقة رواتها ما دام القرآن يشهد ضدها فلا مكان هنا للجرح والتعديل.

انظروا رأيي أن كل هذه الروايات التي تخالف الأسلوب العقلي للقرآن هي بتشكيلها هذا لم تؤثر على صورة الإسلام بما يكتنفها من غموض فحسب بل حصلت المشيخة على مساحة واسعة لجوازها وإباحتها. والمدعون للكرامات كانوا على علم تام على أنه ما لم تقم شهادة على كرامات أصحاب النبي (ﷺ) المحيرة للعقول لن يكون هناك دليل يقدم على وقائع الشيوخ والأولياء الخارقة للعادة.

مثلما تم وضع رواية على سماع الموتي خلافاً لما ورد في القرآن كذلك قيل لجواز كرامات الصوفية كما نقل في البخاري أن السيدين حفير وعباد بن بشر كانت في أيديهما عصا وفي ليلة حالكة الظلام استنارت عصاهما فوصلا إلى البيت في ضوء العصا.

وجاء بشأن كرامة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه): ذات مرة تناول أبو بكر وضيوفه طعاماً وكلما نقص شيء من الطعام ظهر أكثر منه من تحت الأرض. يقال أن الطعام بعد تناوله أصبح ثلاثة أضعاف مما كان عليه من قبل.

هذه الوقائع الخارقة للعادة التي تنسب إلى أصحاب النبي (ﷺ) حصلت كرامات الشيوخ على دليل لجوازها. هؤلاء الناس لم يختلقوا

القصص فقط للوصول إلى مبتغاهم بل قاموا بانتساب هذه القصص إلى شأن نزول الآيات كي يقيموا فيما بعد دلائل على طيران الصوفية وطي الأرض. ماذا أقول لكم فهؤلاء غيروا حتى المعاني والمفاهيم للمصطلحات فسموا ضوضاءها ذكراً. وكل التوصيات والتوجيهات للعمل تأتي في نصيب العامل والعامل هو من يكون على علم بالروشتات السفلية للسيطرة على شياطين الجن. وكلما يأتي اسم الولي يطرأ في الذهن كل شيخ أو فقير أو مجذوب أو مشعوذ. وعلى من تكئ على مساند الأولياء فهم كل أولئك الذين قاموا بتوفير العناصر الضرورية لتعطيل الدين الخاتم الذين كانوا فخورين به بطريقتهم الموضوعة والمبتدعة على الرغم من وجود الشريعة المحمدية بين أظهرهم وكانوا يقولون هذا هو الطريق المعتبر والمستند للوصول إلى الحقيقة بل قاموا باجتراء إعلان على الملأ أن مدة شريعة الأنبياء من أولى العزم تنحصر بين ألف سنة كما كتب داود قيصري شارح تفاصيل الحكم. وبعد ألف سنة من الزمان جاء شيخ نقشبند المجدد للألف الثاني تحت النظام الإلهي وأقام على هذا الاجتراء دليلاً واهياً. ساجد كان مبهوتاً لأن كثيراً من أحاديثي كانت بالنسبة له بمثابة اكتشاف جديد ووليد كان يحرك رأسه أحياناً مؤيداً لكلامي وأحياناً أخرى كان يحاول قراءة انطباعات أحبابه البادية على وجوههم. أما هاشم فظل مشغولاً مع قلمه ومذكراته.

كانت نفسي تطوق لأن تستمر سلسلة الحديث هذه مع هؤلاء الشباب الثائر لكن نظراً لاستعداد واشتياق السفر إلى أولوداغ استأذنت منهم وقرأت لهم موضعاً هذا البيت لعلامة إقبال ما معناه: **إنني أحب أولئك الشباب الذين يرمون بحبالهم على النجوم.**



٢٦

نظر بوجك

كان قد حان وقت صلاة المغرب ولكنه لم يكن قد أتى بعد أي خبر مؤكد لسفري إلى أولوداغ، في هذه الأثناء حاولت الاتصال بمصطفى أوغلو هاتفياً أكثر من مرّة ولكنني لم أنجح في الاتصال به. بينما كنت جالساً بعد صلاة المغرب على سجادة الصلاة وأفكر في سفر الغد فخرج من أعماق قلبي هذا الدعاء إلى الله ألا تفت مني هذه الفرصة النادرة فبعد أربعين سنة من الزمان سيعقد مؤتمر عالمي للروحانيين على قمة جبل أولوداغ وهي محض صدفة أنني موجود في هذا الوقت في مدينة إسطنبول وكأن الله قد هيأ لقلبي أداة الروابط مع الروحانيين إذ لم أعرف عن خبر هذا المؤتمر فحسب بل سنحت لي إمكانية الاشتراك فيه أيضاً. انقضي اليوم كله بين الخوف والرجاء وكاد النهار ينتهي وكل لحظة كان الخوف يزداد بألا يتحقق هذا الحلم. كنت أعد لهذا السفر في قلبي وأعيده مراراً وتكراراً. كان التوجيه ألا آخذ معي شيئا غير حقيبة يدوية خفيفة ووضعت فيها المحفظة المربوطة بحزامي، أوراق السفر، وبعض العملات المحلية والأجنبية وبطاقة الائتمان وأمثالها من الأشياء المهمة. بعد قليل جاء تليفون مصطفى أوغلو وبدأ يقول إنني في الطريق إليك وتم التدبير للسفر. أنا الآن أشتري بعض الأشياء الضرورية من اسماعيل آغا

وسأقابلك بعد قليل إن شاء الله. بعد ساعتين تقريباً جاء مصطفى أوغلو إلى الفندق متعباً وبمجرد الدخول في الغرفة ألقي بنفسه على الأريكة. كانت بيده حقيبة قدمها إليّ قائلاً: تفضل هذه هي أمتعة سفرك ثم أخرج من الجيب ظرفاً جميلاً باللون الأحمر وقال: هذه هي ورقة التصريح لاشتراكك في المؤتمر فحافظ عليها لأنه غير مسموح الدخول بدونها. فتحتها لأراها فربما جاء تصريح خاص باسمي لكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل فما هي إلّا تميمة مصنوعة من البلاستيك وهي التي تباع في محلات إسطنبول العادية للوقاية من الحسد. قال انظر إليها من الخلف فرأيت شريحة إلكترونية ملتصقة خلفها. قال لي: عند مرورك بالباب الإلكتروني سيظهر النور الأخضر فلو لم يحدث هذا يستمر النور الأحمر مضيئاً ويبدأ الجرس يرن. تفحصت التميمة من الأمام ومن الخلف ثم وضعتها في جيبي بحذر.

وماذا في هذه الحقيبة؟ سألت مصطفى أوغلو. قال لي افتح وانظر بنفسك ففيها ملابس الدروشة، جمعناها بصعوبة شديدة لأن هذه الأشياء لا توجد إلّا في إسماعيل آغا. وما عمل هذه العصا؟ والآن فهمت الخطة وضحكت على نفسي كثيراً فهل سأشارك غداً في مؤتمر الروحانيين وأنا في زي الدروشة؟

نعم يا سيدي فلا يمكن الدخول بدونه. ودعني مصطفى على وعد منه بأننا سنلتقي غداً الساعة السابعة صباحاً.

في اليوم التالي أصبحت جاهزاً للسفر قبل الموعد بساعة. إن الجلباب كان طويلاً أكثر من اللازم وكان يصل إلى الأرض فتذكرت فجأة أن هناك جبة سودانية قديمة لدي ترجع إلى ما قبل خمسة عشر عاماً وهي تذكرني بالأيام التي كنت أجلس فيها في حلقات الذكر لمتصوفي التيجاني فارتديتها ووضعت على رأسي طاقية تشبه القبور

ولففت العمامة السودانية بطريقة شبه سودانية ثم علقت في عنقي سبحة ذات لونين تحمل ألف حبة ووضعت عليها عقداً يحمل الأوقاف والنقوش الصغيرة وحبات خشبية ثم وبكل حذر علقت في عنقي أيضاً علامة حمائل التي كانت بمثابة البطاقة الشخصية الخاصة بي وأمسكت في اليد الأولى العصا وفي اليد الأخرى حقيبة السفر البلاستيكية.

بعد أن استعددت للسفر ووقفت أمام المرآة بدأت أشعر بقداسة نفسي واستغربت منذ متى كان هذا الدرويش كامناً في داخلي ولم يكن يحتاج مني إلّا تصريح الخروج والآن عندما وجد قالباً مناسباً فظهر وبان. في هذه الأثناء جاء أيضاً تليفون السيد هوجا عثمان. أعطاني بعض التوجيهات الضرورية وأكد لي على أن أكون دائماً على حذر وقال لي أيضاً إنك تشترك في هذا المؤتمر كدرويش تركي محلي. أبديت قلقي لأنني لا أعرف اللغة التركية إلّا قليلاً وفي الشكل والصورة أيضاً أبدو مختلفاً تماماً عن الأتراك. فقال لا تقلق بهذا الشأن سيكون هناك كثير من المشاركين من أمثالك الذين جاءوا من بلاد شتى ولن يكون هناك أي نوع من الاستفسار ولن يكون مسموحاً لك حمل أي شيء إلكتروني حتى الكاميرا والموبايل غير مسموح بحملهما. لا بد أن تعطي هذه الأمور اهتماماً خاصاً.

حضر السيد مصطفى أوغلو في الموعد المحدد ولدي رؤيتي له في الزي العادي استغربت تماماً. سألته هل تصريح الدروشة أنا الذي أحتفظ به فقط؟ قال: نعم، لأن التصريح جاء لك فقط. ماذا تعني؟ سألته مرّة أخرى. قال: لم نستطع الحصول إلّا على تصريحاً واحداً بصعوبة بالغة. لا أدري أي درويش تنازل عن حقه لصالحك. يبدو أن هوجا عثمان معجباً بنضوج شخصيتك. أليس هوجا عثمان هو الدرويش الذي تنازل عن حقه؟ سألته. قال: لا عجب فيه فيبدو لي أنا أيضاً هكذا. أبدى مصطفى أوغلو هذا الاحتمال.

لكن من غيرك ستكون متعة السفر ناقصة. قال رداً على هذا: لا تقلق، إنني سأصاحبك بقدر الإمكان. بعد حوالي نصف ساعة وصلنا إلى محطة يانيكابي الحرة، ومن هنا يبدأ سفر بُرسا الذي يستغرق حوالي ساعة ومن برسا علينا الذهاب إلى أولوداغ وهي لا تزيد أكثر من ثلاثين أو خمسة وثلاثين كيلومتراً. من حسن الحظ أننا وجدنا المقاعد على الباخرة بسهولة. الجو كان لطيفاً وأمواج الرياح حينما كانت تمر بالقرب مننا تلمس المسطح المائي فكانت تقوم بإعطاء الإحساس بالطراوة والبهجة. باخرتنا كانت متجهة نحو بُرسا وكنا جالسين في الجزء الأمامي المفتوح. ومع السفينة كان هناك طائر يحلق على رؤوسنا وظل هذا التحليق حتى جاء معنا إلى «**جوزيلالي**». إن صحبة الطائر في سفر الدراوشة يكون يضفى نوعاً من السرية. قلت لمصطفى أوغلو: بكل تأكيد في هذا الطائر روح لأحد الشيوخ وإلّا لم يكن هذا الطائر يصحبنا في سفرنا لأولوداغ. ابتسم مصطفى أوغلو وقال: إن السرية تكون في قلوب وعقول السالكين والمعتقدين. لو كان معك في سفرك هذا بعض السالكين والمريدين لحملوا تحليق الطائر إلى إشارة غيبية ثم إن الطائر يميل إلى اللون الأخضر فلا عجب أن تكون روحه تبدلت في شكل طائر ذاهب إلى أولوداغ بعد انتهاء اجتماع جبل قاسيون لأنه كما يقال أن صباح الرابع عشر من كل شهر سبتمبر يكون يوم اجتماع على مستوى الأبدال في جبل قاسيون وفي مساء نفس اليوم يكون اجتماع آخر في مكان بعيد لقطب الأقطاب. ويشترك في هذا المؤتمر السنوي كل من الأبدال والأقطاب والأخيار والأوتاد. والسفر من جبل قاسيون إلى أولوداغ لا يمكن أن يتم بهذه السرعة اللهم إلّا عن طريق طي الأرض أو طير الأرض.

عن طير الأرض؟ سألته بحيرة. نعم، إنني وضعت هذا المصطلح المهمل حالاً بمناسبة هذا الطائر. فهل سيكون اليوم فيي جبل قاسيون نشاط وحماس؟

نعم يا سيدي، كثير من الناس يحتفلون اليوم بذكرى سنوية لطوفان نوح (عليه السلام) ومكان جوديداغ يقع في هذه المنطقة. يقال عنه أن هذا هو المكان الذي كانت قد رست فيه سفينة نوح (عليه السلام) بعد الفيضان. والبعض الآخر يقول أن جبل أرارات هو الذي كانت قد توقفت فيه سفينة نوح (عليه السلام). في السنوات الأخيرة نال جبل أرارات مزيداً من السرية إذ إن بعض الطوائف النظرية قامت بدعاية كبيرة عن اكتشاف السفينة على قمة جبل أرارات بل قاموا بعمل أفلام عنه وهكذا نال السياح مكاناً جديداً للزيارة.

فهل جبل جودي وجبل أرارات منطقتان مختلفتان؟ سألت مصطفى أوغلو.

نعم، إنهما منطقتان مختلفتان وبينهما مسافة تصل إلى مائتي ميل لكن مع أنهما تدخلان في سلسلة جبلية واحدة ولهذا تعتبران منطقة واحدة. وإن كان جبل قاسيون ليس أقل أهمية من ناحية الأسرار. يقال أنه على سفح قاسيون تستجاب الأدعية بسرعة. وفي الزمن القديم كان الحكام يأتون إلى جبل قاسيون لطلب نزول المطر.

سمعت أن كهف أصحاب الكهف أيضاً يقع في هذه المنطقة؟ نعم، وقد ذهبت إلى هناك مرة والآن بعد توسع العمران وانتشار المباني السكنية بكثرة لا يوجد هناك أي إحساس بالسرية ولكن المسجد ذا الأربعين محراب وآثاره تنشط الأرواح إلى حد ما في القصص المحلية. وقريباً من هناك توجد مغارة الدم ويقال بشأنها أن أول جريمة قتل في تاريخ البشرية قد وقعت فيها. ولعل استغفار قابيل جعل هذا المكان مستجاباً للدعوات.

حسناً، ولكن هل فكرت في يوم من الأيام لماذا تقع معظم مراكز الروحانيين وخانقاهاتهم على الجبال بصفة عامة.

على هذا السؤال غير مصطفى أوغلو هيئة جلسته وبدأ يقول: إن الأنبياء (عليهم السلام) كان لهم أنس خاص بالجبال فقد رست سفينة نوح (عليه السلام) في الجودي وأصحاب الكهف لجأوا إلى غار الجبل وموسى (عليه السلام) ذهب إلى جبل طور للقاء الله. وجاء أول وحي إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء، وأصبح غار ثور مأوي له في الوقت العصيب. ومعروف بشأن جبل أحد إذ قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنه «**أحد جبل يحبنا ونحن نحبه**». وبسبب هذه السرية التاريخية للجبال جعلها الروحانيون مساكن لهم. خذ على سبيل المثال جبل أولوداغ هذا مرتبط به تاريخ طويل من الأسرار فاسمه القديم «**مسيون أولمبس**». يقال إن الآلهة والآلهات الإغريقية كانت قد شاهدت من هنا حرب الطراودة وكانت أديرة الرهبان المسيحيين في عصر الخلافة العثمانية موجودة هنا وبالمناسبة فإن الإسم الثاني لهذا الجبل هو «**كشيشداغ**» أي جبل الراهب، وقبل ١٩٣٥م كان أولوداغ يعرف بهذا الاسم.

معنى ذلك أن علمانية كمال أتاتورك لم تترك جبال الرهبان أيضاً.

نعم، معظم أجزاء هذه السلاسل الجبلية تُعرف بمنتجعات شتوية ففي فصل الشتاء يتجمد الثلج هنا لعمق ثلاثة أو أربعة أمتار. وهواة التزحلق على الجليد يأتون هنا من أنحاء العالم بكثرة ويتحول هذا التجمع إلى نوع من الاحتفال.

إن ميناء جوزي ليالي كان قد اقترب الآن وخضرة الساحل وحرارة الشمس الساطعة والرعد والرياح وألوان الطيف والأعاصير والمناظر الطبيعية الخلابة التي تغطي الجبال، فكل هذه العناصر كانت تمنحنى البهجة والسرور. بعد قليل كنا قد وصلنا إلى وسط وقلب مدينة بُرسا وبالتحديد وصلنا إلى المسجد الجامع المعروف بأولو. على عتبة باب المسجد كان في انتظارنا شيخ متصوف. بدا لي من تصرفاته كأنه إمام

هذا المسجد وعرفت فيما بعد أنه الأخ الروحي للإمام جاء من إزمير وهو يرتاد هذا المسجد باستمرار. قابلنا بكل حرارة وحماس وكانت الساعة العاشرة صباحاً تقريباً والمسجد كان خالياً من المصلين وفي داخل المسجد وبالتحديد في القاعة المركزية كانت هناك نافورة وصوت سقوط المياه كان يحدث نوعاً من اللحن الطبيعي في وسط هذا السكوت للمسجد. جلسنا على السجادة قريباً من النافورة مسندين ظهورنا على الحائظ والشيخ سعود ظل يسأل عن أحوال السيد هوجا عثمان وبعد الحين والحين كان يشكرني على قدومي هنا واللقاء به. قال لي إنه مريد للشيخ حمود منذ سبعة عشر عاماً والشيخ عبود نفسه من أهل جبل قاسيون، ومرّت سبع سنوات وأنا أذكر كل يوم بدون انقطاع واحداً وعشرين ألف مرّة نفي إثبات وسبعة آلاف مرة اسم الذات لكن هناك حسرة أريد أن أشاركك فيها حيث إن السيد هوجا عثمان يقدر مكانتك الروحانية والعلمية.

بعدما سمعت هذا الكلام من الشيخ سعود أصبحت قلقاً على نفسي إلى حد ما فلعله يريد اختبار دروشتي ولكنني قلت له: تفضل يا شيخ ماذا تريد أن تقول؟ إنه لإعزاز لي أن أثق في واحد مثلك من أولياء الله. ظل مركزاً عيناه على النافورة للحظات ثم قال: علمني وظيفة مجربة لمشاهدة رسول الله (ﷺ) وإن كان قلب كل شخص بمثابة آلة مختلفة عن الآخر ولهذا يقرر الشيخ الوظيفة والأدعية كل حسب طبيعة هذه الآلة لكن حضرتك قطعت المراحل العليا للسلوك والتصوف في سن صغيرة ولهذا أبديت لك ما في قلبي بدون كلفة.

إنه كان مأزقاً حقيقياً لأنني عازم على السفر إلى أولوداغ وفي زي الدروشة فكان لا بد لي أن أقدم العون للشيخ سعود لأنه كان لي بمثابة واجب روحي. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ما كنت أريد أن أستعمل أي

مداهنة في هذا الشأن. سكتُ للحظات ثم قلت له: لا تحمل أي هم يا شيخ إنني سأعلمك وظيفة يمكنك أن تسميها الدعاء فلديّ دعاء للكشف وهذا الدعاء كان يجري على لسان رسول الله (ﷺ) فعليك أن تكثر من هذا الدعاء وإن شاء الله ستنكشف لك الحقيقة. ثم أخرجت من جيبي قصاصة ورقية وكتبت عليها هذا الدعاء «**اللهم أرني الأشياء كما هي**».

هل عليّ أن أدعو أكثر من مرّة هذا الدعاء؟ سألني الشيخ سعود.

ليس هناك شرط العدد ولكن لا بد من استحضار القلب وفي هذه الحالة سيكون هذا الدعاء نافعاً والله لن يخيب رجاءك.

ظهرت على وجه الشيخ علامات الفرحة وأخرج من حقيبته تميمة صغيرة وبكل احتياط أدخلها في خيط أخضر ثم علقها في رقبتي وقال: «**نظر بوجك**».

حاولت أن أتفحص التميمة، بعدما قلبتها وجدت أنه كانت مرسومة عليها خامات من الأعلي إلى الأسفل وفي الوسط كانت صورة «**ذو الفقار**»، وفي الجوانب الأربعة لهذه الصورة كانت مكتوبة الأعداد المختلفة في دوائر صغيرة. فوق رسم السيف كان مكتوباً «**بسم الله الرحمن الرحيم**» وتحتها كانت محفوراً «**نصر من الله وفتح قريب**». وعلى الجدران للمداخل الأربعة كان مكتوباً «**يا علي**» و«**يا مظهر العجائب**» وفي الجزء الخارجي كانت مكتوباً سورة الفاتحة، وكانت النجوم السبعة والنجوم الثمانية مرسومة في أماكن مختلفة، وفي مكان ما كان مكتوباً «**أراهم**» وكان مرسوماً سلماً نحو السماء وعلى جهة التميمة الأمامة كان مكتوباً باللون الأحمر رقم (١٣٢).

في بداية الأمر فهمت أنها اهتمام شخصي من الشيخ سعود ثم عرفت فيما بعد أن هذا الإهتمام والرعاية الخاصة بتوصية من السيد هوجا عثمان.

انشغلنا في الكلام حتى دقت الساعة الحادية عشرة صباحاً، كان الوقت ضيقاً وكان علينا أن نأخذ «**التليفريك**» (عربة كهربائية) للذهاب إلى أولوداغ لكن الشيخ سعود كان مصرّاً أن نستمتع بتناول الكباب الإسكندارني لأنه طبق خاص لمدينة بُرسا. إن هذا الكباب الإسكندراني مثل الشاورما في مذاقه لكن الشكل مختلف. وبعدما فرغنا من ضيافة الشيخ بشكل من الأشكال وصلنا بسرعة إلى محطة التليفريك حيث كان ازدحام المسافرين شديداً. حصلنا على تذاكر التليفريك وبدأنا نستمتع بالمناظر الخضراء الخلابة لمسافات بعيدة. بالقرب مني كان هناك إعلان عن ياني كابليكا وكان قد جاء فيه أن هذا الحمام على الطراز الروماني يقدم خدماته منذ ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين وفي الإعلان جاء أيضاً أن زيارة بُرسا بدون الذهاب إلى هذا الحمام العريق تكون ناقصة فتعالى هنا وارجع بنشاط جديد وأمنيات وأحلام جديدة للحياة. قلت لمصطفى أوغلو إن الصفقة ليست خاسرة لو عادت الحياة إلى نشاطها من جديد بخمسة عشر يورو. قال لي مصطفى مشيراً إلى زي الدروشة: لست في حاجة إليها لأنك الآن مع أولئك الذين يحيون الموتى بكراماتهم ويقطعون مسافة آلاف الأميال عن طريق طي الأرض في غمضة عين.

وأنا هنا قلق في انتظار التليفريك قمت بإضافة هذه الجملة على كلامه الكبير في شأني.

حدث فجأة هرج ومرج في محطة التليفريك الهادئة. بدا كأن المحطة كلها استيقظت ففي جانب بدأ الناس ينزلون من التليفريك القادم والبعض الآخر بدءوا في أخذ أماكنهم في التليفريك الذاهب من جانب آخر. مصطفى أوغلو حجز لنا أماكن في المقاعد الخلفية في ضوء تجاربه السابقة كي نستمتع بشكل كامل خلال السفر بالمناظر الطبيعية الخلابة. ما شاء الله ولا قوة إلّا بالله إن مدينة بُرسا وضواحيها كانت مغطاة بالخضرة

الجميلة على مدى البصر. فكلما بدأنا نتجه نحو أولوداغ بدأ رفع الستار عن عظمة الله سبحانه وتعالى والحقيقة الواقعية له في هذا الكون. بعد قليل كان قد توقف التليفريك في مكان يسمى «**كاديالا**». والمحطة القادمة كانت «**ساريالان**» حيث كان علينا أن نستقل سيارة الأجرة كي نذهب إلى مركز كاروان سراي أولوداغ. كانت عندنا ساعتان أو ثلاثة ساعات ففكرنا أن نستغل هذا الوقت لأخذ قسطاً من الراحة في الفندق.

٢٧

في مجلس قطب الأقطاب

وفي الساعة الخامسة مساء جاءت فتاة تركية إلى الفندق ومن الزي والأسلوب كانت تبدو من طاقم الفندق لكنها كانت قد جاءت من الخارج وهي تستفسر عني في مكتب استعلام الفندق وبمجرد رؤيتها لي تقدمت نحوي وقالت بابتسامة أخاذة: «**نظر بوجك**». قلت رداً عليها: «**نظر بوجك**». كانت على كتفها علامة «**نظر بوجك**» الخضراء مثلما كانت هذه العلامة معلقة في عنقي. ألقت عليّ نظرة ثم أشارت إلى أن أتابعها في السير. بدأت أسير معها مرة بين الأشجار ومرّة على الممشى ومرّة على الممر واستمر هذا السير لفترة. كان الجو لطيفاً ومجموعات السياح كانت منتشرة في أماكن مختلفة والفتاة كانت تسير بسرعة شديدة. كانت تمشي بخفة كالغزال أما أنا فدرويش معصوم. في خلفية أولوداغ العارفة بالله لم يكن هناك أي انسجام بين فتاة تركية في زي غربي وبين درويش يجري وراءها، لكن قد اتصلت «**نظر بوجك**» بـ«**نظر بوجك**» وحالفني الحظ، ولم يكن قد بقي إلّا خطوات لحضور الدرويش هذا مؤتمر قطب الأقطاب. عندما أحست بحيرتي ودهشتي قامت بتهدئتي وبعد قطع مسافة في الصعود إلى منطقة مرتفعة بدأت تنزل إلى الأسفل بانحدار والآن عندما ألقيت نظرة إلى الوراء فكان الميدان الفسيح لأولوداغ قد غاب عن الأنظار.

كنت أرى في الأسفل باباً لخيمة كبيرة كانت منصوبة وعليها علامة «نظر بوجك» وطريق النزول إلى الأسفل كان ضيقاً جداً وفي الغالب كان هناك باب للأمن ولم يكن هناك مفر لأي شخص أن يعبر هذا الطريق الضيق دون المرور بهذا الباب. الباب كان مغلقاً، الفتاة أشارت إلى أن أتقدم أولا. فلم أفهم شيئاً ثم تذكرت الشريحة الإلكترونية المثبتة خلف «**نظر بوجك**». اقتربت من الباب فمع الصوت الالكتروني ظهرت الإشارة الخضراء وانفتح الباب. في الداخل كان هناك جناح كبير للاستعلام حيث تتواجد فتيات تركيات مثلها وكن يرتدين علامات «**نظر بوجك**» وكن مشغولات في الترتيب والتنظيم. تقدمت نحوي فتاة وأخرجت الزر الذي كان تحت التميمة بعد الضغط عليه، أما الخيط فظل معلقاً في عنقي وكانت معها رزمة من الأوراق وكان في خانة الرقم (١٣٢) نفس الشكل المرسوم على التميمة. أخذت مني هذا التميمة وألقتها في سلّة كبيرة وعلى الورقة أشّرت بعلامة تفيد الحضور وأشارت إلى أن أتقدم نحو الخيمة.

في مختلف المكاتب رأيت مزيداً من الدراوشة أمثالي لكن قبل أن أسلّم على أحد أخذتني مضيفتي وأوصلتني بسرعة البرق إلى الخيمة المخصصة للمؤتمر. وهنا كان عليّ أيضاً أن أمر بباب الأمن. كنت أعتقد أن هذا الباب أيضاً سينفتح بعلامة «**نظر بوجك**» وعلى هذا دخلت بكل جرأة وبمجرد ما انفتح الباب قالت سيدة مضيفة مبتسمة من الجانب الآخر «**نظر بوجك**» وبسرعة شديدة أخرجت الزر بعد الضغط على العلامة من الخلف ثم بقي مرة أخرى الخيط معلقا في عنقي ثم أجلستني على مقعد حسب البرنامج المتفق عليها وودعتني.

والآن بدأت أتفقد الخيمة فعرفت أن هيئتها وشكلها مثل المسرح المفتوح المعلق في الهواء وبسبب ارتفاع وانخفاض المنطقة الجبلية كانت كراسي المتفرجين تبدو وكأنها واقفة وفي الأسفل كان الرصيف

خالياً وفي المقابل هضبة جبلية مرتفعة إلى حد ما والتي خصصت لإقامة المنصة وخلف المنصة كانت هناك شاشات بيضاء كبيرة على جانبي المنصة وفي المنتصف تقريباً وفوق كل شاشة على الجانبين كانت هناك مشاعل كبيرة متقدة ولعلها كانت تبعث الضوء والدعم في آن واحد. وفي قاعة العرض المفتوحة كانت هناك مشاعل صغيرة معلقة من مكان إلى مكان وكان الجو شبه مضيء أما المشاعل الكبيرة التي كانت موضوعة بالقرب من المنصة فكانت تعطي مظهراً للجاه والجلال وفي هذه الخلفية كان يبدو أن الذين سيجلسون على هذه المنصة وكأنهم محاطون بالسرية والنور.

شعرتُ أن افتتاح المؤتمر قد أوشك لأن القاعة كانت قد امتلأت بالمشاركين من الأعلى إلى الأسفل. وفجاة ظهرت على الشاشة مع لحن المزمار دوائر بألوان مختلفة. تلك الدوائر كانت تنقص وتزيد وتتسع وتنكمش، ثم تم عرض منظراً لضوء ساطع مع الرعد والبرق ثم خيم الظلام على المؤتمر، ووقتئذ رفع شخص جالس على المنصة تكبيرة «**الله أكبر**» بطريقة المجاذيب، وبمجرد ما ارتفعت كلمة «**هو**» بدأ ترديد صوت «**هو هو**» من الجهات الأربعة بصوت مرتفع. وفي هذه الأثناء انضمت الآلات الموسيقية في سيمفونية «**هو**» وبعد قليل تغير هذا اللحن إلى «**اللهم صل على**»، ثم تليت الآية القرآنية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، ولمدة ثمانية أو عشر دقائق استمرت التلاوة لمختلف الآيات القرآنية وبدأت تتصل بالآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ آيات مختلفة. وانتهت التلاوة على آية النور وبعد ذلك أصبح الجو مفعما بهتاف «**يا نور يا نور**». وفي الختام استمرت الصلاة والسلام على طريقة خواجات في سبعين سلسلة وطريقة للتصوف واستغرقت هذه العملية نحو نصف ساعة.

على أن البرنامج كان قد بدأ بمجرد جلوسي على مقعدي وبعد ذلك انتهت سيمفونية الموسيقى ومر هتاف «**يا نور**» الذي شغلني ولذلك لم

أستطع في البداية استعراض الجو بالكامل ولكن بعدما توقفت هذه السلسلة من الهتافات والصلاة والسلام بدأت محاولة تفقد أطرافي. وإلى الآن العيون كانت قد تعوّدت على الجو شبه المظلم ولكن على الرغم من هذا إن وجوه وبشرة الشخصيات الموجودة على المنصة لم تكن واضحة وذلك بسبب المسافة وبسبب الضوء المخالف للمشعل وكذلك بسبب وجود شبه الظلام على الجزء النصفي من المنصة ولكن كل ما عرفته أن المنصة عليها سبعة كراسي وعليها أقطاب سبعة أقاليم في ملابس صوفية مختلفة ولكن شخصاً واحداً منهم كان كرسيه على يسار قطب الأقطاب كان في بدلة على طراز غربي وكان حليق اللحية والشارب. أما كرسي قطب الأقطاب فكان مميزاً إلى حد ما وكان على رأسه طاقية ذات جوانب مرتفعة، كذلك كان يبدو من بعيد كأنه مرصع بأحجاراً ثمينة وكان يشع النور من مقبضة عصاه خاصة عندما كان يديرها إلى زاوية ما وبمجرد مشاهدتها يتذكر الواحد منا الكرامات التي تحكي عن الشيوخ كيف كانوا يستخدمون عصاهم في الظلام للإضاءة والنور.

إدارة المؤتمر كانت في يد قطب الأقطاب والآن جاء دور إلقاء الخطبة الرئيسة. نهض من مكانه نفس القطب الذي كان جالساً بجانب قطب الأقطاب وهو في زي غربي. جاء إلى المنصة. أولاً أصلح النظارة بيد وأمسك نسخة الخطبة بيد أخرى ثم وضعها أمامه. ألقى نظرة على الحضور وقال: يا علي مدّد. ورداً على هذا الهتاف جاءت أصوات بهتافات مختلفة. فمن بعض جوانب المؤتمر جاء هتاف «**حيدري حيدري**»، وفي الصفوف الأولى بدأ بعض الناس يهتفون هتاف «**علي**» وهم يقفزون ويثيرون الصخب لفترة وجيزة ثم تحولت الأجواء إلى فوضى، وعندما هدأت الأجواء وانتهت الضوضاء والفوضى بدأ الخطيب الفاضل بإلقاء خطبته. قال: أيها الشيوخ والأصدقاء إنه من كرم سيدنا على أننا نجتمع اليوم مرّة أخرى على أرض «**لستم بوخ**» بعد مضي أربعين سنة

لنعقد بها اجتماعنا السنوي. «**لستم بوخ**» هذه نحبها وتحبنا. إنها لمصادفة عجيبة أن إلقاء الخطبة الرئيسية قبل أربعين سنة كانت القرعة قد خرجت باسمى ووقتئذ كنت شاباً وكثير من الشيوخ نظروا إلى العديد من اقتراحاتنا بنظرة حيرة وقلق ولكنني شاكر لأولئك الشيوخ الذين قبلوا بعض مقترحاتنا على الرغم من اعتراضهم. وقتئذ كنت قد عرضت على المؤتمر بكل حزم وشدة هذا الأمر وهو أنه من الضروري جداً للحفاظ على مستقبل المشيخة بأن يتم اتصالها بأعمال خيرية واليوم أريد أن أعيد نفس الكلام فقد ولى اليوم الذي كان الناس يسيرون وراءنا معتمدين على فيوض وبركات أصحاب القبور. اليوم إن أردنا أن نعيش فعلينا أن نعطي الفيض صورة حية وملحوظة بنشر شبكة للمدارس والمؤسسات الخيرية. ومن وراء خدمة الأدب والشعر والموسيقى ومن وراء تنمية الحضارة الإسلامية علينا أن نرفع فضائل آل بيت الأطهار ونجعل هذه الفضائل تتغلغل في كل مكان. إنه يسرني أن أخبركم أن الحركة الصوفية واكبت متطلبات العصر الحديث وكثير من شيوخ القبور ومجاورو الزوايا ومساعدهم قرروا أن ينفقوا جزءاً من دخولهم على الأعمال الخيرية. وفي بعض الدول انتشرت هذه الرسالة من خلال المؤتمرات وهي أن تقام مع كل زاوية وخانقاه مدرسة أو مؤسسة تعليمية كي يتم تخفيف اعتراضات الناس على أهل الصفاء إلى حد ما في قبول النذور والقرابين.

تذكروا دائماً أن الدنيا تتغير بسرعة والآن لا نستطيع أن نحافظ على ثقتنا إلى الأبد بارتداء الجبة والعمامة أو الدعاء باعتبار أننا من آل بيت الرسول (ﷺ) فنحن لا نستطيع أن نجبر الناس على اتباعنا لأننا من السادة الأشراف ومن آل البيت في الوقت الذي تدين الدنيا بالعنصرية. لكن عن طريق الأعمال الخيرية وخدمة الخلق نستطيع أن نروض نزعتهم المتمردة.

أتيت بخبر سار في مؤتمركم هذا بلستمبوخ وهو أننا بتعاون ودعم بعض حكومات آل البيت حاولنا أن نضم فهارس لبعض الجامعات الغربية التي تهتم بإشراكنا أيضاً مع الشخصيات العالمية المؤثرة. حتى الآن هناك حكومتان فقط في الدنيا تصل علاقتهما بسلسلة آل البيت فعلينا أن نسعى لتوسيع هذه السلسلة. كذلك ازدادت علاقة مشايخنا ببعض الحكام. وفي أماكن أخرى نتوقع نجاحات كبيرة. إنني أريد أن يأخذ هذا الموضوع مكاناً متميزاً في البرامج والخطط القادمة.

عليكم أن تعرفوا جيداً أن الغرب له أهمية كبيرة لنا، ليس لأن تأثيره منتشر في الدنيا كلها فحسب بل لأن الغرب يوجد فيه جو عام للرؤى غير العقلانية وغير السببية. وعلى هذا هناك قبول كبير للتصوف والقبالة والتنجيم وأمثال هذه الأشياء. إننا سعداء على أننا استفدنا كثيراً من هذا الجو خلال الأربعين سنة الماضية لكن مازالت هناك أعمال كثيرة في انتظارنا. إنني معترف منذ البداية أن التعليم الغربي ليس مغايراً لأهدافنا بل أن التعليم يترك ثغرات روحانية وهنا يبدأ عملنا فلنا إمكانيات كثيرة للعمل والشرط الوحيد هو أن نستغل هذه الإمكانيات والفرص.

هناك تخوف من انتشار الفوضى في الشرق في المستقبل القريب وعلينا أن نعرف أن نعرات وأفكار الجمهورية والحرية والديمقراطية متعارضة ومخالفة لأهدافنا. علينا أن نفكر بجدية في هذه الحركات الناشئة تحت الأرض. أتوقع أن يتم بحث هذه الأمور بكل حرية في الجلسات المعلنة.

وهناك أمر آخر أريد أن أوجه إليه عنايتكم وهو يتعلق بالهيكل التنظيمي الجديد للتصوف. إن بعض الطرق الصوفية قد أقامت واجهة جديدة على الطراز الغربي في بداية القرن العشرين ونتيجة لهذا قد زاد عدد معتقدينا بصورة مرضية وسرت تعبيرات صوفية للدين في عرف

وأوردة عامة الناس لكن في نفس الوقت إنها لحقيقة أيضاً أن حاملي الدين هؤلاء ليس واضحاً لهم بشكل جلي أن مسؤوليتهم الأصلية هي توسعة الحركة الصوفية ولهذا يوجد هناك تخوّف كبير أن يقوم شخص ما يريد أن يختبر خطة أو حركة إصلاحية تقوم بتوجيه هذا الجمع الكبير المغيب إلى وجهة مختلفة مغايرة عنا. وفي هذا الشأن لا بد من تخطيط محكم.

هذا وأن هناك نقطة أخرى يجب على أن أوجه عنايتكم إليها مع العلم أن بعضكم يستطيع أن يختلف معي في هذا الأمر. هو أنني أري أن بعض الأوساط قد قامت بدعاية كبيرة في السنوات الأخيرة لظهور المهدي. والواقع أن بعض الناس ينتظر ظهور المهدي بشدة مع تحديد السنة والشهر واليوم. هذا الحال يمكن أن يتحول إلى إساءة عامة لنا وإنني أريد أن أقول لكم مرّة أخرى أن ذاك اليوم ولى وتولى عندما كنتم تسيطرون على قلوب عامّة الناس باسم الأساطير والجبة والعمامة وقبل هذا وذاك باسم آل البيت. والآن الإصرار على هذه الإستراتيجية القديمة يمكنه أن يتحول إلى خراب ودمار. لو أرادت الحركة الصوفية أن تبقى حيّة والمنتسبون إلى آل البيت يظلوا في قبضتنا فلا بد لنا أن ندرك متطلبات العصر الجديد.

الخطبة الرئيسة للقطب النوراني مولوي إسماعيل كانت قد انتهت على هتاف «**يا علي مدد**» لكن هذه المرة لم يكن نفس الحماس من الحضور كما حدث في الأول فلم يرتفع هتاف علي ولم يحاول أحد القفز الفقيري ولكن أثناء إلقاء الخطبة كان يسمع بين الحين والحين لفظ الجلالة «**الله، الله**» والذي كان بمثابة إظهار الرأي المخالف بصورة حضارية بدلاً من التأييد.

والخطبة الثالثة كانت لقطب آخر الزمان آية الله المجتهدي. إنه أبى بجلاء اختلافه مع السيد إسماعيل بشأن الملابس الصوفية وقال: لا يجوز

لنا أن نحس بالدونية بشأن الملابس فجميع كراماتنا ومعجزاتنا الروحية قائمة على الجلباب والعمامة وهي من سنة أسلافنا وتركها انحراف عن طريقة وسلوك أهل الباطن بل يكونوا غدراً وتمرداً أيضاً. ثم أردف قائلاً: إنني أوصي الخطيب الفاضل أن يلاحظ شخصيته النورانية في ملابس أهل الباطن وأن يختار له اللحية المباركة مثل سلفه الصالح فليس في المرآة فقط بل سيحس خارجها أيضاً كأن هالة نورانية للقداسة قد تشكلت حوله. إنه لحق نحن أهل الباطن والتركيز على الظاهر ليس من شعارنا لكن لالتفاف عامة الجمهور إلينا لا بد من اختيار الملابس والعادات والتقاليد الروحية.

ففي تاريخنا الطويل الذي يمتد قرابة ألف عام قد أدى الزي دوراً هاماً وإلى يومنا هذا يحتل مكانة كبيرة في أعيننا.

أيّد الحضور بحماس شديد كلام قطب آخر الزمان هذا وبدأ يدوي في المؤتمر لفترة هتاف «**يا علي يا علي**» وعندما هدأت الأجواء قال قطب آخر الزمان: أيها المستمعون الكرام، لا ينبغي لنا أن ننسى هذه النقطة وهي أن هذا الدين كان ديناً عادياً بدون العرفان والتصوف فنحن الذين جعلنا هذا الدين جذاباً بإدخال عنصر العرفان وجعلنا عامة الناس يقبلون عليه ومكننا هذا الزي الروحاني أن يكون لنا نفوذ ورسوخ في نفوس عامة الناس وهذا هو حال الأسطورة المهدية تقريباً التي تقوم بعلاج القلوب المريضة منذ قرون. وهذا صحيح وحق أن الهواء بدأ يخرج من هذه البالونة بسبب الانتظار الطويل وخروج مهديين مزورين في مختلف العصور في الماضي، لكن في نفس الوقت إنها لحقيقة أيضاً أن المؤمنين بعقيدة ظهور المهدي والمنتظرين له اليوم أكثر بكثير مقارنة بالماضي. والآن الأمر الذي يستحق منا التفكير والتأمل هو كيف نطيل هذه الأسطورة. إنني لست رافضاً لضرورة الاجتهاد الجديد لكن شطب أسطورة المهدي بجرة قلم يكون تمرداً على تاريخنا النظري. تذكروا لو

دخل شيء واحد في دائرة الشكوك والشبهات فتصبح المجاهدة والمكاشفة والتوكل وطي الأرض والطريقة والحقيقة كلها علامات استفهام. ولهذا لا بد من التفكير الجاد قبل أي تغيير استراتيجي كبير. أرجو أن نفكر في هذه الأمور ملياً في جلستنا المفتوحة وأرواح شيوخنا المقدسة معنا بل أن أنظارهم وأبصارهم على المستقبل. نأمل أن نراعيهم بقدر المستطاع. والخطاب الرابع كان للقطب الروحاني سلطان الأولياء الشيخ هاشم. أما المشكلة التي واجهتني هنا هي أن خطبته كانت باللغة التركية ومعرفتي بالتركية كانت بسيطة جداً وبالإضافة إلى ذلك لعله لم يكن قادراً على أداء الكلمات بصورة كاملة وترتيب وتنسيق الجمل لم يكن جيداً نظراً لكبر سنه. يتكلم جملة وجملتين ثم يتوقف، ثم يتحدث بأسلوب آخر كأن هذه الكلمات تنزل عليه. وخلال الخطبة اغرورقت عيناه بالدموع أكثر من مرة كلما جاء ذكر أهل البيت، وذكر أكثر من مرة المهدي المنتظر وكلما كان يذكر المهدي كان ينظر إلى السماء بنظرة كلها أمل في اقتراب ساعة نزول المهدي.

في خطبته ورد ذكر رئيس الوزراء بتركيا والشيء الذي جعلني في حيرة شديدة أنه على لسانه جاء ذكر جامعة عليكره وجماعة التبليغ والدعوة أكثر من مرّة. ومن خلال هذه الخطبة الطويلة التي استغرقت نصف ساعة من الزمن لم أفهم إلّا شيئين، الشيء الأول هو أنه في الوقت الذي بدأ النقشبنديون سيطرتهم على الحكومة في الخفاء فليس من المعقول ولا من الحكمة إحداث الجلبة على ظهور المهدي. وأوضح سلطان الأولياء أن الإيمان واليقين بأسطورة المهدي شيء وما يثار من الفوضى حوله في وقت غير مناسب شيء آخر. أكد أيضاً على ضرورة مراجعة الموقف في هذا الشأن. والشيء الآخر الذي كان لي اهتمام خاص به هو أن جاء على لسانه اسم جامعة عليكره الإسلامية. إنني لم أفهم الأمر برمته ولكن الذي استطعت تقديره هو أن شخصاً ما كان

يحتل منصب القطب قد تم حرمانه بسبب السياسة الداخلية للروحانيين وكان سلطان الأولياء قلقاً عليّ هذا الإجراء. كان يعتقد أنه سلب لحق الطريقة النقشبندية وكان محتجاً على هذا السلوك بشدة. وأردت أن أعرف الموضوع بصورة كاملة لأن القضية خاصة بجامعة عليكره ثم إن اللغة لم تكن واضحة ولذلك أردت أن أسأل عن خلفية هذه القصة لكن المشكلة التي كانت تمنعني من الاستفسار هو أننا كنا جالسين في شرفة تشبه الكابينة ولذا لم يكن هناك فرصة لتبادل الآراء مع شركاء الجلسة. وأتذكر هنا أنه حدث لي قبل بضع سنوات الجلوس في مثل هذه الكابينة بالمسرح التاريخي بفينيسيا فكانت تبدو لي هذه الجلسة مبعث اعتزاز وشرف لكن كابينة اليوم كانت تبدو لي نوع من الحبس الانفرادي.

الخطبة التالية كانت باللغة الأردية شبه البنجابية. في هذه الخطبة أبدى الخطيب خلافه مع سلطان الأولياء بكل وضوح فالأمور التي لم أكن قد فهمتها جيداً بسبب اللغة التركية فهمتها الآن من خلال خطبة بحر العلوم باللغة الأردية واتضحت لي الأمور التي كانت غامضة.

إن القلنسوة البيضاء ذات الجوانب والشال الأخضر المسدول على الكتف كان مناسباً جداً لجسم بحر العلوم الضخم ولم يكن يمسك عصاً خفيفة كالخطباء الآخرين بل كان يحمل عصاً غليظة طولها لا يقل عن ستة أقدام. والآن بعدما رفع هتافه قائلاً: يا علي، ورفع عصاه في الهواء بدا كأنه في ميدان المعركة وليس على المنصة.

في أول الأمر تحدث عن خدماته الجليلة بتفويض من مشايخ المؤتمر ثم أبدى غضبه الشديد على منح شيوخ النقشبندية حق مبايعتهم لمريدي الأوساط القادرية، وبسبب التدخل في دائرة الأثر للآخرين تتولد منافسة تجارية ولا بد من الانتباه إلى هذا الأمر بعناية شديدة، وقال: سبب هذه المنافسة هو أن أهل الصفاء قد فوضوا شخصاً واحداً بالمبايعة في

وقت واحد بأكثر من طريقة ولكن لو لم يتدخل أحد في طريقة الآخرين فأهل الصفاء في هذه الحالة يزدادون وقاراً اجتماعياً.

بقي أمر جامعة عليكره والذي بشأنه وبسبب عزل صاحبه نجد سلطان الأولياء قلقا بشكل بالغ، فحقيقة هذا الأمر أن تعيينه نفسه كان خاطئاً مطلقاً، ففي الهيكل التنظيمي لا حق لأي جماعة أو مؤسسة حيث لا يكون الالتزام بالمبايعة على مستوى عامة الناس. ثم قال: نحن نحسبهم متتلمذين على الطريقة النقشبندية وعندهم الخواص يفدون المبايعة برقابهم وهذا صحيح أيضاً أن هؤلاء قدموا إنجازات كثيرة في ترويج المذهب النقشبندي على مستوى عامة الناس كما قاموا بنشر قصص الكشف والكرامات بين الناس وعرفوا الناس بأمور كشف القبور وزيارة الرسول (ﷺ) ومشاهدة الحق وطي الأرض ووهب الثواب على مستوى كبير جداً، فها نحن نعترف بخدماتهم هذه علانية وبقلب مفتوح وكذلك هذا حق أيضاً أن اجتماعاتهم السنوية تكون أكبر بكثير من أي مولد من الموالد (العرس)، بل بدأ الناس يقارنون هذا التجمع الكبير بتجمع مني وعرفات أيام الحج. لكن مادام عامة الناس لا يرتبطون بطريقة البيعة فنحن لا نستطيع أن نحسبهم جزءاً من هيئتنا التنظيمية ولهذا أنا أفهم أن الجلوس على كرسي القطب ليس من حقهم على الأقل.

في الصفوف الأولى للحضور كان نظام الترجمة الفورية مهيئاً وموجوداً بكل تأكيد لأن كثيراً من الناس كانت لديهم السماعات وعلى هذا فعندما انتهت خطبة بحر العلوم باللغة الأردية البنجابية جاء رد فعل متفاوت من الحضور من ناحية وعلا صوت «**أحسنت أحسنت**» والبعض رفع هتاف «**يا علي**» ومن ركن آخر جاء صوت «**خطأ خطأ**».

أما الخطيب القادم فقد جاء من البلد الأمين وهو القطب المكاني وسلطان المشايخ وسالك العلوي. جزء كبير من خطبته كان مركزاً على

الشكاوى ضد الوهابيين وبدأ لسانه يبث السموم ضد الفتنة النجدية ولكن الأمر الذي استوقفني في خطبته هو اعتراضه الشديد على دخول السيدات في أوساط أهل الصفاء. إنه قال ما نصه: إن دخول السيدات في الرقص المولوي خارج ومخالف عن تقاليدنا وإن حدث في يوم ما عندنا انحراف فحدث على مستوى الرجال ورحلة العشق الحقيقي كانت تتم عن طريق العشق المجازي ودخول السيدات في محافل الرقص والسماع في الواقع من نتاج أفكار أولئك الذين سحر أعينهم اللمعان الصناعي للحضارة الغربية، **وأضاف أن التحدي الكبير الآن من المغرب العربي إلى ماليزيا هو من جانب المطربين والمنشدين الوهابيين وأنشودة أبي الشعر:**

جـــــل الـــــذي ســــواك   يــا مــصــطــفــى مــحــلاك

أنـــت حـــبـــيـــب الـــروح   روحـــي الــعــزيــزة فـــداك

هذه الأنشودة إلى يومنا هذا تبكي الحضور بحرقة وتحيي في قلوبهم الشوق لزيارة الرسول (ﷺ) وتحت تأثير هذه الأنشودة فإن إلقاء نظرة واحدة على وجه الرسول (ﷺ) لتقلب قلوب الناس وتجعل محافل السماع مضطربة. والآن تواجه هذه الأنشودة خطراً على وجودها بسبب انتشار أناشيد المنشدين الوهابيين وعلى رأسهم المنشدة عائدة الأيوبي التي بدأت أناشيدها تنتشر على مستوى كبير وتجد رواجاً وقبولاً بين الناس وكما تعلمون أن أهل الصفاء أجادوا في الشعر والموسيقى فنحن رفعنا ورسخنا حب الرسول وحب آل البيت في قلوب الناس عن طريق الشعر والموسيقى بلغات العالم الإسلامي المختلفة العربية والفارسية والأردية والبنجابية. وعامة الناس في قبضتنا بسبب الأناشيد والابتهالات والمدائح النبوية وموسيقى الدفوف والمزامير لكن بعض المنشدات الوهابيات الآن مشغولات بتقديم نمط جديد للشعر والمدائح النبوية والبعض منها بدأ يلقى قبولاً عاماً على مستوى الجماهير، فهذا أمر مقلق

للغاية لنا لا بد من الانتباه إليه لأنه لو خرج هذا المجال من أيدينا فلن تبقى مجالس الموالد ولن يكون هناك من يذرف الدمع في حب الرسول (ﷺ) ولن يكون هناك تجمع كبير في مجالس السماع.

قبل أن تخرج هذه القافلة إلى الأمام أفيقوا فمحبة آل البيت بأيديكم واستعدوا لمواجهة التحديات الجديدة.

والآن جاء دور قطب الاقطاب. فبعد قراءة الصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) بدأ حديثه على النحو التالى: «**أعزائى الأحباء: خادم آل البيت والسنة أمامكم وهو يتحدث معكم**». على جملته الأولى هذه بدأ يرتفع صوت التأييد والمساندة بشكل صاخب ودوى في المجلس أيضاً صوت: «**يا غوثاه، يا غوثاه، ويا قطب الأقطاب**». وحينما هدأ المجلس بدأ بإلقاء خطبته الرئيسة بشكل رسمي قائلاً: «**حضوركم في هذا المؤتمر بـ(لستم بوخ) يوجب عليّ أن أشكركم من صميم قلبي**»، كذلك أشكر أقطابي وأعواني الذين قاموا بإبداء آرائهم ونقدهم وتأييدهم وتحليلهم للخطبة الرئيسة ووجود اختلاف في هيكل تنظيمي كبير كهذا علامة صحية لأنه يعيننا أن نفهم وجهات النظر المختلفة. أرجو أن يكون حديثنا اليوم انطلاقة مبشرة ومرشدة لنا في اجتماعنا المفتوح الذي سيعقد غداً. لا تضيقوا ذرعاً لأن خدام آل البيت واجهوا التحديات في كل عصر ومصر. فسواء كان سقوط القاهرة أو الذي نسميه سقوط الموت، وسواء كان سقوط وزوال بغداد العباسيين أو القضاء على ولاية ملتان. إننا بحثنا مجالاً جديداً للعمل في كل لحظة من لحظات الأزمات، ففكروا وتأملوا هل كان يخطر على بال أحد أن حكومة الأمويين الظالمة ستسقط في يوم من الأيام. لهذا الغرض أحيينا نحن علم آل العباس ومن ناحية أخرى أتينا بآل فاطمة بصورة منظمة من شمال إفريقيا وجعلناهم يجلسوا على عرش القاهرة. وهيأنا الظروف لنمو وتقدم آل بويه تحت

اشراف العباسيين أنفسهم. والتاريخ شاهد أن الخلافة العباسية والفاطمية والأموية أصبحت في النهاية خلافات متبادلة لأفكارنا ونظرياتنا وقامت بتوسعة عزائمنا. وحينما لم يكن ممكناً لنا أن نتحمل النظام السياسي فنثرنا بذور الخلافة الروحية، وفي فترة وجيزة أقمنا هيكلاً حكومياً في الخفاء وهو هيكل اللامحسوس. والآن لا تخرج عن تأثيره أي منطقة في العالم أو حكومة سواء كانت في الشرق أو في الغرب.

أعزائي: إن دعوة القرآن الكريم ضد العنصرية والعرقية وحتى الرفض أن يكون هناك أى وجود للأولاد الذكور للنبي (ﷺ)، فموقفه أن محمداً (ﷺ) ليس أباً لأحد من ذكوركم. عليكم هنا أن تشيدوا ببراعتنا اذ قدمنا فلسفة آل الرسول المفترى عليها وقمنا بدعاية كبيرة لفضائل ذرية آل الرسول (ﷺ). ليس هذا فحسب بل قمنا بتقديم أولاد علي وفاطمة (رضي الله عنهما) على أنهم أهل البيت ليكونوا أولاد الرسول وخلفاءه. وإن الدعاية كانت قوية جداً حتى قبل جمهور الأمة أن آل علي (رضي الله عنه) هم بمثابة آل الرسول (ﷺ) والآن أصبحت عقيدة الخمس هى عقيدة مشتركة لجميع المسلمين. ووضع شعراؤنا وأدباؤنا كثيراً من النصوص في مقابل القرآن الكريم بدءاً من كتاب «**راحة القلوب**» إلى كتاب «**حكمة الإشراق**» وفصوص الحكم، وكشف المحجوب وعوارف المعارف وإحياء علوم الدين وآخر كتاب هو المثنوي المعنوي الذي يشتهر بالقرآن باللغة الفهلوية. وكثيراً من أشكال وأنواع هذه الكتب ومجاميع الأوراد والأذكار قدمناها بأعداد ضخمة حتى استطعنا أن نقدم للناس قالباً بديلاً للدين الإسلامي.

أيها الأصدقاء الأعزاء: إننا أوصلنا الرسول (ﷺ) إلى أعلى درجات القداسة جنباً إلى جنب مع الله حتى بدأ حفر لفظ الجلالة في المحاريب مع لفظ محمد (ﷺ) وأكثر من هذا أننا أعطينا هذه الأمة هدية الصلاة والسلام

وقلنا لها أن طلب الاستعانة من الرسول (ﷺ) واستجابة الدعوات مرهون بهذه الصلاة والسلام. ولهذا الغرض اضطررنا أن نُحيي الرسول (ﷺ) في قبره. وانظروا إلى براعة دعايتنا. هناك اليوم عدد كبير من جمهور الأمة الذين يعتقدون أن النبي (ﷺ) والأولياء أحياء في قبورهم ولنا نحن الروحانيين علاقة خاصة بهم. ولقد أقمنا الأدلة على مقابلات وإجراء أحاديث مع الرسول (ﷺ) وهو حي في قبره. وهكذا أثبتنا أن حديث الرسول (ﷺ) يصل إلينا بالاستمرار. وسلسلة نيل الفيوض والبركات مستمرة بشكل مباشر. وأمام براعتنا وتفوقنا تفقد أقوال علماء الظاهر رونقها وبهاءها. في أيدينا سلاح نستطيع أن نبتدع به شرعاً جديداً في أي وقت ونستطيع أن نزين عالم جديداً للتعبير.

لقد أدخلنا أنفسنا في قائمة أولياء الله وقرّرنا أن مقابر شيوخنا مصانع الفيوض والبركات ومن ثم أصبحنا وسيلة وذريعة للفتوحات والنزور. وبمرور الأيام تحولت الحركة الاسكتشافية للقرآن الكريم إلى حضارة القباب والمقابر. ولا يوجد لدى أي منظمة في العالم على هذا المستوى الكبير من المكاتب التي تصل إلى حد الاكتفاء الذاتى بل ولديها حالة من الرخاء. بل أقول إن ما لدينا نحن الدراوشة من رأس مال بأشكاله المختلفة يفوق الحكومات الغنية جداً، ولا يستطيع أحد من المليونيرات أن يقف أمامنا.

الأصدقاء الأعزاء: إن تأثيرات أنشطتنا قبلها الغرب أيضاً ففي سنوات العقود الاخيرة ما ساد في الغرب من الأمور اللاعقلية والأوهام لستم على جهالة بها. فما لقى بالقبول في المراكز الصوفية والتنجيمية وما لاقى أيضاً مدربو اليوجا والمنجمون من القبول العام نتج عنه عالم جديد من الإمكانيات لنا. علينا أن نستغل هذه الظروف ونستفيد بها قدر الإمكان. إن الأيام القادمة ستسود فيها الفوضى وتزداد الأخطار، لكن علينا ان نبحث

عن مجال للعمل في مثل هذه الظروف العاتية. في حديثنا لهذا اليوم أحب أن أهمس في آذانكم بأمرين اثنين فقط. الأمر الأول هو أن نجاحاتنا ستتركز في الأيام القادمة في الغرب أكثر من الشرق، في اللحظات التاريخية التي تنبأ لها متخصصو الاقتصاد والسياسة أن الشرق سيتقدم ويصل إلى قمته. في هذه الحالة يجب أن يكون تركيزنا على الغرب أكثر من الشرق وسببه هو أن كل مجتمع حينما يقترب من الانحطاط والسقوط تزداد امكانيات النفوذ والنجاح بنفس القدر. ولكن ليس معناها أننا نتهرب من الشرق فالشرق قطعتنا الغالية وحصننا الحصين. علينا أن نحافظ عليه ونعززه في كل الأحوال.

لغزو الغرب وتعزيز قبضتنا في الشرق تم مؤخراً وضع خطة للحوار بين الأديان وبدأت الخطة تؤتى ثمارها. إن الأيام القادمة ستشهد تشكيل طبعة جديدة للروحانية المقبولة لدى عامة الناس باستخدام المزيج الروحاني لويدانتي والسامي والمسيحي واليهودي. وليس خافياً على أحد أننا أهل التصوف نتصور الروحانية ما وراء الدين. وهذا سبب توجه الخلائق إلى مقابر شيوخنا. وفي نفس الوقت فليكن معلوماً لنا جميعاً ألا نغض الطرف عن هذه الخطة بل أننا نرحب بكل حماس بالحوار بين الأديان. لكن الحوار بين المذاهب والمدارس الإسلامية لا نؤيده ولا نسانده؛ لأن الحوار بين الأديان فيه إمكانيات لتوسيع دائرتنا أما الحوار بين الدين الواحد فهو سم قاتل لنا لأنه يهدمنا من الداخل.

إن بعض الأحبة اعترضوا على الطريقة النقشبندية للتبليغ فمن رأيهم أننا لا نستطيع أن نقبلهم بدون الهيكل التنظيمي للبيعة. في هذه القضية لي رأي هو أن أي شخص لا يصبح مريداً بسبب البيعة بل كون المريد هو اسم لمستوى ذهني. لو أن أفراد أي تنظيم يحملون نفس الفكرة فلا وجه لرفضهم بسبب عدم اتخاذ الإجراءات القانونية للتنظيم بل عملنا هو أن

نأتي المنظمات الأخرى على مستوى عبودية الشيخ هذه. وعلينا أن نؤكد لهم أن وفرة العلوم والحكمة تقتصر على شيوخنا ومؤسسينا. أينما تكون عبودية الشيوخ بأي حال فهي مفيدة لنا. وفي النهاية أريد أن أعرض عليكم أمراً آخر وبمنتهى القلق. ففي العام الماضي أيضاً وجهت عنايتكم إلى هذا الأمر وهو أن الإنترنت وسيلة فعالة لوصولنا إلى الشباب المراهق ولكن في نفس الوقت إنها امتحان يحتاج إلى صبر كبير. بدأ ازدياد المواقع التي تطلب المبالغ النقدية للدخول في زمرة المريدين ولنيل الفيوض والبركات. هذه الأمور ليست صالحة لأهل الصفاء وتعطي انطباعاً سيئاً عنا. يا ليتنا ظللنا على الطريقة التقليدية للفتوح والنذور.

هذا المؤتمر المنعقد بلستمبوخ يقدم تحية تقدير وإجلال لمؤسسي جميع الطرق السبعين ويجدد عزمه أنه سيظل يرفع علم أهل بيت الأطهار.

بعد أن أنهى قطب الأقطاب خطبته رفع يده على الملأ وهتف بـ«**يا علي**» ورداً على هذا الهتاف دوي المؤتمر كله بهتاف «**يا علي يا علي**».

وقبل أن ينزل من المنصة ويرجع إلى مقعده وقف جميع الأقطاب الجالسون على المنصة وبدأ الواحد تلو الآخر تقبيل يده بصورة مبالغة في القداسة. والمجلس ظل يدوي فيه صوت «**يا غوثاه يا غوثاه**» و«**يا قطب الأقطاب**». وفي هذه الأثناء كان قد وصل بعض الناس الموجودين في الصفوف الأولى إلى المنصة وكانت كل الشواهد والقرائن تدل على أن الجلسة الافتتاحية قد وصلت إلى نهايتها.

وفي هذه الأثناء وعلى الجانب الأيسر من المنصة حيث كانت منطقة خالية ظهرت لي سيارة سوداء ففكرت قبل أن يذهب كبار الجلسة مودعين الحضور، لم لا نحصل على شرف وسعادة السلام والكلام والمصافحة. ولهذا وقفت من مقعدي بسرعة وبدأت أقطع المسافة بيني وبين المنصة

التي كانت منحدرة وغير ممهدة، ولكن تأسفت جداً عندما علمت أن الجزء الأمامي لقاعة المؤتمر كان قد أغلق أمامنا نحن الدراوشة وبما أنني كنت جالساً بعيداً وفي مكان مرتفع لذا لم ألمح هذا التقسيم فعدت إلى مقعدي بسرعة قاطعاً الطريق إلى الجزء العلوي وكانت قد سيطرت على فكرة مشاهدة القطب والسيارة السوداء التي كانت جاهزة للانطلاق من هناك خلال ثوان. كنت أرغب في عدم حرماني من هذه الفرصة ولهذا خرجت من الخيمة بخطي سريعة وبادرت بالذهاب إلى الباب الخارجي. بمجرد أن رأتني نفس الفتاة جاءت إلى مسرعة لكن لم يكن لدي وقت الآن للتحدث معها وكانت خطواتي أسرع منها. خرجت من البوابة الرئيسية بسرعة شديدة لكن بمجرد الخروج أدركت خطأي بشدة أنه لا طريق من هنا للنزول أو الوصول إلى المنصة.

٢٨

العودة من أولوداغ

بعد العودة من ميدان أولوداغ بدا لي كأنني كنت أحلم في اليقظة. كانت الساعة قد دقت العاشرة مساء والجو كان بارداً إلى حد ما. أما الأفواج السياحية والأزواج الشبان والأطفال المرحون الذين كنت قد تركتهم وقت القدوم على هذه الطرق الوعرة كانوا غائبين تماما. كان هناك خط أخضر للضوء الكهربائي، ممتد من هذه الطرق الوعرة إلى الممر. وإن كنت قد وصلت بسهولة إلى مقر إقامتي لكن على عكس الطرق الوعرة وغير الممهدة كان هذا الطريق طويلاً.

السيد مصطفى أوغلو كان ينتظرني بقلق شديد فبمجرد ما رآني عانقني وقال لي وهو يربت على ظهري: «**انتهت المهمة**».

ظللنا نتحدث عن الجوانب المختلفة لهذا المؤتمر لوقت متأخر من الليل. كنت أريد أن أذهب في الصباح الباكر مرة أخرى إلى هذا المكان للاشتراك في جلسته المفتوحة لكي أتعرف على أبعاد هذه الجلسة لكن قال لي مصطفى أوغلو: لن تجد هناك شيئاً الآن؛ لأن الوكالات السياحية لها اليد الطولي في طي المخيمات بسرعة فائقة.

في الصباح ودعنا أولوداغ. ومساء اليوم كان على أن أغادر إسطنبول ولذلك كنت أريد أن أصل إلى إسطنبول بسرعة لكن خدمة التليفريك كانت

تبدأ الساعة الثامنة صباحاً. فبعد العودة إلى (بُرسا) تذكرت الشيخ سعود واشتقت لضيافته على الكباب الإسكندراني، كما تمنيت أن أمكث هنا مزيداً من الوقت وأقوم برصد بعض الآثار للعاصمة القديمة للعثمانيين الأتراك لكن نظراً لضيق الوقت اكتفيت بالكباب الإسكندراني. في رحلتنا البحرية من «**جوزي ليالي**» إلى إسطنبول لم يكن يحلق على رؤوسنا الطائر الأخضر الآن؛ لأن سرية الرحلة كانت قد انتهت والحياة الطبيعية كانت قد عادت إلى أيامها ولياليها العادية. مناظر الساحل وجمال «**آركي بليجو**» والهواء البارد الذي كان يلمس السطح المائي في حرارة الشمس كان يخلق نفس الشعور بالراحة والسعادة التي كانت وقت الذهاب، بل كان يُرى أحياناً فوق السفينة قدوم بعض الطيور، لكن كل هذا كان خالياً من أي غموض صوفي.

وحينما رأت العيون في مؤتمر الأبدال والأوتاد، وفي المؤتمر السنوي لقطب الأقطاب الأجسام الإنسانية العادية التي كانت بكل جوانبها لأصحاب تدبير وتنظيم ولم تكن لأصحاب كشف وكرامات، فمن أين ستبقى سرية الطائر الأخضر. إن السياسة الداخلية للروحانيين واختلافاتهم البينية وعزمهم وحزمهم، كل هذه الأمور بعدما رأتها العيون المجردة سقط حجاب السرية وانتهى للأبد وزالت المشاعر والأحاسيس التي كانت تتولد منذ الطفولة عن السماع وعن مجذوب أنه متصل بالوسط الداخلي للأقطاب والأبدال. ولكن الأمر الذي كان يقلقني منذ البارحة هو ادعاء قطب الأقطاب بأن الصلاة والسلام الإبراهيمية التي تدخل في الصلاة ويقرأها كل مسلم كيف تكون من إبداعه واختراعه هو. كيف يمكن أن ينسب مجلس الروحانيين هذا الفضل إلى نفسه. إن مصطفى أوغلو الذي كان يمسك فنجان القهوة بدأ يقول بعدما رآني صامتاً ومتأملاً: يبدو أنك لم تستطع الخروج إلى الآن من جو المؤتمر، فحدثته عن قلقي. قال: إنني لست مستعجباً لادعائهم هذا. إنني أفكر في

هذا الأمر منذ فترة طويلة وقد اطلعت بشأن هذا الموضوع كثيراً على كتب التاريخ والآثار والتفسير والتأويل، وكنت مترددا مثلك في قول أي شيء حاسم. ولكن بعدما قلته الآن أن هؤلاء يدعون أنهم هم الذين قاموا بإبتداع الصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) فإنني لم أستغرب بل إن هذا الادعاء وثق ما توصلت إليه تحقيقاتي من نتائج. إن هذه الصلوات بمختلف صيغها التي تجري على ألسنة عامة الناس، فترى واحداً منهم يقرأ صلاة التاج والثاني تراه مشغولاً في قراءة الصلاة والسلام المكتوبة والبعض الآخر ألف الصلاة السريانية أو الصلاة الهذيانية. وهناك من يدعي أنه قام بإعداد أكبر مجموعة للصلاة والسلام ومنها دعاء كنز العرش والدعاء الجميل، بل هناك مجموعات كبير للأدعية والصلاة والسلام تلقى رواجاً وقبولاً عاماً بين أفراد الأمة. كل هذه الإبداعات من جانب العباد.

لكن العلماء الثقات لا يعتبرون لهذه المجاميع. حاولت إعطاء المعلومة لمصطفى أوغلو.

قال: أولاً، موقف علماء الثقات ليس واضحا في هذا الشأن، على سبيل المثال لا الحصر يقول بعض الناس أن صلاة التاج تحمل في ثناياها بعض كلمات الشرك وبناء على هذا لا تستحق هذه الصلاة أن يلتفت إليها أحد. وفي نفس الوقت يقول البعض الآخر عن هذه الكلمات لو قمنا بتأويل حسن لها فلن يكون هناك أي حرج في استخدامها. والأمر الثاني أن أولئك الذين لا يعترفون بهذه الأدعية والصلوات الموضوعة يعترفون بالصلاة الإبراهيمية، أليس كذلك؟ وهم يقرأونها في صلواتهم. فهل تحسب الصلاة الإبراهيمية من إبداع الروحانيين؟ سألت مصطفى أوغلو. قال: نعم، لقد وصلت إلى هذه النتيجة. انظر إلى الصلاة الإبراهيمية فهي لا تنزل على ميزان الوحي والتاريخ من وجهين. اقرأ الدعاء الإبراهيمي في القرآن الكريم، فسيدنا إبراهيم (عليه السلام) دعا لذريته أن ينزل الله عليها أمطار

فضله وكرمه؛ أي أن يرزقهم رزقاً وفيراً. ولكن الله رد بكل وضوح أن كون الذرية منك ليس ضماناً لنيل فضلي وكرمي **فقال**: «**لا ينال عهدي الظالمين**».

والآن السؤال الثاني يتعلق بالآل. هناك شهادة من التاريخ والوحي على آل إبراهيم، فالإثنان يشهدان بذرية إبراهيم (عليه السلام) غير أن القرآن والتاريخ لا يشهدان بهذا في حق النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، كأن الله سبحانه وتعالى قرّر أن ينتهي نسله (صلى الله عليه وسلم) عليه وحده فقط، وذلك لحكمة رآها الله سبحانه وتعالى، والقرآن يعلن بكل وضوح ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فما دام آل محمد لا وجود لهم في الدنيا فما معنى قراءة الصلاة والسلام عليهم؟

ثم ماذا تقول عن الآية القرآنية التي تطالب المؤمنين أن يصلوا على النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن الله وملائكته يصلون على النبي (صلى الله عليه وسلم).

بعد سماع اعتراضي هذا ابتسم مصطفى أوغلو ثم قال: القضية كلها نتاج التأويلات الباطلة لهذه الآية، انظر إلى القرآن الذي يقول بشكل قاطع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ فصلوا أيها المؤمنون أنتم أيضاً وسلموا عليه. والآن عليك أن تتأمل أين يموت الماء، استخدمت كلمة الصلاة في القرآن الكريم لمعنيين؛ الأول بمعنى عبادة الصلاة التي نحن نصليها ونقيمها كما جاء في سورة الجمعة ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. والمعنى الثاني للصلاة هو التأييد والنصرة، وفي هذه الآية هذا هو المعنى المراد أن الله وملائكته يؤيدون ويناصرون الرسول فيا أيها المؤمنون يجب عليكم أنتم أيضاً أن تؤيدوه وتناصروه وتقلدوه، وبالإضافة إلى ذلك قال ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي اتبعوه اتباعاً كاملاً. ولكن الروايات أبدلت هذا المعنى الصحيح للقرآن الكريم وأسدلت حجاباً عند هذا المفهوم بل أفقده معناه.

يقال بشأن هذه الرواية أنه حينما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين للرسول (ﷺ): «**يا رسول الله أمرنا الله أن نصلي ونسلم عليك فأخبرنا كيف نقوم بالعمل على هذا الأمر**». يقول الراوي: سكت الرسول (ﷺ) على هذا السؤال برهة ثم علمنا الدعاء الإبراهيمي.

والآن لو آمنت بهذه الرواية لتنتهي وتزول الرسالة الأساسية للآية، ومطالبة الله للمؤمنين تنتج تعقيدات كبيرة في فهم هذه الآية. لو كان طلب الله من المؤمنين هو قراءة الصلاة والسلام شفهياً فقط فليقل لي أحد ما معنى صلاة الله على الرسول (ﷺ). هل الله سبحانه وتعالى أيضاً يقرأ على رسوله: «**اللهم صل على محمد**». إنه كلام لغو أليس كذلك؟

كثير من الناس في حماس حب وعشق الرسول (ﷺ) لا يفكرون في مثل هذه الأمور ويؤمنون بالقصص والروايات؛ لأن هدفهم إنشغال الناس في أمور كلامية بدلاً من الحماية والنصرة العملية لمهمة رسول الله (ﷺ).

والآن مهما تقرأ الصيغ المختلفة المكتوبة للصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) ففي هذا العمل يمكنك أن ترى طريقة نجاة لنفسك وطريقة لجمع الثروة، لكن ليس من هذا نصرة وحماية لمهمة ودعوة رسول الله (ﷺ).

كانت أحاديث مصطفى أوغلو هذه اكتشافاً بالنسبة لي، فكلامه كان له وزن. فكّرت أنه مادام الموضوع أسيراً فلم لا أستفيد من معلوماته التاريخية؛ لأن له نظرة عميقة على الفكر الإسلامي للقرون الأولى. إنني بدلاً من أن أقبل دراسته هذه على الفور سألته: ألم تكن الصلاة الإبراهيمية جزءاً من صلاتنا طوال القرون الأولى؟

قال: تشهد المصادر التاريخية أن المسلمين في القرنين الأول والثاني على الأقل كانوا يقرأون بعد التشهد دعاء آخر، أو كانوا يقومون بدونه. وفي الروايات والآثار المتداولة ورد عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أن

رسول الله (ﷺ) علمه: إن كنت في أول الصلاة فبمجرد فراغك من التشهد قم، وإن كنت في آخر الصلاة فلتدع بعد التشهد ما شئت ثم سلم، وإن كنت في وسط الصلاة فانهض حين تفرغ من تشهدك، وإن كنت في آخرها ادع بعد التشهد بما شاء الله أن تدعو ثم سلم. وفي بعض الرواياتن الأخرى جاءت الكلمات على النحو التالي: ويستخير أحدكم من الدعاء ما أعجبه الله ثم ليدع الله (عز وجل).

إن إضافة آل محمد جاءت بنظرية منظمة ومنضبطة بعد نجاح الدعوة الفاطمية. وقد كانت القوة كلها مركزة على آل فاطمة (رضي الله عنها) ولكن أقارب الرسول (ﷺ) الذين كانوا يحسبون أنفسهم أحق بالخلافة بسبب القرابة كانوا يقومون بتحسين وتزيين أنفسهم بالمصطلح الواسع لأهل البيت. كان فيهم العباسيون والعلويون ويدخل تحت هذا المصطلح الفضفاض أولاد علي (رضي الله عنه) من فاطمة (رضي الله عنها) وغيرها من زوجات علي (رضي الله عنه). ففي القرنين والنصف من الزمان لم يكن قد تشكلت أشياء من أمثال ميلاد النبي (ﷺ) وميلاد فاطمة (رضي الله عنها). بعد قيام الخلافة الفاطمية بدأت الدعاية لنشر فضائل آل بيت الأطهار على المستويين الحكومي والشعبي، وفيما بعد نال تصور وتخيل آل محمد وآل البيت قداسة دينية. وعندما أصبحت قراءة الصلاة والسلام على آل محمد (ﷺ) وآل البيت جزءاً من الدين، فمن كان بوسعه أن يتحدى السيادة الدينية لهؤلاء. وبناء على هذا انتشر السادة الأشراف في مختلف بقاع العالم الإسلامي بصورة مذهلة، ووجدت طريقة الصلاة والسلام هذه رواجاً كبيراً حتى أعد كل واحد مجموعة كبيرة بالصلاة والأوراد. والشيوخ أوصوا مريديهم بدلاً من القرآن الكريم بقراءة قصيدة البردة ودلائل الخيرات وأمثال حزب البحر من الكتب. وجميع هذه القصائد في الواقع توسع للصلاة على النبي (ﷺ)، وكان يقال بكل يقين وتأكيد أن من يقرأ هذه الصلوات والقصائد والأدعية

سيحصل على فوائد جمة. وفي هذه الأدعية والقصائد كانت تطلب الاستعانة من رسول الله (ﷺ).

بعض الناس العقلاء كانوا يبدون اشمئزازهم من هذه الأمور، لكن علماء السلطة كانوا قد منحوا سنداً لهذه الكتب قائلين إنهم رأوا شيوخهم منشغلين بهذه الكتب. هذه المجموعات للصلوات على آل النبي والقصائد وسجلات الأوراد والوظائف مقبولة ومتداولة إلى يومنا هذا على المستوى الخاص والعام. فادعائهم بأنهم هم الذين اخترعوا هذه الصلاة على النبي (ﷺ)، وجعلوا الرسول ندا لله سبحانه وتعالى فدعواهم هذا ليس خاليا من الحقيقة.

فهل ترى وراء نشر الأوراد والوظائف أي تخطيط منظم؟ استمرت مداخلاتي.

قال: منذ أن نشأت الحركة الفاطمية إلى يومنا هذا والحملات والغارات مستمرة باسم آل البيت على رأس مال الأمة النظرية والفكرية. وفي هذه الحالة لا يمكن صرف النظر عن هذه الاحتمالات. كل هذه السجلات للأذكار والأوراد والأبيات والقصائد ما هي إلّا ترويج لهذه الصلاة والسلام على النبي (ﷺ)، حيث تستخدم مع الله سبحانه وتعالى ذات النبي (ﷺ) أيضاً. وتم ضم الرسول (ﷺ) في هذه الاستعانة؛ كي تصبح السلطة الروحانية للسادة الأشراف محكمة ومستحكمة عن طريق آل الرسول (ﷺ).

قيل عن قصيدة البردة ودلائل الخيرات وحزب البحر وأمثالها من الكتب أن لها فضائل كبيرة، كأنها ليست كتباً بل هي مصانع سريعة الحركة. حيث يبشر المؤمنون في قفزة واحدة بالفوائد المالية الكبيرة والنجاة الأخروية. خذ على سبيل المثال البوصيري، يقال عنه أن رسول الله (ﷺ) فرح بهذه القصيدة فرحاً كبيراً وألقى على جسم صاحبها

المفلوج في المنام بردته وحينما استيقظ البصيري في الصباح وجد نفسه خالياً من أي مرض. وكذلك يقال عن الجزولي أنه ذهب ذات مرة إلى حافة بئر ليتوضأ، لكن مستوى الماء في البئر كان عميقاً ولم يستطع الوصول إلى سطح الماء، فبدأ العودة بعدما أصابه اليأس حينئذ ظهرت هناك فتاة صغيرة طعنت عليه قائلة: إن الشخص الذي يكون له كل هذه الشهرة في مجال الزهد والتقوى ولا يستطيع الحصول على ماء من البئر، ثم بصقت في الماء وبمجرد بصقها في البئر وصل الماء النابع إلى مستوى حافة البئر فتوضأ الجزولي وسأل الفتاة: ما سر كرامتك هذه؟ قالت: لا شيء إلّا أنني أصلي وأسلم على رسول الله (ﷺ) بكثرة. عندئذ قرّر الجزولي أنه سيقوم بترتيب مجموعة لا مثيل لها للصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ).

كذلك إن كتاب دلائل الخيرات الذي رتبه متصوف صغير من إحدى قرى المغرب والذي أصبح بمرور الأيام منتشراً ومقبولاً على مستوى كبير عن طريق منظمة صوفية تعمل تحت الأرض وأعد الحكام له نسخة مزخرفة غالية وحسبوا أن وجوده لديهم يجلب لهم الخير والبركة. ومعظم أوقات الخاصة والعامة ضاعت بسبب مثل هذه الكتب. أما الوحي المنزل من عند الله فأصبح مجرد ديكور.

كان مصطفى أوغلو مستمراً في كلامه، وكنت في حيرة شديدة من أين بدأ الموضوع وأين وصل الآن، وحينما رآني صامتاً ومستمعاً جيداً قال لي: سامحني لأنني بدأت الخطابة.

قلت له: إنك بكلامك هذا قد أثرت مسائل وقضايا مهمة جداً ووضعت علامة استفهام على ثقافتنا الدينية برمتها. انظر إلى القضية كم هي دقيقة وحساسة جداً. حب الرسول (ﷺ) جزء من إيماننا، والروحانيون وضعوا عليه براءة اختراعهم، وأسدلوا عليه الستار بمكرهم وخداعهم بشكل جميل؛ حيث يحتاج رفع هذا الحجاب كل الاحتياط والحذر.

وافق مصطفى على رأيي هذا وقال: تخوفك في محله. إن هناك كبار من أهل الفكر والرأي يصعب عليهم تقدير هذه المظاهر الاجتماعية لعشق وحب الرسول (ﷺ) التي نحملها على الأنشطة الدينية هي في الواقع ليست مخالفة لمهمة الرسول (ﷺ) فحسب بل تعطلها. ويبدو في الظاهر أن حياة المسلمين تتقدم إلى الأمام إلّا أن الأمر عكس ذلك تماماً. إن مجالس ميلاد النبي (ﷺ)، وفوضي العرس والخروج لأربعين يوم لنشر الدعوة والتبليغ والمدائح النبوية والمناقب والابتهالات والنياحة والاجتماعات، هي حياة المسلمين اليوم. قال: كأن الحياة الدينية محصورة في هذه الأمور، فتأثير الشعر والعزف وصل حتى إلى مواطني بلاد الغرب، وبدأت تجذبهم إليها. إن اجتماعات بعض المنظمات الدينية تقارن الآن بالاجتماع العالمي للحج.

لكن كل هذه المظاهر ما هي إلّا خدعة بصرية وفتنة دينية. هي مظاهر السلام والأوراد والأذكار وقراءة الصلاة على الرسول (ﷺ) وآله.

الإسلام المنحوت وما نتجت عنه من التباسات هو موضوع الروحانيين، وفي مثل هذه الحالة الضبابية فإن العودة إلى الإسلام من جديد ليست أمراً هيناً.

كان مزاج مصطفى أوغلو اليوم جيداً، وكلامه كان متدفقاً مثل الشلال. كانت نفسي تتمنى أن يستمر هو في الكلام وآذاني كلها صاغية له، لكن سفينتي الآن كانت قد وصلت إلى «**ياني كابي**» وكنت على عجل للوصول إلى الفندق؛ لأنه كان على أن أرتب أمتعتي وحقيبتي لمغادرة البلاد. ومصطفى أوغلو كان قلقاً بشأني حيث كان ينبغي عليه أن يأتي لي بهدية الكتب العربية القديمة التي قد وصلت من مكتبة الحقيقة، وكان عليّ أن أصطحبها معي وألا أدعها هنا في إسطنبول.

وصلت من «**ياني كابي**» مباشرة إلى الفندق، وقد ودعني مصطفى أوغلو على أنه سيلتقي بي في المطار مع الكتب.

طوال طريق الذهاب إلى المطار ظللت محاطاً بهجوم من الأفكار، فالأيام الإحدى عشر التي قضيتها في إسطنبول كانت تتجلى لي فيها مناظر ملموسة للحضارة والفكر لأحد عشر قرناً من الزمان التي مضت. والآن تبدو كأنها في الواقع لم تكن أكثر من إحدى عشرة ساعة. من كان يدري أن هذه الأيام الإحدى عشرة ستمضي هكذا في غمضة عين.

٢٩

الإعلان الأخير

قابلت مصطفى أوغلو مع حزمة من الكتب حيث كان ينتظرني في مكتب استعلامات الخطوط الجوية التركية. فرغت من الإجراءات الرسمية للسفر بشكل ما واستأذنت من مضيفي الكريم وبقلب مهموم وعينان دامعتان. فبعد الانتهاء من إجراءات السفر والمغادرة توجهت إلى قاعة انتظار الطائرة. في هذه القاعة فتحت بسرعة حزمة الكتب وفرحت جداً عندما وجدت فيها الطبعات الحديثة لبعض الكتب العربية النادرة. بدأت أقلب صفحات كتاب مواقيت الصلاة وحينما رأيت بعض مسائل الرياضيات الدقيقة وحلا للمثلث الكردي ورسماً لمختلف الدوائر المعقدة في هذا الكتاب أصابتني الدهشة. إن الجدول الدقيق لتحديد أوقات الصلاة الذي نراه معلقاً في مساجدنا يعد علامة للرجعية والتخلف عند بعض الناس. لقد تحمل علماء الرياضيات المسلمين كثيراً من المشاق واخترعوا معادلات عديدة استطاعوا من خلالها إيجاد تقدير صحيح لمدار الشمس حول القطب وهكذا أمكن لهم تحديد القبلة من جميع الأطراف والأكناف. وكان هناك كتاب عربي قديم آخر كان في يوم من الأيام ملء السمع والبصر لمؤقتي الصلوات في مساجدنا وكانت هناك رغبة لدي الجميع في أن يجعلوه أحسن فأحسن مستخدمين في هذا

مهارتهم الفنية. فميراث المسلمين هذا أصبح اليوم غريباً عليهم. إنني كلما تصفحت أوراق هذا الكتاب ازدادت دهشتي من عظمة ميراثنا العلمي القديم هذا.

كانت أيام عندما كنا نعرف زاوية مدار الشمس عن طريق القطب ووقتئذ كانت قبضتنا على دوران الليل والنهار وكنا نحس بهذه القبضة واليوم نجد أنفسنا عالة على دوران الأيام بعدما وقعنا فريسة للأقطاب والأبدال. إن الروحانيين قاموا بالتأثير على أذهاننا الطواقة للمعرفة بحيث انحرفنا عن دعوة القرآن الاستكشافية وصار هدفنا المكاشفة والمجاهدة. وظلت تطاردنا الهلاوس باسم الدين. ونتيجة لهذه المطاردة لم نستطع الإبقاء على سبقنا لشعوب العالم في الدنيا الحقيقية، وتم عزلنا من منصب قيادة وسيادة العالم وعلى الرغم من هذا فسلطنة الروحانيين ما زالت قائمة بكل سفاهتها وحماقتها بل إن فتوحاتهم الكاذبة والخادعة بدأت تتسع باستمرار ولكن الدعوة العالمية للإسلام وتفتح أذهان المسلمين للاكتشاف ما زالت مجمدة ومعطلة منذ قرون.

وما لم تتكشف الحقيقة الواقعة لعامة المسلمين وهي أن المظاهر السائدة للحياة الدينية وسلسلة المبايعة والكرامات للروحانيين لا تمثل الإسلام في شيء بل كل هذه المظاهر الكاذبة خطط ممنهجة للقضاء على الإسلام الحقيقي. وما لم يحدث قلق عام لدي الناس لاستعادة الرسالة المحمدية لمكانتها لا يمكن توفير عناصر أساسية للانطلاق من جديد لأن العقل في مواجهة المكاشفات والروايات التاريخية ليس في استطاعته ومقدرته أن يرفع الستار عن غارات وحملات الروحانيين على الإسلام.

وما دام التاريخ بشكل عام عاجزاً عن إخبارنا أن جميع مساعي أهل الصفاء بل بروزهم وظهورهم في الواقع كان لتمكين السلطة السياسية. فمن أين لطالب التاريخ العادي أن يعلم أن مولانا الرومي في الواقع كان يؤيد

إمامه الإسماعيلي الإمام شمس الدين تحت ستار الشمس والذي كان مجبراً على إخفاء شخصيته الأصلية.

التاريخ المقبول بصفة عامة يحدثنا أن الصوفية ظلوا بعيدين عن السلطات السياسية على الدوام وظلوا على مسافة من حكام الوقت؛ لكن الدراسة العميقة للتاريخ وتحليل الوثائق التاريخية ودراستها المتأنية تخبرنا أن متصوفي الفرقة المولوية ظلّت علاقاتهم مع الخلفاء الأتراك قوية جداً، بل البعض منهم أقاموا علاقات نسب معهم وبإيماءتهم تم تعيين بعض الناس في مراكز حساسة ودقيقة للدولة. حتى في الأيام الأخيرة للخلافة شاركت الفرقة المولوية في أعمال مسلحة. وكذلك كانت الأسباب السياسية أكبر بكثير من الأسباب المعلنة وراء القتل - من الحلاج إلى شهاب الدين المقتول - وقد وصل سرمد أيضاً إلى حبل المشنقة بسبب انتمائه للمخيم السياسي المعارض.

وكذلك سلاطين دهلي كانوا يحسدون نظام الدين أولياء وكان وراء هذا الحسد أيضاً العلل والأسباب السياسية. ليس هذا فحسب بل يقال: عندما اتضح للغزالي عدم قيمة الدنيا ترك كرسيه في المدرسة النظامية ببغداد ولجأ إلى التصوف. والغزالي نفسه أعطى هذا الانطباع لقرائه من خلال كتابه «**المنقذ من الضلال**»، ولكن الناس الذين لهم نظرات متفحصة للوثائق السياسية المختلفة لهذا العصر يعرفون جيداً أن ترك الغزالي للدنيا وابتعاده عن النظامية ببغداد كان في الواقع نتيجة لحدوث تغيير مفاجئ على خلفية الأحداث السياسية. إن الغزالي كان مصنفاً لكتاب «**فضائح الباطنية**» وقلمه قد جاد ضد الإسماعيلية وحينما فاضت روح مربيه نظام الملك على أيدي الفدائيين الإسماعيليين فلم يكن هناك مفر للغزالي في هذه الظروف سوى الهروب من بغداد. وخرج للحج من بغداد معلناً ترك الدنيا. وفي هذه الرحلة لم يصل إلى مكة المكرّمة، ولكنه نال شهرة كبيرة

في مجال الورع، والتقوى والزهد في الدنيا حيث لم يعد لديه أي اهتمام بالفريق المخالف له. فالحقيقة شيء والعين ترى شيئاً آخر، يا إلهي ما هذا الغموض.

كنت غارقاً في هذه الأفكار حتى ارتفع النداء الأخير من الميكروفون وربت موظف الخطوط الجوية التركية على كتفي قائلاً: اكتمل ركوب المسافرين ولم يبق سوى مسافر أخير وهو حضرتك. فوجئت بهذا وهرولت مسرعاً إلى الطائرة وبدأت تومض أمام عيني الأيام الإحدى عشرة ومعها القرون الإحدى عشرة وقت مغادرتي مدينة إسطنبول.

ولو لم أكن استيقظت على النداء الأخير ولم يكن قد ربت أحد على كتفي فربما كانت قد فاتتني الرحلة. فكم أتمنى أن تسمع هذه الأمة الغارقة في سبات عميق صوت النداء الأخير في الوقت المناسب، ويأتي أحد ليربت على كتفها ويقول لها: قرون مضت في المراقبة والمكاشفة، فلو لم تستيقظي الآن فستفوت عليك مرة أخرى طائرة السيادة والإمامة والقيادة.

فهرس المحتويات

١: الاستدعاء ٧

٢: الكائن السماوي ١١

٣: هو قادم ١٧

٤: قصر حرم السلطان ٢٧

٥: الاعتراك مع التاريخ ٣٧

٦: بلغ العلا بكماله ٤٧

٧: الأسطورة النائمة ٥١

٨: يا مهدي آخر الزمان مدد! مدد! ٥٧

٩: سحر الألحان ٨٥

١٠: يا رب البهاء ٩٧

١١: سفينة النجاة ١٠٧

١٢: الحديث التليفوني مع الرسول (ﷺ) ١١٧

١٣: مدد يا سيدى عبد القادر الجيلاني ١٣٩
١٤: السيد عثمان ١٤٧
١٥: سفينة النور ١٧١
١٦: رسول الله (ﷺ) ودرس البخاري ١٨٧
١٧: كشف القبور ١٩٥
١٨: العلب المغلقة واللطائف السبعة ٢٠٣
١٩: الشبكة النقشبندية ٢٠٩
٢٠: من آذى جاره ورثه الله دياره ٢١٩
٢١: الدرس الصامت ٢٢٧
٢٢: البشارة ٢٣٣
٢٣: القبة الخضراء والطيور الخضراء وأشبال المدينة المنورة ٢٣٩
٢٤: شب جائ كه من بودم ٢٤٧
٢٥: المريد لا يريد ٢٥٥
٢٦: نظر بوجك ٢٧١
٢٧: في مجلس قطب الأقطاب ٢٨١
٢٨: العودة من أولوداغ ٢٩٩
٢٩: الإعلان الأخير ٣٠٩
فهرس المحتويات ٣١٣